الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر - باتنة -

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

شعراء المغرب الأوسط النازحون إلى القيروان قبل خرابها

« دراسة موضوعاتية فنية »

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص أدب مغربي قديم

إعداد الطالب : عبد العزيز نقبيل .

إشراف الدكتور: عيسى مدور .

السنة الجامعية : 1430/1429هـ - 2009/2008 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر باتنة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

شعراء المغرب الأوسط النازحون إلى القيروان قبل خرابها

«دراسة موضوعاتية فنية»

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص أدب مغربي قديم

إعداد الطالب : عبد العزيز نقبيل .

إشراف الدكتور: عيسى مدور .

لجنة المناقشة

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
1	محمد زرمان	أستاذ التعليم العالي	باتنة	رئيسا
2	عيسى مدور	أستاذ محاضر	باتنة	مشرفا ومقررا
3	أحمد جاب الله	أستاذ محاضر	باتنة	عضوا
4	النواري بوحلاسة	أستاذ محاضر	قسنطينة	عضوا

السنة الجامعية: 1429/1430هـ - 2008/2009 م

الإهـــــداء

إلى والــديَّ الكريمين :

أبي رحمه اللّه وأسكنه فسيح جناته

وأمي الصابرة الطاهرة أطال اللّه عمرها

وإلى كـــــل أفـــراد العائلـــــــــــة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــــة

كانت القيروان بعد الفتح الإسلامي للمغرب أول مدينة ازدهرت بالعلوم والآداب، فأصبحت مركزا علميا مرموقا تشد إليه الرحال، ويقصده طلاب العلم، وبخاصة أبناء المغرب الإسلامي، و قد كان أبناء المغرب الأوسط يتجشمون السفر إليها والإقامة بها طلبا للعلم، كما يهاجرون إلى المشرق للغرض نفسه، و طلب العلم خصلة محببة عند كثير من الجزائريين قديما وحديثا، فمنهم من يطيب له المقام بمكان هجرته، ومنهم من يعود، على اعتبار أن المفكر أو الأديب كان فوق الحدود الإقليمية التي تمليها التطورات السياسية الظرفية، فالأديب كان يتجاوز الحدود ويلقى الترحيب أينما حل طالبا العلم أو مسهما في التعليم، لأن العلم لا تؤثر فيه الحدود ما دام أهله أحرارا .

والمتأمل لجوانب الحياة الأدبية في المغرب القديم قبل خراب القيروان على أيدي بني هلال، يلاحظ وجود شخصيات علمية وأدبية مهمة تألقت في سماء الأدب والشعر في هذه الفترة، وساهمت في إشعاع عاصمة الثقافة القيروان آنذاك ومنهم يوجد أدباء ونقاد وكتاب نزحوا من المغرب الأوسط، وقصدوا حاضرة القيروان، أين عرف الأدب نضجا و ازدهارا في هذه الفترة التي شهدت قيام دول على أرض المغرب كالدولة الرستمية و الأغلبية والفاطمية ، وبعد ذلك تطور الوعي السياسي لأبناء المغرب فتكلل بتأسيس دولة صنهاجة ويرى الدارسون أن هذه الفترة قد تكاملت من الناحية الاجتماعية و الفكرية، و كان لها تأثير على الأدب في المغرب القديم ، كما عرف هذا العصر بالانفتاح الفكري و التوحد السياسي في كثير من الأحيان و هذا ما ساعد على نبوغ المغاربة في الأدب و الشعر خاصة و خاضوا التجربة الشعرية في جميع الموضوعات.

وإيمانا مني بتقديم دراسة أسعى جاهدا فيها إلى تناول ما تركه الشعراء النازحون من إسهامات ثقافية وإبداعات شعرية خلال هذه الفترة، كان لزاما علي أن أحدد الشعراء الذين يتناولهم البحث بغية التحكم في الموضوع، فعدت إلى المصادر التي تيسر الحصول عليها أبحث عن كل شاعر نزح إلى القيروان وخلّف إبداعا شعريا، فوجدت شعراء توافر فيهم الشرطان النزوح إلى القيروان والإبداع الشعري وأذكر منهم :

- أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التيهرتي .
- أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي .
- أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني .
- أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي (ابن قاضي ميلة) .
- أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي .
- أبو القاسم محمد بن هانئ بن محمد (ابن هانئ الأندلسي) .
- عبد الله بن محمد الجُراوي .
- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني .

وبعد القراءة المتأنية جمعت نماذج من شعر هؤلاء في مختلف الموضوعات، مع تسجيل اختلاف واضح في المادة الشعرية من ناحية الكم والمستوى الفني، فبعض الشعراء لم أجد لهم إلا بعض المقطّعات والنتف من الكتب التالية: كتاب " أنموذج الزمان في شعراء القيروان" وكتاب" العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " لابن رشيق و كتاب"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني، وكتاب" تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات " للدكتور شوقي ضيف، وكتاب " تاريخ الأدب العربي " للدكتور عمر فروخ

وكتاب" الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد " للأستاذ محمد بن رمضان شاوش، وكتاب " الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها " للأستاذ رشيد بورويبة، بالإضافة إلى ديواني شعر ابن هانئ الأندلسي وابن رشيق .

ورأيت من الواجب أن ألتفت إلى تلك الفترة من تاريخ المغرب و إلى أولئك الشعراء سواء الذين كانت نشأتهم أصلا بالمغرب الأوسط أو ممن أقاموا به زمنا ثم قصدوا القيروان، وتأتي قيمة هذه الدراسة لما يحمله الموضوع من أهمية في إحياء التراث الأدبي والفني المغربي، وجمع جزء منه والتعرف على شعرائه الذين كان لبيئة المغرب الأوسط دور في تكوينهم وشحذ قرائحهم قبل أن ينزحوا إلى القيروان، كما ترمي الدراسة إلى تكوين مدونة شعرية من خلال ما جُمع من قصائد ومقطّعات شعرية و التي تم تصنيفها موضوعاتيا .

ومن بين الدراسات التي اهتمت بالشعر المغربي القديم وحاولت الكشف عن جزئياته وقضاياه ،أذكر بعض الجهود التي ساعدتني على الولوج إلى عالم هذه الفترة من تاريخنا الأدبي ومنها :

جهود الأستاذ رابح بونار في كتابه " المغرب العربي تاريخه وثقافته "، وكتاب " تاريخ الأدب الجزائري " للأستاذ محمد بن عمرو الطمار، ودراسات الدكتور العربي دحو المتمثلة في " مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم " و " الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية، وكتاب " أدب المغرب قديما " للدكتور عمر بن قينة، وكتاب " محاضرات في الأدب المغربي القديم " للدكتور عبد العزيز نبوي وكتاب دراسات في الأدب المغربي العربي لسعد بو فلاقة .

ودعت طبيعة هذه الدراسة التي تبحث في تاريخ الأدب إلى الاستعانة بالمنهج التاريخي الذي اعتمدته خاصة في الفصل الأول أين تناولت السياق التاريخي الذي يحدد مظاهر الحياة العامة للمغرب في تلك الفترة، وكذلك عند البحث عن حياة الشعراء وإثبات نزوحهم إلى القيروان، ونظرا لتنوع التجربة الشعرية عند شعراء هذه الفترة اعتمدت على منهج التحليل الفني لأنه يعالج النصوص حسب مدلولاتها و مقتضيات أصحابها النفسية و الاجتماعية ، و هذا المنهج يعطي للقارئ حرية التأويل و التعليق ليعالج النصوص من زوايا مختلفة من دون أن يحمل النص ما لا يحتمل و من خلال ذلك حاولت إبراز قيم النصوص الفنية و الجمالية، كما استعنت بالمنهج التحليلي الفني عند القيام بتصنيف النصوص الشعرية إلى موضوعات قصد دراستها وتحليلها

لإبراز قيمها الفنية والجمالية .

ولتنظيم العمل قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، خصصت الفصل الأول لمظاهر الحياة العامة في المغرب الإسلامي قبل خراب القيروان، ومن خلال ذلك وضحت للقارئ أهم الجوانب السياسية والاجتماعية والفكرية واهم الحواضر التي نشأ في ظلها ونهل من بيئتها الأدبية الشعراء المعنيون بالدراسة وأتبعته بالفصل الثاني الذي تناولت فيه الموضوعات الشعرية التي ظهرت عند بعض الشعراء واختفت عند آخرين من مدح ووصف ورثاء وزهد وغزل وهجاء وموضوعات أخرى، تناولتها بالدراسة والتحليل مركزا على أهم المعاني التي تم توظيفها، وخصصت الفصل الثالث للدراسة الفنية، فتطرقت فيه إلى الصورة الشعرية و إلى التشكيل الموسيقي باعتبارهما ركني البناء الشعري العربي القديم الذي لا تكتمل بنيته إلا بهما، كما عالجت في هذا الفصل قضية الإحالة بأنواعها التاريخية والدينية والأدبية التي تعد ظاهرة فنية في الشعر المغربي القديم، وأنهيت البحث بخاتمة أوجزت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج .

أما بالنسبة للمصادر والمراجع فلا أحد ينكر فائدتها في تذليـــل الصعوبـــات وإنـــارة الطريـــق أمام كل باحث ، فقد وفرت لي ما أحتاجه خلال مراحل البحث، والبحث عن المصادر والمراجع المهمة التي تخدم البحث أمر متعب لأن ذلك يتطلب جهدا ووقتا وبخاصة في مجـال هــــذا التخصـص المعـروف بفقـد ونقص المراجع .

و لست أزعم في هذه الدراسة بأنني قد أتيت على كل ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع، فبلا شك أن آفاقه لازالت تتسع للكثير ، و كل ما قمت به ما هو إلا جهد متواضع يحاول بقدر الإمكان أن يضيف شيئا و لو يسيرا إلى الدراسات العلمية الأكاديمية التي تناولت الأدب المغربي القـديم، هـذا الأدب الـذي يبقـى دائمـا أدبا خصبا يحتاج إلى مزيد من البحث.

وإذا كانت هناك كلمة أخيرة أسوقها بين يدي الحث ، فهي الإقرار بالفضل لذويه، فالبحث ما كان ليصل إلى ما وصل إليه لولا الدعم الذي لقيته من أستاذي المشرف الدكتور " عيسى مدّور " الذي لم يبخل علي بالتشجيع والتوجيه والدعم المعنوي طوال فترات البحث، فجزاه الله عني كل خير، وله مني أعظم الشكر والتقدير، كما لا يفوتني شكر إدارة و أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة باتنة وكل من أعان وأسهم بأي مساعدة كانت، وحسبي في هذا العمل أنني أخلصت النيـــة وبذلـت الجهـــد والله أســـأل التوفيـــق والرشاد.

الفصـــل الأول

مظاهر الحياة العامة في المغرب الإسلامي قبل خراب القيروان

- الفتح الإسلامي للمغرب .
- الدولة الرستـــمية .
- الدولة الأغلبـــية .
- الدولة الفاطمـــية .
- الدولة الصنهاجية (الزيرية) .

الفتح الإسلامي للمغرب :

تعود محاولات الفتح الأولى إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب – ﷺ–حين دخل المسلمون مصر فكان من الطبيعي أن يتطلع الوالي عمرو بن العاص إلى فتح افريقية بعد أن أتم فتح مصر سنة 20 هجرية ثم فكر عمرو بن العاص في متابعة الفتح لشمال افريقية، «فاستأذن الخليفة فنهاه عن ذلك وامتثل الأمر وبقي واليا على مصر حتى مات عمر وخلفه عثمان بن عفان– ﷺ– »[1] وبعد فتح مصر وطرابلس أخذ الخليفة عثمان في إتمام ما بدأه سلفه، فأمر عامله عبد الله بن سعد بن أبي سرح بمواصلة الفتح سنة25 هجرية.

فخرج عبد الله بن سعد إلى إفريقية وكان صاحبها يوم ذاك بطريق يسمى "جرجير" وكان سلطانه من طرابلس إلى طنجة، «والْتقى به في مكان يعرف "بسبيطلة" وقُتل قائد الروم في هذه المعركة على يد عبد الله بن الزبير»[2] رغم عدة جيشه وعدده، ولما انهزمت جيوش جرجير سار عبد الله بن أبي سرح حتى نزل مدينة قرطاجنة حصن الروم فحاصرها حتى فتحت، ثم بلغت جيوشه قصر قفصة، وبهذا تم إذلال الروم بافريقية ورعبو رعبا شديدا، وأمر الوالي بطلب الأمير عبد الله بن الزبير فقال له: « ما أحد أحق بالبشارة منك فامض فبشر أمير المؤمنين عثمان بالمدينة بما أفاء الله على المسلمين وكان ذلك سنة 27 هجرية » [3].

ولا شك أن هذه المعركة كانت حاسمة وفاصلة بين الجيش الإسلامي وقوات الروم التي كانت على أهبة الاستعداد حيث كان تعدادها يتكون من مائة وعشرين ألفا من الفرنج والروم والبربر وملوكهم وعدد المسلمين يومئذ عشرون ألفا، وبحسمها حقق عبد الله بن أبي سرح نتائج إيجابية أهمها فتح سبيطلة وقفصة وحصن الأجم، وأذل الروم والبربر، وأهم من ذلك قبول بعض ملوك البربر الإسلام، وتعتبر هذه من أهم نتائج هذه الغزوة ومكسب كبير للإسلام والمسلمين [4] وقد اكتفى عبد الله بن أبي سرح بالمعاهدة والصلح، ولم يترك حامية استطلاعية هناك، ولعله اعتمد ذلك لما رأى ما بدا له من استعداد بعض قبائل البربر لقبول الإسلام ولذلك عاد إلى مقر ولايته في مصر سنة 28 هجرية غير أنه «عاد لمواصلة فتح افريقية سنة 33 هجرية مرة ثانية حين نقض أهلها العهد مما يدل على أن ابن أبى سرح حاول أن يحتفظ بافريقية تابعة للمسلمين عن طريق المعاهدة والصلح فلما نقضت العهد غزاها ثانية» [5] .

([1]) **محمد بن عمرو الطمار :** تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1984، ص13 .
([2]) **ابن عذارى المراكشي:**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج1،تحقيق ج.س.كولان و إ.ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان، ط3، 1983، ص 9 .
(3) **المصدر نفسه** ، ص 12 .
(4) **ينظر:د/ محمد محمد زيتون :** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية،دار المنار،القاهرة،ط1،1988،ص 30.
(5) **ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب ، ص 15 .

غير أن ما جد من حوادث في مركز الخلافة الإسلامية قد حال بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما تم فتحه أو مواصلة الفتح، فقد عصفت بذلك الفتنة التي أحاطت بعثمان بن عفان_ﷺ_ وتوقفت بسببها الفتوحات الإسلامية و استمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان _ ﷺ _ ولم تخمد تلك الفتنة التي استعرت في المشرق من أجل الخلافة إلا بانعقاد البيعة لمعاوية ابن أبي سفيان شقيق أم حبيبة إحدى أمهات المؤمنين، وكان هذا بعد اغتيال أمير المؤمنين الخليفة الثالث علي بن أبي طالب_ﷺ_ سنة 40 هجرية، عند ذلك توجهت الأنظار إلى تجديد الفتوحات الإسلامية في إفريقية بعد أن تعطلت طوال عهد الانشقاق الذي استمر ثماني سنوات، ولم يتفرغ به معاوية لهذا الأمر إلا بعد ما توطدت الخلافة، واستخدم معاوية بن حديج الكندي على ولاية مصر وتم ذلك سنة 45 هجرية [1].

وحينما باشر ابن حديج مهامه بشان الفتوحات وبلغ افريقية واجه ثورة البربر الساخطين على العرب كما واجه الامدادت العسكرية الهائلة التي أرسلها قسطنطين الثاني من روما إلى هذه البلاد وفي هذه الظروف تمكن معاوية بن حديج الذي كان رفقة كل من عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير و عبد الملك بن مروان ويحي بن الحكم بن العاص وغيرهم من أشراف قريش الذين أبلوا بلاء حسنا في هذه المعارك وتمكن جيش ابن حديج من إخماد ثورة البربر ودك حصون الروم وفتح حصن"جلولاء"و الانتصار على جيش البيزنطيين[2] .

وما لبث معاوية بن أبي سفيان في سنة 50 للهجرة أن عزل ابن حديج عن افريقية وعيَّن مكانه عقبة بن نافع الفهري الذي كان عاملا على" برقة" و"زويلة " في ولاية أولى، ولما وصل إفريقية علم أن كثيرا من أهل البربر ارتدوا ، فساءه ذلك وشمّر على ساعد الجد لإرجاعهم إلى الحق، وحملهم على الاهتداء برسالة الإسلام القائمة على تحرير المخلوق من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، وجعل الناس سواسية في الحقوق و الواجبات و حارب بذلك البربر وانتصر عليهم[3] وظهرت عبقرية عقبة بن نافع في أثناء حملاته على بلاد المغرب جلية في آرائه السديدة عندما رأى أن فتح تلك البلاد ينبغي أن يتم في إطار خطة تقوم على تأسيس قاعدة ثابتة يستقر فيها المسلمون ثم يتابعون منها الفتح، وبعد مشاورة أهل الرأي وقع اختياره على مكان لهذه القاعدة سماها القيروان «وشرع في بنائها بعد قضائه على مقاومة البربر والروم سنة50هجرية، واشتغل عقبة بن نافع بتأسيس القيروان أربع سنوات أو تزيد قليلا»[4].

(1) **ينظر: ابن عذارى المراكشي :** البيان المغرب ، ج 1 ، ص 17،16 .

(2) **ينظر: المصدر نفسه :** ص 16.

(3) **ينظر:عبد العزيز الثعالبي:** تاريخ شمال إفريقية منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية،جمع وتحقيق د/أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان ،ط2،1990 ، ص 43 .

(4) **د/محمد عيسى الحريري :** الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ،دار القلم، الكويت،ط3،1987، ص 27 .

ولما كان الهدف الأصلي للفاتحين هو تبليغ دعوة الإسلام فلابد من التفكير في السبل الميسرة إلى ذلك لحماية الدعوة والدفاع عنها « فتأسيس مدينة القيروان كان لهدف ديني و لهدف عسكري وحربي »[1] وهذا ما يدل على نبل مقصد عقبة بن نافع في هذا السعي المحمود الذي كان يأمل بأن تكون القيروان مركزا علميا عامر بالعلماء والفقهاء والمطيعين لله، وسنتكلم عن مكانة القيروان ودورها الحضاري لاحقا عند ما نتطرق لأهم المراكز الفكرية والثقافية في المغرب، واستعمل معاوية "مسلمة بن مخلد الأنصاري" على مصر، فعين هذا الأخير"أبا المهاجر دينار" على إفريقية وعزل عقبة بن نافع و كان ذلك سنة 55 هجرية[2].

وفي سنة 60 هجرية توفي معاوية بن أبي سفيان، و أفضت الخلافة إلى ابنه يزيد فاستعمل عقبة ثانية على إفريقية، فعندما وصل إلى القيروان« قبض على أبي المهاجر دينار وأوثقه في الحديد و استخلف بها زهير بن قيس البلوي »[3] وسار عقبة باتجاه المغرب الأوسط مندفعا بقواته يحرز النصر تلو النصر حتى وصل إلى المغرب الأقصى بعد أن خاض معارك ضارية في" باغاية" و "لميس "و" الزاب" و" تاهرت" وقد أظهرت هذه المعارك أن البيزنطيين قد عادوا إلى التحالف مع جماعات البربر المعروفة باسم" البرانس" لتكون جبهة المقاومة في المغرب الأوسط [4] ويرى بعض الدارسين أن عقبة لم يبدأ من حيث انتهى سلفه أبو المهاجر دينار في التقرب من البربر وملوكهم، وبذلك فقد عنصرا هاما من عناصر النجاح حيث أعطى تشدده مع البربر و خاصة مع زعيمهم كسيلة فرصة للروم البيزنطيين ليجددوا ما كان بينهم وبين البربر من تحالف ليصبحوا جبهة واحدة ضد المسلمين[5].

ولما بلغ عقبة أقاصي المغرب فاتحا حتى بلغ المحيط ، دخل فيه حتى بلغ الماء بطن فرسه ثم رفع يديه إلى السماء وقال: « اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك »[6] وبعد أن تمت لعقبة هذه الانتصارات الهائلة في بلاد المغرب أقام فيها ميزان العدل، وأذاق الأهالي الذين أنقذهم من سلطة الروم طعم الحرية، وأطلق ألسنتهم المعقدة بذكر الله وطهرها من الأوثان، فواصل السير إلى طبنة وهي على ثماني مراحل من القيروان، وعندها توقف وأمر الجنود أن يتقدموه إلى القيروان فوجا بعد فوج، وواعدهم بأن يلتحق بهم وهو مطمئن لولاء المغاربة الذين استسلموا

---

(1) **محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 72 .

(2) **ينظر: محمد الطمار** :تلمسان عبر العصور ،ص 14 .

(3) **ابن الأثير**:الكامل في التاريخ،ج4،دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،لبنان، د ط،د ت، ص105.

(4) **ينظر : ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب، ج1، ص 24 .

(5) **د/ محمد عيسى الحريري** : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص30 .

(6) **أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي**: رياض النفوس، ج1، تحقيق ومراجعة بشير البكوش ومحمد لعروسي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، ط2،1994،ص39.

له وأحبهم ورفع عن أعناقهم الإصر والأغلال، وكان عقبة قد اصطحب معه كسيلة في حملته إلى المغرب ليستعين به ويمتهنه فاضمر كسيلة الغدر[1].

وفي الطريق تيسر لكسيلة الفرار وتربص لعقبة بمكان قرب بسكرة يقال له تهودة فالتحم القتال بين المسلمين والبربر، «وقُتل عقبة بن نافع وأبو المهاجر ومن كان معهما ولم يفلت إلا القليل» [2] وكان هذا سنة 64 هجرية .

كان لنبأ استشهاد عقبة وقع أليم في نفوس المسلمين خاصة في قاعدته التي بناها القيروان، وفي خضم هذه الأحداث العصيبة رأى زهير بن قيس البلوي قائد القيروان أن كسيلة لن يلبث أن يهاجمه وأنه لن يستطيع له دفعا فانسحب ومن معه إلى جنوب طرابلس .

وفي السنة التي استشهد فيها عقبة مات الخليفة يزيد بن معاوية وصار الأمر إلى مروان بن الحكم لمدة وجيزة ثم آل الحكم إلى الخليفة عبد الملك بن مروان الذي تربع على العرش سنة 65 هجرية فصمم أن يأخذ بثأره من كسيلة، وأن يستعيد إفريقية فأمر ابن قيس البلوي الذي كان يراقب الأحداث من برقة بالتوجه إلى إفريقية، فزحف زهير للثأر بدم عقبة سنة 67 هجرية .

وجمع كسيلة سائر البربر، واشتد القتال بين الفريقين وانهزم البربر وقُتل كُسيلة وعدد كبير منهم، وفي هذه المعركة ذل البربر و فنيت فرسانهم و رجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة[3] وظن زهير أن الخطر قد زال وأن « الأمن قد استتب فزهد في الإمارة وارتحل من القيروان مشرقا فاستشهد ببرقة مقاتلا للروم» [4] وما إن بلغت الأنباء أسماع الخليفة عبد الملك بن مروان بمقتل زهير بن قيس البلوي حتى جد في تجهيز جيش كبير قوامه أربعين ألف مقاتل ووضعه تحت قيادة حسان بن النعمان الغساني و سيّره إلى إفريقية، فدخل القيروان وغزا قرطاجنة و افتتحها عنوة [5] .

([1]) **ينظر: محمد عمرو الطمار:** تلمسان عبر العصور، ص 16.

([2]) **عبد العزيز الثعالبي:** تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية ، ص 54 .

([3]) **ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق:** قطعة من تاريخ افريقية و المغرب ، ص20 ، **وعبد العزيز الثعالبي** : تاريخ شمال إفريقيا، ص 57،58.

([4]) **مبارك بن محمد الميلي** : تاريخ الجزائر في القديم والحديث،تقديم وتصحيح محمد الميلي ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،1976،ص 30 .

([5]) **ينظر: ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب ، ج1 ، ص 16.
وعبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ،ج1 ، ص179، 183.

ثم بلغه أن امرأة تدعى الكاهنة تكنّ العداء للمسلمين، وقد بسطت نفوذها بناحية الأوراس بالمغرب الأوسط، يطيعها البربر ولا يخالفون أمرها، فهمَّ حسان بن النعمان إلى لقائها، واتجه إلى المكان الذي تجمعت فيه جيوشها قرب نهر مسكيانة، وعند احتدام القتال « انهزم حسان ومن معه من المسلمين وقتلت الكاهنة كثيرا من العرب و أسرت ثمانين رجلا » [1] ولما علم عبد الملك بخبر الهزيمة فكر في الأمر واستشار فيمن يخرجه إلى إفريقية فلم يجد بديلا عن حسان، فوجه إليه عسكرا عظيما ومالا وسلاحا وأمره بإعادة الكرة ثانية، فزحف إليها وأفلح في التخلص منها سنة 84 هجرية، وبموتها أذعن البربر، وعمل حسان على نشر العلم والمعرفة وأشرك البربر في الحكم وعقد لأكبر ابني الكاهنة على جبل أوراس وجند من البربر الآلاف ممن أجابوا دعوته و أسلموا على يديه، وانصرف حسان إلى القيروان ودانت له إفريقية، فدون الدواوين ونظم الخراج، وقد استقامت له البلاد فلا يغزو أحدا ولا ينازعه أحد [2] .

ويمكن القول أنه على يد القائد حسان بن النعمان تم الفتح الإسلامي لديار المغرب عسكريا وسياسيا ودينيا، ولما أكمل المهمة تم عزله وارتحل إلى المشرق، لم يستقر الوضع بالمغرب قليلا حتى اضطرب حبل الأمن وكثرت الفتن وكادت جهود القائد السابق تذهب هباء لولا أن تداركها الله بمجيء موسى بن نصير [3] الذي تقلد الولاية في أوائل خلافة الوليد بن عبد الله سنة 88هجرية، فعمل أيضا على نشر العلم وأشرك البربر في الحكم و الجيش، وطلب من الفقهاء نشر التعليم وشرح مبادئ الإسلام، ثم قام بفتح المغرب الأقصى حتى شواطئ المحيط .

وبعد ولاية موسى بن نصير توالى العمال على إفريقية وبقية أرجاء المغرب فولي محمد بن يزيد القرشي في عهد سليمان بن عبد الملك سنة 97 هجرية وظل في منصبه حتى وفاة الخليفة فعُزل [4] وأما في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد استعمل على إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الذي اجتهد في تعليم أهل المغرب بفضل من رافقه من التابعين، وبعده عين يزيد بن أبي مسلم الذي اشتهر بظلمه وجوره مما أثار غضب أهل المغرب فقتلوه في مصلاه، ثم خلفه بشر بن صفوان [5] الذي ولي إفريقية من سنة 103 إلى 109 هجرية وتلاه على ولاية إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السليمي، وفي سنة 117 هجرية عزله الخليفة هشام بن عبد الملك وولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب الذي عرف هو وعماله بالجور والظلم [6] .

---

(1) **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ، ج1 ، ص25 .

(2) **ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق:** قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب،تحقيق د/عبد الله العلي الزيدان و د/عز الدين عمر موسى،دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان ،ط1،1990، ص 34 .

(3) **ينظر:مبارك محمد الميلي:** تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ص 34 .

(4) **ينظر: ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب ، ج1 ، ص 48 .

(5) **المصدر نفسه:**ج1 ، ص 46 ، 47 .

(6) **محمد علي دبوز:** تاريخ المغرب الكبير،ج2 ،مصر ، ط1،1963،ص 222.

وظلت بلاد المغرب تابعة للخلافة الإسلامية بالمشرق منذ دخلها عقبة بن نافع إلى أن زالت دولة بني أمية سنة 132 هجرية، ولما انتقلت الخلافة إلى بني العباس وانتقل مركزها إلى بغداد، بدأت تظهر حركات انفصالية في بلاد المغرب منذرة بدخوله عهدا جديدا، عرف خلاله تأسيس عدة دول مستقلة سنتطرق لها ونتعرف على ظروف نشأتها وعلى نشاطها الفكري والثقافي.

وهكذا يبدو أن الفتح الإسلامي قد غير الحياة بالمغرب تماما، بعكس الغزو الفينيقي أو الروماني أو البيزنطي الذي لم يمس الحياة المغربية في صميمها، حيث أن جيوشها كانت مجرد جيوش احتلال ليس لها أثر ولا تأثير على أهل المغرب، أما المسلمون فقد نقلوا الحياة المغربية إلى وضع جديد [1] فكان الانعطاف التاريخي الذي تغير به المجتمع اجتماعيا وثقافيا وسياسيا ودينيا، وأصبحت بلاد المغرب جزءا لا يتجزأ من دولة الإسلام .

وكان من نتائج الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، تطور المجتمع المغربي وتغير عاداته وتقاليده بعد اندماج أهله بالوافدين، وبدأت حركة الاستعراب وانتشار اللغة العربية لغة شعائر الدين الجديد، وانتشر الإسلام بين البربر بعد توطيد العلاقات، وكان لإرسال الخلافة في المشرق بعثات الفقهاء و العلماء مساهمة كبيرة في نشر روح الإسلام و مبادئه السمحة التي أحدثت تطورا في حياة الناس، وقلبت كثيرا من المفاهيم التي كانت سائدة إلى مفاهيم إسلامية جديدة مثل تحرير العقل وصون النفس، والانتقال من مجتمع القبيلة إلى الأمة، وتنظيم العلاقات بين العبد وربه وبين العبد والدولة وبين العباد في سائر شؤون الحياة وبناء الأسرة بناء صحيحا.

وعموما أحدث الفتح تغييرا شاملا في المجتمع المغربي، فأسلمت المنطقة وانتشرت العربية واندمجت عقليات البربر و العرب، وظهر منهم فقهاء وشعراء و خطباء .

([1]) **ينظر:د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقي**:تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر،دط، دت، ص29.

الدولـة الرستميـة

الحياة السياسية :

يرتبط قيام الدولة الرستمية بمؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأصل الأباضي المذهب، وإليه يعود الفضل في تأسيس دولة الخوارج الأباضية، فيرى ابن عذارى في بيانه أن «والد رستم بهراما كان من موالي عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ولما مات رستم تزوجت أمه من أحد الحجاج المغاربة الذي اصطحبه معهما في أواخر القرن الأول الهجري » (1) وسلك البيت الرستمي طريقه إلى المغرب مع طوالع الفتح الإسلامي لهذه البلاد، فأكد ابن خلدون ذلك حين قال: «وقدم عبد الرحمن بن رستم إلى إفريقية مع طوالع الفتح فكان بها»(2) ويحدد ابن خلدون الطوالع تاريخيا ببداية الفتح الإسلامي للمغرب وتنتهي بالطوالع التي قدم بها موسى بن نصير لإتمام الفتح نهائيا، إذا فابن رستم قد تربى بالمغرب ونهل من ثقافة القيروان لكنه مال إلى تعاليم الخوارج « فأخذ ابن رستم بدين الخارجية والاباضية منهم »(3) وكان ذلك بتأثير من سلمة بن سعيد داعية الأباضية الذي كان يجتهد آنذاك في نشر المذهب الأباضي في ربوع المغرب (4) ولما أصبح شابا يافعا توجه إلى البصرة، والتقى هناك بإخوانه المغاربة في حلقات العلم التي كان يشرف عليها "أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة" سنة135هـ وقضى هناك خمس سنوات تلقى فيها أصول المذهب الأباضي وفروعه، وتكوّن على يد مشايخ المذهب في البصرة، وهذا لهدف إقامة إمامة الظهور عقب عودته إلى بلاد المغرب .

وفي هذه الظروف كان المغرب الإسلامي يعجّ بالاضطرابات والفوضى الناتجة عن عدم سيطرة ولاّة العهد الأخير من الدولة الأموية على مقاليد الحكم بولاية إفريقية نتيجة لكثرة الفتن والأطماع، وكان الخوارج في هذا الوقت يشكّلون معارضة قوية لقيت الكثير من الاضطهاد من جانب الحكم الأموي في أواخر القرن الأول الهجري مما جعل أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي كان شيخا للمذهب الأباضي يفكر في نشر المذهب في أطراف الدولة الإسلامية وعلى الأخص في بلاد المغرب، فاختار رجلا من أنشط تلاميذه وهو سلمة بن سعيد لإرساله إلى المغرب، وأمام هذه الظروف نجحت الدعوة الأباضية مما جعل المغاربة يتوقون إلى التعمق في دراسة المذهب من أصوله المشرقية «فكونوا بعثة علمية رحلت إلى البصرة وكان من بينهم عبد الرحمن بن رستم» (5) .

(1) **ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب، ج 1 ، ص 277 .
(2) **عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ ابن خلدون ،ج 6 ، ص 246 .
(3) **المصدر نفسه** ، ص246 .
(4) **ينظر: د/ محمد عيسى الحريري:** الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص 78 .
(5) **المرجع نفسه:** ص 80.

و تعد هذه البعثة الثمار الأولى التي جناها دعاة الأباضية في المغرب، فهي تمثل الإعـداد الفكـري للأشخاص الذين سيعودون بالتطبيق العملي لمبادئ المذهب، وتتكون البعثة من عبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وأبي داود النفزاوي، وكان أعضاء هذه البعثة في أماكن متفرقة من مختلف أنحاء المغرب، ولما وصلت هذه البعثة إلى البصرة« انضم إليها أحد دعاة الأباضية وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح» [1] وعكفت هذه المجموعة ما يقارب خمس سنين درست خلالها أصول المذهب الأباضي وأحوال المغرب السياسية، وأنسب الأوضاع لقيام دولة أباضية، وتم ترشيح أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري رئيسا لهذه الدولة .

ولما عاد عبد الرحمن وزملاؤه حملة العلم من البصرة أصبح مساعدا لأبي الخطاب، فولاه منصب القضاء على طرابلس، وبعد الاستيلاء على القيروان سنة 141 هـ أسند له إدارة شؤونها، ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كثب «وأن يعمل على نشر المذهب الأباضي في كل ربوعه» [2] في هذه الأحداث التي يشهدها المغرب الإسلامي، كانت قد آلت الخلافة الإسلامية إلى بني العباس فلم يهدأ بال للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وهو يرى تمزق العالم الإسلامي، فحاول لمَّ شمله وإعادة وحدته خاصة في المغرب الذي انفصل عن السلطة المركزية لبغداد منذ مدة، ففي البداية كان الخليفة مشغولا بتوطيد أركان دولته وتدعيم سلطانه وكسر شوكة معارضيه بالمشرق، وكانت إفريقية والمغرب قد خرجت عن سلطة الخلافة وسقوطها تحت سلطة الخوارج الصفرية سنة 140 هـ التي استولت على مدينة القيروان عاصمة الولاية بقيادة زعيمها عاصم بن جميل، ثم أخرجهم منها الخوارج الأباضية بزعامة أبي الخطاب عبد الأعلى سنة141 هـ .

ولما تمكنت الأباضية من الحكم، عين أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم على ولاية القيروان وعاد إلى طرابلس، في هذا الوقت كان الخليفة العباسي يرى أن شرعية الخلافة العباسية تقتضي الحزم والصرامة لإخماد الثائرين بالمغرب وإرجاعهم إلى حظيرة الخلافة المركزية [3] فأرسل أبو جعفر المنصور جيشا تحت قيادة واليه بمصر الأعلى محمد بن الأشعث ، فدخل بجنده إلى إفريقية سنة 144 هـ والتقى بزعيم الأباضية أبي الخطاب وجموعه بطرابلس، « فتمكن من قتله وشتت قواه ومزق صفوف الأباضية وهزمهم » [4].

([1]) **المرجع السابق** : ص 81 .

([2]) **المرجع نفسه** : ص 83 .

([3]) **ينظر:عبد العزيز فيلالي** : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1982، ص 69 .

([4]) **ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب ،ج 1 ،ص 72 .

ولما كانت المعارك تدور في طرابلس كان عبد الرحمن بن رستم قد خرج لنجدة أبـي الخطـاب، ومـا إن وصل مدينة قابس حتى بلغته أنباء الهزيمة، فرجع إلى القـيروان فوجـدها ثـائرة، فحمـل أهلـه ومالـه ولحـق بأراضي المغرب الأوسط يرافقه مجموعة من أعوانه و «نزل على قبيلة " لماية" لقديم حلـف بينـه وبينـهم »[1] وللأخوة المذهبية وكان ذلك سنة 144 هـ ولما سمع الأباضيون بالتحاق عبد الرحمن بن رستم بالجهة الغربيـة من الجزائر حتى قصدوه وشدّوا أزره .

كاد يقضي العباسيون على دولة الأباضيين في المهد لولا نجاح ابن رسـتم في تهيئـة آمنـة للمسـتقبل في المغرب الأوسط، وهناك اجتمع أتبـاع المـذهب الأباضـي في مكـان إقامتـه في "لمايـة" وبـايعوه إمامـا علـيهم [2] «وأسسوا مدينة تيهرت سنة 148 هـ فأصبحت قاعدة إمـارتهم» [3] ودانـت لهـا المـدن والقـرى الواقعـة بـين الزاب وفاس وسجلماسة .

فبفضل دهاء عبد الرحمن بن رستـم وخبرتـه السياسـية استـطاع أن يؤسـس أول دولـة إسـلامية في المغرب الأوسط سنة 160 هـ واتخذ مدينة تيهرت عاصمة لها، وكان ذلك إيذانا بانتهاء مرحلـة عمـت فيهـا الفوضى والاضطرابات بسبب سياسة ولاة العرب ممن تولوا حكم المغرب الأوسط في المراحل الأخـيرة، « غالبـا ما اتسمت بالجور و الظلم، ولاح في الأفق عهد جديـد اتسم بالعـدل والمـساواة» [4] .

ففي جمـلة هذه الأحداث تأسست الدولة الرستمية في القسم الغربي من الجزائر قرب مدينـة تيهـرت ووقع الاختيار عليـها لعدة اعتبارات أهمها خصوبة الأرض، ووفرة الميـاه، وجـودة المنـاخ، وكـان أول بنـاء شـرع فيه هو تأسيس المسجـد الجامع ثم البيوت، وبعدها المرافق الأخرى، فتمدنت تيهرت وأصبحت عاصمة المغرب الأوسـط [5] وتم اختيار عبد الرحمن بـن رستم إمامـا وحاكمـا بتـوفر الشـروط الموضـوعية الـتي سـنها الأباضيون في اختيار الأئمة، فقد أقام الإمام الدولة على مبادئ الأباضـية إذ جعلـها شـورى يـولى الإمـام فيهـا بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- [6] .

---

(1) **عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ ابن خلدون ،ج 6 ،ص 247 .
(2) **ينظر: جودت عبد الكريم يوسف:** العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984 ، ص 29 .
(3) **محمد الطمار:** تلمسان عبر العصور ، ص 20 .
(4) **جودت عبد الكريم يوسف:** العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص 63 .
(5) **ينظر: د/ صالح فركوس:** تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم، عنابة، الجزائر،2005، ص 80.
(6) **ينظر: د/شوقي ضيف** :تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، دار المعارف،مصر،ط1، 1995،ص 30 .

فكان عبد الرحمن بن رستم الإمام الأول في الدولة الرستمية « تقيا متواضعا تجلس في مجلسه الأرملة والضعيف»[1] وقد انصبت جل اهتماماته للقضاء على الفتنة الداخلية وما كان يواجه الدولة من أخطار خارجية فتصدى لها، كما تمكن من جمع كافة العناصر والعصبيات على اختلافها بفضل سياسته القائمة على العدل والمساواة، مما هيأ لهذه الدولة الفتية الأمن والاستقرار [2] .

وكان يرتكز نظام هذه الدولة على قواعد الكتاب والسنة حسب ما تقتضيه قواعد اجتهاد أئمة المذهب الأباضي تحت إشراف رئيسها الذي يلقب بالإمام، إذ لا خلافة وراثية عندهم والإمام يعين بالانتخاب والكفاءة أو العهد إليه من سلفه، وله مستشارون ومحتسبون وأمناء بيت المال« وللقاضي في الدولة السلطة المطلقة في تنفيذ الأحكام الشرعية، وهو في الغالب يكون من أهل البلد ليهابه الناس» [3].

و توالى على إمامة الدولة الرستمية عدة أئمة بعد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم، فآل الأمر بعده إلى ابنه عبد الوهاب الذي امتد حكمه من 171 هـ إلى سنة 190 هـ وكان نفوذه قد امتد إلى حدود تلمسان[4].

وعرف عهده بعض الاستقرار عدا حركات معارضة اضطر إلى إخمادها و يكون «أخطرها حركة يزيد بن فندين وجماعته التي عرفت بالنكارية * » [5] ثم حركة « قامت بها بطون قبيلة هوارة الضاربة جنوبي تيهرت»[6] وثالثها تلك التي قام بها خلف بن السمح شرقي الدولة الرستمية .

([1]) **بحاز إبراهيم بكير:** الدولة الرستمية ، المطبعة العربية ،غرداية ، الجزائر، ط 2 ، 1993 ، ص 111 .
([2]) **ينظر: المرجع نفسه** ، ص 113 .
([3]) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:** تاريخ الجزائر العام ، ج1، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط2،1965، ص 221 .
([4]) **ينظر:محمد بن عميرة:**دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984،ص 128.
* **النكارية :** هي فرقة من الأباظية، سمّوا بهذا الاسم لإنكارهم إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم .
([5]) **د/محمود إسماعيل عبد الرزاق:** الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، المغرب، ط2،1985، ص 117 .
([6]) **المرجع نفسه:** ص 121 .

وتمكن الإمام عبد الوهاب من إسكات سائر هؤلاء الثوار بفضل ما أوتي من حكمة وشجاعة، وبالإضافة إلى تفوقه في الحرب والسياسة، فقد كان فقيها وأديبا، وفي سنة 190 هـ خلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب ودام حكمه حتى سنة 240 هـ « وكان صاحب نفوذ قوي، كما كانت أيامه مزدهرة، ولم يعمر أحد مثله في حكم الدولة الرستمية» [1] .

وما كاد يأتي عهد أبي بكر بن أفلح حتى عمت الفوضى في البلاد، فأصبحت البلاد ملاذا للمتمردين، وظل الأمر كذلك إلى أن استلم مقاليد الحكم أبو اليقظان الذي تمكن من فرض طاعته بعد أن ذلّ أعناق الثائرين بفضل ما أوتي من حكمة وخبرة في المجال السياسي، مما هيأ البلاد للأمن والاستقرار،فازدهرت الدولة في عهده اقتصاديا و ثقافيا [2] وبعد وفاة أبي اليقظان سنة 28 هـ خلفه أبو حاتم،ولما اعتلى العرش كانت «الأوضاع الاجتماعية في البلاد قد بلغت الذروة في الفساد» [3] فكثرت المكائد والفتن واضطربت أمور الدولة في عهده مما أدى إلى مقتله على يدي «أحد أبناء أخيه اليقظان بن أبي اليقظان سنة 294 هـ »[4] .

وكان هذا الأخير قد تولى الحكم في السنة نفسها، إلا أن حكمه لم يدم طويلا حتى تغلبت عليه الفتن التي استشرى داؤها في البلاد، فعجز اليقظان بن أبي اليقظان عن السيطرة على الأوضاع، وبذلك أفلتت الأمور من يده، فأصاب الدولة الرستمية ما يصيب الدول الهرمة من الفتن الداخلية إضافة إلى ذلك ظهور دعوة الشيعة ا التي قضت على هذه الدولة ودخلت البلاد في طاعة العبيديين وكان ذلك سنة 296 هـ .

([1]) **رابح بونار:** المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط 2،1985، ص 37 .
([2]) **ينظر: بحاز إبراهيم بكير:** الدولة الرستمية، ص 125 ، 126 .
([3]) **المرجع نفسه** : ص 126 .
([4]) **المرجع نفسه** : ص 127 .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

كان انتقال الخلافة إلى العباسيين من أهم العوامل التي ساعدت على نشأة الدولة الرستمية، والتي يعود الفضل في تأسيسها إلى عبد الرحمن بن رستم، كما أشار البحث في الحياة السياسية، متخذا تيهرت عاصمة له، وفي ظل سياسته التي كان قوامها العدل والإخاء نعمت الرعية بالحرية والأمن والاستقرار، وما إن تأسست المدينة حتى أقبلت «القبائل البربرية والعربية وغيرها من السكان على تخطيط المدن أو تجديد ما اندثر منها من المدن الرومانية »[1] وهو أمر وفّر للمغرب الأوسط حياة اجتماعية راقية، ونهضة حضارية شاملة، فنمت المدن وازدهر العمران، واشتهرت تيهرت العاصمة، وقصدها الناس من كل مكان، وعملوا على «تشييد المساجد والقصور والمنتزهات وقصدها أهل العلم وأرباب الصناعات من شتى الأقطار الإسلامية وتحسنت شؤونها الاقتصادية» [2] وأصبحت تيهرت «تشبه وتقارب قرطبة وبغداد ودمشق، وكان بها من القصور العالية، والمنازل الرفيعة والعمارات والمساجد، والمنتزهات وما يشبه منتزهات هذه البلاد »[3] .

وتوسع الرستميون اقتصاديا في الإنتاج الزراعي لتوفر المياه وخصوبة الأرض وغزارة الأمطار، وهذا لما حباهم الله من نعم تمثلت في مناخ تيهرت الذي بعث على ازدهار البلاد على جميع الميادين، وكذلك لخبرتهم وكفاءتهم في اختيار مكان عاصمة دولتهم، كما تقدم في البحث .

ودفعهم ازدهارهم في الزراعة إلى تنظيم العمل اليومي للفلاحين بالإشراف عليها وتهيئة البذور واستعمال الأدوات واستخدام عمال زراعيين بالأجرة عند الضرورة، كما وجد بالدولة «أغنياء وتجار كبار امتلك أحدهم ثلاثين ألفا من الإبل، وثلاثمائة من الغنم، واثني عشر ألفا من الحمير، وكان منهم من يمتلك سوقا خاصة به في تيهرت وإلى جانب هذه الفئة تجد الطبقة الوسطى التي استطاعت أن تصل إلى مستوى حسن من الحياة الكريمة، بما تدره عليها حرفها البسيطة ومتاجرها الصغيرة ومزارعها، كما نجد طبقة فقيرة سيئة الحال، ثم طبقة العبيد » [4] .

ويبدو أن سياسة الرستميين التي اتسمت بالعدل كما رأينا، قد حاولت إيجاد نوع من التوازن الاجتماعي يكفل لسائر طبقات المجتمع الحياة الكريمة، وذلك بتنظيم أموال الزكاة والصدقات التي كان يتم توزيعها على من يستحقها من الفقراء والمساكين والمغلوبين على أمرهم، من كسوة الشتاء والزيت اللازم للطعام أو إنارة المشاعل والقناديل الذي كان يصرف لجميع أهل البلاد من فائض الأموال في الخزائن [5] .

---

(1) **رابح بونار:** المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص 43 .
(2) **محمد الطمار:** تاريخ الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2006 ص 72 .
(3) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:** تاريخ الجزائر العام ، ج 1 ، ص 174 .
(4) **جودت عبد الكريم يوسف:** العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص 53،54.
(5) **ينظر: د/ سعد زغلول عبد الحميد** : تاريخ المغرب الكبير، الإسكندرية ، مصر ، 1979 ، ص 309 .

وقد ساعدت سياسة التسامح وحسن المعاملة التي انتهجها أئمة بني رستم على إقبال «أجناس وعناصر متباينة، إذ كان يعيش بتيهرت جنبا إلى جنب البربري والعربي والفارسي والسوداني والأباضي والسني والمعتزلي واليهودي والنصراني »[1] .

وهذه نتائج لازدهار اقتصادي من فلاحة وتجارة تعززت صادراتها ووارداتها، واعتبرت بذلك تيهرت إحدى محطات العالم الاقتصادية الكبرى، فهي واسعة الأخذ والعطاء، وأسواقها كانت عامرة بمختلف البضائع والمصنوعات، وطرق القوافل كانت متصلة بصحراء إفريقية وبلاد السودان شرقا وغربا [2] ومن ناحية العمران كانت مدنها كثيرة، ازدهرت عمارتها، واتسع بناؤها، ومن أبرز هذه المدن: مدينة تنس، وهران، الشلف المدينة الخضراء على مسافة يوم واحد من مليانة، مدينة غزة، سوق ابْرَاهم، معسكر، وغيرها من المدن الأخرى، وهكذا غدت مدينة تيهرت ملتقى الرحلات من وإلى هذه المدن، ومن الناحية الخارجية اتسعت سوق التجارة للدولة فأصبحت لها مبادلات مع السودان والمغرب الأقصى وتونس وبلاد الشام، وبغداد واليمن، وكان بها مراسي عديدة على سواحل البحر المتوسط، وحصونها عامرة، وبها مساجد ومدارس [3] .

([1]) **محمد بن رمضان شاوش**:الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي،المطبعة العلوية،مستغانم،الجزائر،ط1،1966،ص32،33.
([2]) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي** : تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ص 232 .
([3]) **ينظر: د/ صالح فركوس** : تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال ،ص 82،83 .

الحياة الفكرية والثقافية :

ارتبطت الحياة الفكرية في عصر بني رستم ارتباطا كبيرا بالمذهب الأباضي، وإذا كان الأباضي الأول مسلمة بن سعيد قد تمكن من اختيار أربعة من معتنقي أفكاره الأباضية، وأطلق عليهم اسم حملة العلم، كما تقدم ذكره، وفدت إلى البصرة على شكل بعثة علمية لتتلقى العلم وتأخذ أصول المذهب وفروعه من مصادره المشرقية الأصلية، وحين عادت هذه الجماعة إلى المغرب بدأت في نشر ثقافة المذهب بواسطة حلقات كانت تعقد في عدة أماكن من ربوع المغرب، وهذه الحلقات كانت تهتم بتدريس علم الأصول والفروع، والسير والتوحيد، والشريعة وآراء الفرق، وعلوم اللغة والرياضيات (1) فكانت هذه الحلقات كالمدارس تلقّن طلبتها العلوم النقلية والعقلية كما كانت مركزا لتعليم البربر، وأثّرت هذه الحلقات في سكان بلاد المغرب الأوسط، وخلقت منبرا للتنافس بين أتباع المذهب الأباضي وبين الفرق والمذاهب الأخرى كالسنة المالكية والمعتزلة والشيعة التي كانت هي الأخرى تحاول نشر أفكارها (2).

وقد أفسح الرستميون المجال لهذه الفرق والمذاهب لعقد المناظرات وجلسات الجدل الطويلة، وغالبا ما كان علماء الأباضية طرفا في هذه اللقاءات، وتذكر المصادر تلك المناظرة التي امتدت فترة طويلة، وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الإمام الثاني طرفا في إحدى مساجلاتها، ولما كان المذهب الأباضي يعتبر المرجعية الفكرية للدولة الرستمية فلا لابد أن نشير إلى أصوله و مبادئه باختصار.

المذهب الخارجي :

تعود هذه التسمية إلى موقعة " صفين " سنة 37هـ حين خرج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ جماعة ممن كانوا معه، و يحدد الشهرستاني مصطلح الخوارج فيقول : « كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان» (3) والخوارج فرق متعددة منهم المحكمة و الأزارقة و النجدات و البيهسية و العجاردة و الثعالبة و الأباضية و الصفرية و الباقون فروعهم، وكل هذه الفرق يجمعهم القول بالتبرّي من عثمان وعلي ﷺ ويقدمون ذلك على كل طاعة و لا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويكفّرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقا وواجبا (4) والأباضية فرقة من الخوارج.

---

(1) **ينظر: د/محمد عيسى الحريري**: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ، ص235 ، 236.
(2) **ينظر: المرجع نفسه**: ص 236 .
(3) **أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني**: الملل والنحل ، تعديل وإشراف صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت ، لبنان،ط2،2002، ص92 .
(4) **ينظر:المصدر نفسه** : ص93.

ويقول ابن خلدون في ذلك: « والأباضية أصحاب عبد الله بن أباض المري، وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين، ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم »[1].

مبادئ الأباضية :

و من مبادئ الأباضية أنهم ينظرون إلى الإمامة نظرة معتدلة، فلا يشترطون فيه أن يكون قرشيا، وإنما ينبغي أن يكون ورعا فاضلا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وأن الإمام الذي ينحرف يجب خلعه وتولية غيره، ويرى الأباضية للإمام السلطات الدينية و الدنيوية، ويكون اختياره عن طريق البيعة، والإمامة بالوصية باطلة في مذهبهم ويجوز تعدد الإمامة في أكثر من مكان، و الأباضية لا يعادون مخالفيهم من المسلمين معاداة صريحة ولا يحلون دماءهم، بل يعتبرون دارهم دار إسلام، ومرتكب الكبيرة في نظرهم موحد وليس مؤمنا، أو هو كافر كفر النعمة لا كفر الملة [2] وهم بهذا أكثر فرق الخوارج اعتدالا و أقرب إلى أهل السنة، أما غيرهم من الخوارج كالأزارقة و الصفرية فكانوا متطرفين، وغلاة متعصبين، يعتبرون غيرهم كفارا مشركين، وصارت الأباضية من أشهر فرق الخوارج على الإطلاق، لأنهم لا يزالون حتى يومنا هذا يسكنون في عمان (مسقط) و زنجبار و شمال إفريقية، وقد دخل هذا المذهب إلى إفريقية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، واستطاعوا أن يقيموا دولة على أرض المغرب الأوسط استمرت زهاء مائة وثلاثين عاما حتى أزالهم الفاطميون .

المراكز الثقافية:

تعد تيهرت عاصمة الرستميين الحاضرة الأبرز في عصرهم، كان تأسيسها بالمكان الذي نزل به عبد الرحمن بن رستم في سفح جبل "قزول" وهو مكان طيب الهواء غزير المياه كثير الأشجار ذات الثمار المتنوعة، تجري من تحتها العيون المتدفقة، الشيء الذي ساعد على بناء مدينة جديدة عامرة بأسواقها ومساجدها ودورها[3] يصفها البكري في مسالكه فيقول: «ومدينة تيهرت مسورة لها أربعة أبواب، باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى نهر مينة... وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج »[4] هذا النهر الذي هو من روافد وادي الشلف العريق استفادت منه المدينة بإجراء المياه فيها وإحاطتها بالبساتين الفيحاء والرياض الغناء، خاصة على ضفتي النهر الذي يمر على جنوبها، ولشدة برودة جوها وصفها الشاعر بكر بن حماد في قوله :

مَا أخْشَن البَرْدَ وَرَيعَانَــه وأطرَفَ الشَّمسَ بتيهــرتِ
تَبدُو مِنَ الغَيمِ إذَا مَا بَدَتْ كأنَّهَا تُنْشَــر مِن تَخْــتِ [5]

([1]) **عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ بن خلدون ، مج3، ص 174 .
([2]) **ينظر:د/مصطفى الشكعة:**المطالعات الإسلامية في العقيدة والفكر، دار الكتاب المصري ،القاهرة، مصر ،ط2، 1983،ص 203.
([3]) **ينظر : محمد بن رمضان شاوش:** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص21،22 .
([4]) **أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري** :المسالك والممالك ،ج2، تحقيق د/جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 2003 ، ص248.
([5]) **محمد بن رمضان شاوش:** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 61.

وتذكر المصادر أن رجلا من أهل تيهرت نظر إلى توقد الشمس بالحجاز فقال: أحرقي ما شئت فو الله إنك بتيهرت لذليلة [1] ولجمال المدينة وتوفر أسباب الراحة بها قصدها الناس من كل حدب وصوب، وازدهرت في كل الميادين، وبذل الرستميون جهودا كبيرة في تشجيع الحياة الفكرية والثقافية، فكانت تيهرت ونواحيها مهدا لفرق عديدة ومذاهب مختلفة كالمذهب الأباضي الذي هو مذهب الدولة، ومذهب الصفرية ومذهب الواصلية المعتزلة، وكانت تجري بينها المجادلات والمناظرات بحرية وتسامح كبيرين ولكل فرقة مسجدها وحلقاتها وعلماؤها، ويعتبر هذا الاحتكاك الحضاري عاملا مهما في تلقيح الأفكار وخدمة للغة والآداب، وفي نفس هذا الوقت كانت حاضرة القيروان تشهد حركة علمية نشيطة وظهر بها عدد من العلماء والمفكرين والأدباء، فكان من الطبيعي أن يتم الارتباط بينهما، والتأثر والتأثير المتبادل، ورحلة العلماء والتجار والحجاج لا تنقطع مما ساعد ذلك على التزاوج الحضاري، فتيهرت كانت بمثابة العاصمة العالمية للخوارج يقصدونها من كل جهة، وغدت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي المراكز الأخرى، وكانت بها مكتبة تدعى "المعصومة " فيها الآلاف من المجلدات ظلت تشع نورا إلى أن أحرقها الفاطميون سنة 296هـ .

وازدهرت دولة بني رستم ثقافيا حتى «أصبحت تيهرت عاصمة للمذهب الخارجي، يقصدها الخوارج من جميع الأرجاء، وغدت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي بغداد وقرطبة، فعرف أهل المغرب الأوسط الثقافة ونبغوا فيها خصوصا الثقافة الدينية» [2] .

والأئمة الرستميون كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب منهم ذلك أن تكون لهم ثقافة واسعة وبذلك انتشر التعليم وقامت المساجد بدورها الحضاري بإلقاء الدروس في التفسير والحديث والفقه والكلام والآداب ومختلف العلوم، مما ساهمت على حفظ الثقافة الإسلامية وعملت على توجيه الناشئة، ولا غرابة أن يكون عبد الرحمن بن رستم مفسرا لكتاب الله وله في ميدان التأليف، ومن بعده ابنه عبد الوهاب له أثر بارز في العلوم الدينية، ونبغ كذلك أفلح بن عبد الوهاب في الأدب، وكانت المدينة بها مكتبة كبيرة تسمى"المعصومة "فيها الآلاف من المجلدات [3] .

وقد كان بالمغرب الأوسط في ذلك الوقت علماء وأدباء زانوا عصرهم، وسموا به بين الحواضر ومن هؤلاء نذكر أبي الفضل أحمد التيهرتي، وسعيد بن واشكل التيهرتي، وبكر بن حماد الشاعر المطبوع الذي نتناول بالدراسة شعره مع غيره من الشعراء في الفصل القادم.

وكان من العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تيهرت إلى القيروان ثم إلى البصرة والتقى هناك بكبار الأدباء و الشعراء واستطاع أن يثبت وجوده في بلاط العباسيين في عهد الخليفة العباسي المعتصم، ومدحه،

---

(1) **ينظر: أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري** :المسالك والممالك ،ج2، ص 249.
(2) **محمد الطمار**: تاريخ الأدب الجزائري ، ص 73.
(3) **ينظر: المرجع نفســه** : ص 73 .

وعاد إلى القيروان حاملا معه هذه المؤثرات الثقافية المشرقية، وكانت ثقافة القراءة و الكتابة منتشرة في نفوس المجتمع بصفة عامة حكاما ومحكومين، وللولاة عناية كبيرة بجمع الكتب النادرة وجلبها من أماكن بعيدة كما فعل ذلك الإمام الثاني عبد الوهاب الذي كان تواقا للعلم محبا له حيث تروي المصادر أنه: « أرسل ألف دينار إلى إخوانه بالمشرق بالبصرة ليشتروا بها الكتب، فلما وصلهم المبلغ اشتروا بها رقّا، فنسخوا له فيها حمل أربعين جملا كتبا ، فلما بلغته تشمَّر وجَدَّ لقراءتها» [1] .

وكانت هناك رسائل علماء الأباضية تأتي من المشرق لتساهم في حل المشاكل التي تعرض لها الرستميون .

([1]) **بحاز إبراهيم بكير:** الدولة الرستمية ، ص237 .

الدولـــة الأغلبيـــــة
الحياة السياسية :

كانت ولاية إفريقية في أواخر القرن الثاني الهجري لمحمد بن مقاتل العكي، وكان لسوء سلوكه مع الرعية واستبداده أن كرهه الناس وثاروا ضده سنة 183 هـ فذهب إلى مدينة طبنة* مستنجدا بعاملها إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي « فأخذ بيده وخرج إلى إخضاع هؤلاء الثائرين» [1] فهزمهم إبراهيم بن الأغلب وكسر شوكتهم، وعاد الأمير منتصرا إلى مركزه بالقيروان، لكن الرعية بقيت على كراهيتها له وعملت على خلعه «وحثت إبراهيم بن الأغلب على تولي الأمر في القيروان»[2] فكان من الطبيعي أن يكاتب إبراهيم بن الأغلب الخليفة العباسي هارون الرشيد بشأن إمارة القيروان بعد تدهور الأوضاع بها وفقدان الثقة بين الرعية والوالي، ولما بلغ ذلك الخليفة استشار خاصته بعد أن بلغه سوء تصرف واليه هناك «فأشير عليه بتولية إبراهيم بن الأغلب، فكتب إليه عهده سنة 184 هـ ليقوم بأمر إفريقية »[3] وتم بذلك عزل الوالي ابن مقاتل، وفي هذا يرى ابن الرقيق القيرواني أن سبب عزل ابن مقاتل العكي عن الولاية «أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفي الرعية »[4] وتولى إبراهيم بن الأغلب إدارة القيروان فجعلها دولة وراثية في عائلته، فأحدث من أنقاضها مملكة إسلامية عظيمة، منحت شبه استقلال داخلي من طرف الخلافة العباسية هذا القرار كان يرمي إلى تمكين المغرب الإسلامي من الدفاع عن حياض الخلافة العباسية أمام الدول الناشئة بأرض المغرب والأندلس التي كانت كلها مناوئة لخط الخلافة العباسية .

ومن هذا بدأ استقلال إفريقية الذاتي، فكان بذلك أول استقلال للحكم من الولايات العباسية في العالم الإسلامي، و مما ساعد الأغالبة على ذلك، «بعد موقع إفريقية عن دار الخلافة العباسية، إضافة إلى مساندة البربر لهم في أول الأمر » [5] فتأسست الدولة الأغلبية بطريقة سلمية عن الدولة العباسية بخلاف الدولة الرستمية وغيرها من دول المغرب الإسلامي، وكانت عاصمتها القيروان، واتسعت بامتدادها شرقا حتى طرابلس، وغربا إلى بجاية على ساحل البحر المتوسط، ومنها إلى الصحراء جنوبا شاملة قسنطينة وإقليم الزاب[6] .

---

* هي مدينة كانت عاصمة لإقليم الزاب في عصر الأغالبة، وتقع جنوب بريكة وشرق الحضنة من القطر الجزائري .
(1) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:** تاريخ الجزائر العام ، ج1 ،ص 259 .
(2) **المرجع نفسه:** ج 2 ، ص 260 .
(3) **ينظر: ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب ، ج 1 ، ص 85 و **ابن الأثير** :الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص 54 ، 56 و **عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ ابن خلدون ، ج4، ص193.
(4) **أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق :** قطعة من تاريخ افريقية و المغرب ، ص 170 .
(5) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:** تاريخ الجزائر العام ، ج 1 ، ص 260 .
(6) **ينظر: د/ شوقي ضيف:** تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 30 .

ولقد كان لإسناد أمر إفريقية إلى إبراهيم بن الأغلب أثر بعيد في التغيير السياسي الذي طرأ على ولاية إفريقية وشرق المغرب الأوسط، فقد كان حازما في استعادة الأمن والطمأنينة، وتحقق له ذلك لما كان يتمتع به من شرعية من مركز الخلافة العباسية، وثقة من الرعية، وشخصيته الفذة، فوصفه ابن عذارى في بيانه بأنه «كان فقيها وأديبا شاعرا ذا رأي ونجدة وبأس وحزم وعلم بالحرب ومكائدها »[1] ورغم محاولته الجادة في نشر الهدوء والرقي بالبلاد إلا أن ذلك لم يمنع من قيام ثورات ضده، تمكن من إخمادها بمساعدة الخلافة التي كانت تمده بالمال، وقد عهد إبراهيم بن الأغلب قبيل وفاته إلى ابنه عبد الله بتولي الإمارة من بعده حينما أدركته الوفـــاة سنة 196 هـ .

فتولى عبد الله بن إبراهيم الأمر وكانت فترته ليست طويلة، وأيامه هادئة ساكنة خالية من الاضطرابات نتيجة لما غرسه أبوه من أعمال أثمرت بالاستقرار والأمن ونهوض البلاد، وإن كان قد تخلل فترة حكمه إجحاف بالمزارعين، بزيادة الضرائب مما أدى إلى ضيقهم وشكواهم «ودامـــت إمارتـــه خمـــسة أعـــوام إلى أن توفـــي سنة 201 هـ»[2] وآل أمر الأغالبة من بعد ذلك إلى زيادة الله بن إبراهيم سنة 201 هـ ومن أعظم ما قام به في هذه الفترة هو فتح صقلية نظرا لعنايته بالأسطول الإسلامي[3] فقام بغزو جزر قريبة من السواحل الإفريقية ففتح صقلية سنة 212 هـ واستطاع أن يقضي على تحرشات الروم هناك، وقد قامت بعض الثورات ضده ويفسرها ابن عذارى بسوء سيرته في الجند أحيانا، وسفكه لدمائهم، وكادت هذه الثورات أن تقضي على الدولة، لكنه كان يقظا اتجاهها وأحكم سيطرته عليها، وقام هذا الأمير بكثير من الأعمال الإصلاحية التي كانت بارزة أيام حكمه، منها بناء المسجد الجامع بالقيروان الذي يسمى مسجد عقبة بن نافع «وأنفق عليه ستة و ثمانين ألف دينار ... وتوفي سنة 223 هـ بعد أن مكث في الحكم قرابة اثنين وعشرين عاما »[4] وبعده تقلد الحكم محمد بن الأغلب ابن إبراهيم، بعد وفاة أبيه، وقد ساد الأمن والسكينة في الأيام الأولى من ولايته ودانت له كل الأقاليم الأغلبية في إفريقية والمغرب الأوسط «وأسس مدينة بالقرب من تيهرت سماها العباسية ، فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب »[5] إلا أن بعض كتب التاريخ ترى أن حادثة العباسية حادثة فرضية ليس لها وجود ضمن الحوادث التاريخية، «ومن ثمة يظهر عدم وجود صراع عسكري بين القيروان تيهرت »[6] .

(1) **ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب ،ج 1، ص 92 . **ينظر:** تاريخ الرقيق القيرواني ،ص 176 .
(2) **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 123 .
(3) **ينظر: د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقي:** تاريخ المغرب والأندلس ، ص 123 .
(4) **ينظر: محمد محمد زيتون :** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 125 .
(5) **المرجع نفسه:** ص 125 .
(6) **ينظر: جودت عبد الكريم يوسف:** العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص 92 .

وحاول محمد بن الأغلب نشر العدل بين الرعية والأخذ على يد الظالمين، وما ميز هذا التوجه أنه أعطى للقاضي سحنون* العهود والمواثيق لإحقاق الحق في حاشيته ورعيته على حد السواء، ولا شك أن هذه العدالة قد مكنته من القضاء على الفتن التي قامت في عهده، وأدركته الوفاة سنة 242هـ (1) وآل الأمر من بعده لابنه أحمد بن محمد بن الأغلب الذي أحسن السيرة في الرعية وأكثر العطاء للجند، وكان سمحا كريما يتجنب الظلم والعدوان، واشتهر بمد يده إلى الفقراء والمحتاجين، وساد الهدوء في البلاد واستقرت في أيامه الحياة السياسية مما ساعده على القيام بمشاريع إصلاحية واجتماعية «وتوفي سنة 249 هـ تاركا الولاية لابنه زيادة الله الثاني الذي كان يتسم بالعقل والرأي وقد سار على خطى سلفه، إلاّ أن أيامه لم تدم طويلا، فتوفي عام 250هـ» (2) .

وقام بأمر الإمارة بعده محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، وكان يلقب بأبي الغرانيق ، وفي عهده فتحت جزيرة مالطا سنة 255 هـ لكن الروم تغلبوا على مواقع من أرض المسلمين في صقلية، وفي سنة 261هـ توفي أبو الغرانيق فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر (3) وقبل أن تدركه الوفاة عقد لابنه أبي عقال العهد واستخلف أخاه إبراهيم بن أحمد، وقد اهتم إبراهيم بن أحمد بالتجارة والعمران، فبنى سور سوسة سنة 263 هـ كما بدأ في بناء مدينة رقادة، وتابع الفتوح الإسلامية في صقلية، ففتح "سراقوسا" سنة 264 هـ «وفي سنة 289 هـ أدركته الوفاة وهو يقاتل الروم في صقلية » (4) وخلفه في الحكم ابنه عبد الله الذي كان يمتاز بالشجاعة والعقل والإقدام، وقد كتب إلى العمال كتابا، يقرؤونه على العامة، يعدهم فيه بالإحسان والعدل والرفق والجهاد، واستعان بالعلماء، وأنصف المظلوم «ومات مقتولا سنة 290 هـ »(5) وكان لابد أن تصير الأمور إلى زيادة الله الثالث بعد مقتل أبيه، فأخذ يقاتل الذين قتلوا أباه، من أعمامه وإخوته «فقتل عمه أبا الأغلب الزاهد المعتكف في سوسة، وقتل أخاه أبا عبد الله الأحول بعد أن استقدمه من طبنة»(6) واستمر منهمكا في ملذاته ولهوه، وأهمل شؤون دولته، وفي هذا الوقت كانت أخطار الشيعة تحدق بدولة الأغالبة، وكان نشاط الداعية أبو عبد الله الشيعي القائم بالدعوة الفاطمية يزداد خطرا يوما بعد يوم، فلم يكن زيادة الله الثالث ليغفل عن هذا التهديد الشيعي، وهو يتغلغل في أحشاء البلاد، فقد جمع العلماء والفقهاء وذوي الرأي للنظر في الدعوة الشيعية، وعقد مؤتمرا إسلاميا للفصل في هذا الأمر كان ذلك سنة291

* **هو** أبو سعد سحنون بن سعيد من كبار قضاة المالكية، ينسب إلى قبيلة تنوخ العربي، ولد سنة 160 هـ وتوفي سنة 240 هـ.

(1) **ينظر:ابن عذارى المراكشي** :البيان المغرب،ج1،ص110 **وابن الأثير**: الكامل في التاريخ،ج6 ،ص 213 و **عبد الرحمن ابن خلدون** : تاريخ ابن خلدون، ج4،ص200.

(2) **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 127 .

(3) **ينظر: ابن عذارى**:البيان المغرب،ج1،ص116،112 **وابن الأثير** : الكامل في التاريخ،ج6 ،ص 213 و **عبد الرحمن ابن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، ج4،ص201.

(4) **عبد الرحمن ابن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، ج 4 ،ص203 .

(5) **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص 129 .

(6) **عبد العزيز الثعالبي:** تاريخ شمال إفريقيا ، ص 257 .

هـ- فألقى كبير وزرائه خطابا في هذا المؤتمر قال فيه: «يقول لكم الأمير إن هذا الصنعاني الخارج علينا مع كتامة يزعم أن أصحاب النبي- ﷺ-ارتدوا بعده ويسمي شيعته المؤمنين ومخالفيه الكافرين ويبيح دماءهم»[1] ويظهر واضحا أن الأمير الأغلبي حاول أن يستفيد من جهود العلماء بهذا المؤتمر في حمل الناس على قتال الشيعة، إلا أن حالته السياسية كانت تنذر بالضياع والانهيار، مما جعل الدولة الفاطمية تتمكن من نفوس القائمين بها، ولذلك لم تغن جيوش واستعدادات زيادة الله الثالث عنه شيئا، ولحقت بالدولة الأغلبية الهزيمة فسقطت المدن في يد الشيعة الواحدة بعد الأخرى «وتمكن أبو عبد الله الشيعي من هزيمة الأغالبة، فخرج الأمير من رقادة *سنة 296 هـ قاصدا مصر »[2] .

وإذا ما نظرنا إلى الإمارات التي قامت على أرض المغرب الإسلامي، كانت إمارة الأغالبة هي الأقوى والأقصر أجلا، إذا ما قارناها بغيرها وسقطت في نفس الظروف التي سقطت بها جارتها الرستمية سنة296 هـ وكان لابد لنا أن نلقي نظرة عن جهاز الدولة السياسي، والدواوين والقوى التي كانت تساعد الأمير في إدارة الإمارة المستقلة تحت لواء الخلافة العباسية، فبطبيعة الحال كان الأغالبة يستفيدون إداريا وتنظيميا من نظام الحكم العباسي، فأسّسوا منصب الوزارة الذي يلي منصب الإمارة «ومن مهام الوزارة النظر في دواوين الدولة الثلاثة، ديوان الجيش، وديوان الجباية، وديوان الرسائل »[3] وكان نظام الحكم عند الأغالبة نظاما ملكيا وراثيا كما أشرنا إليه سابقا، اجتهد أمراؤه على ترقية وخدمة هذه الدولة ماديا وأدبيا، مستمدين وسائلهم الحضارية والفنية من الدولة العباسية، فقاموا بتنظيم البلاد من الناحية الإدارية، فكانت بها عدة ولايات كبرى منها ولاية طبنة في المغرب الأوسط، والتي كانت من أهم مراكز بني الأغلب، واعتبرت في ذلك الوقت معقلا حصينا للمذهب السني، وأصبحت عاصمة لإقليم الزاب * في عهدهم، فحصنوها تحصينا جيدا، وأمدوها بالجند وأرسلوا لحكمها خيرة رجالهم[4] ولهم كذلك بالمغرب الأدنى ولايات كبرى كتونس والقيروان

.

---

(1) **ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب ، ج1 ، ص 185 .

* هي مدينة تونسية بناها إبراهيم بن الأغلب سنة 226هـ جنوب القيروان، واتخذها عاصمة للأغالبة .

(2) **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 130 .

(3) **المرجع نفسه :** ص 131 .

* من الأقاليم الواسعة يحمل عدة مدن تمتد بين القطر الجزائري والقطر التونسي، من أهمها بسكرة ، قسنطينة، توزر ...

(4) **ينظر: محمد الطمار:** الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج،الشركة الوطنية للنشروالتوزيع،الجزائر،1983 ، ص 80 .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

يقول ابن خلدون في مقدمته : «فعلى نسبة حال الدولة يكون الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصل العمران وكثرته »[1] هذا القول يشير بوضوح إلى العلاقة الوثيقة بين وضع الدولة والرخاء الاقتصادي لها وللرعية معا، وأن حال الدولة الأغلبية قد تطور إيجابيا في عهد إبراهيم بن الأغلب وذلك لاستقامته وسداد رأيه كما بين البحث سابقا، وكانت سياسته الرشيدة قد انعكست خيرا على الحياة الاقتصادية، مما عم الرخاء فيها «فجد الأغالبة في إنشاء مصانع الماء بكافة أنحاء القطر، فنشطت الزراعة في هذا العهد وزاد الإنتاج وتنوع، كما انتشرت فيها البساتين التي زخرت بمختلف الأشجار المثمرة»[2] وهذا الإنتاج الزراعي جعل المنطقة تكثر فيها أشجار الزيتون و كثر إنتاج الزيوت «وكان لكل قرية معصرة زيت خاصة بها»[3] وهذا يفسر خبرة الأغالبة الواسعة في التصرف في تقنيات السقي وجريان المياه، وكان لابد أن ينعكس هذا النشاط الفلاحي إيجابيا على الثروة الحيوانية «فعرفت البلاد كفاية من اللحوم والأصواف والجلود والألبان تبعا لازدياد العمران »[4] .

ونهض الأغالبة بالصناعة والتجارة بفضل ما أنعم الله تعالى عليهم بالأمن والاستقرار، فأنشأوا الطرق ونظموا الموصلات، وتركوا مآثر جليلة في ميدان العمران وأنشأوا مصانع الغزل والنسيج وما يتبعها من الصباغة وتركيب الألوان، واشتهروا بالمصنوعات الجلدية وما يتبعها من الدباغة، والأهم من ذلك كله تنوعت هذه النهضة الصناعية وتوزعت على مختلف المدن والولايات الأغلبية، فقد كان بطبنة عاصمة الزاب «قصور وحدائق غناء ما يفسر أن البلد كان يتمتع باقتصاد يبعث على الارتياح »[5] خاصة وأن طبنة أكبر مدينة بالمنطقة بعد القيروان وبها أهم سوق تقصده القوافل التجارية من كل فج وحتى من خارج الدولة، وكانت هذه المدينة «تحتضن صناعا حاذقين خاصة في صناعة الزرابي »[6] وتنوعت الصناعات في فترة بني الأغلب، فشملت عدة فنون، وكانت الدولة تشرف على بعض منها، كضرب العملة، وصناعة الأسلحة، وبناء السفن الحربية، ومن أهم الصناعات التي دخلت في عهدهم، صناعة الآلات العلمية كالاصطرلاب، والآلات الفلكية، وصناعة الورق ،وهكذا ظهر الانتعاش الاقتصادي بفضل تطور الفلاحة، ورواج التجارة، «الذي ساعده على ذلك الموقع الاستراتيجي المتميز في قلب البحر المتوسط مركز الحركة في العالم القديم »[7].

([1]) **عبد الرحمن بن خلدون:** المقدمة ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ط1 ، 2006، ص 301 .

([2]) **رابح بونار:** المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص 30 .

([3]) **د/ سعد زغلول عبد الحميد:** تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ،ص 495 .

([4]) **د/ ممدوح حسين:** إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الاغلبي ، دار عمار للنشر،عمان، الأردن،ط1، 1996 ،ص 48 .

([5]) **أحمد الطمار:** تاريخ الأدب الجزائري ، ص26 .

([6]) **المرجع نفسه:** ص 26 .

([7]) **د/ ممدوح حسين:** إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الاغلبي ، ص 53 .

وازدهر التبادل التجاري الداخلي والخارجي اعتمادا على النقل البحري، الذي كان متطورا وله «حركات باتجاه مدن إفريقية من جهة وبين الأندلس من جهة أخرى»[1] .

ويجمع المؤرخون أن المغرب الإسلامي شهد في عصر الأغالبة تطورا عمرانيا كبيرا، وتميز أمراؤهم بشغفهم الكبير للبناء والتعمير، فأنشأوا مدينة "رقادة" على بعد ثمانية أميال جنوب القيروان، وشيدوا بها قصورا عديدة ومسجدا جامعا، وبنوا فيها الأسواق، وزودوها بالمنشآت الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة، وجلبوا إليها المياه من مسافات بعيدة، لتجمع في صهاريج ضخمة ثم توزع إلى مختلف المنشآت والحدائق .

كان السكان بإمارة بني الأغلب يشكل مزيجا، كما شهد بذلك المؤرخون، وأن الدولة الأغلبية بمدنها الكبيرة، القيروان وطبنة وتونس، كان يسكنها عناصر من أجناس مختلفة، فكان بها البربر وعناصر من الجند الروماني، والوندالي، والبيزنطي وفيها من العرب، ثم جنود بني الأغلب وهم كذلك « يكونون عناصر متباينة فارسية ومشرقية ولم يكونوا إذن من أرومة واحدة »[2] ولكن الإسلام وحّد بينهم وألف قلوبهم ونظم سلوكهم وصنع منهم عنصرا مغربيا مسلما .

([1]) **المرجع السابق** : ص 58 .
([2]) **محمد الطمار** : تاريخ الأدب الجزائري ، ص 86 .

الحياة الفكرية و الثقافية :

بعد عرضنا للحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية في عهد الأغالبة، والتي بدت مظاهرها واضحة بما يساعدنا على معرفة الإطار العام لحياة الأغالبة، فمن هذه الجوانب نريد أن نعرف علاقتها بالجانب الفكري والثقافي الذي أخذ يتأسس عند بناء القيروان التي تعتبر حاضرة العلم الأولى في بلاد المغرب الإسلامي التي أسست لمدرسة فكرية بفضل العلماء الوافدين إليها من المشرق، فبدأت الحياة الفكرية في القيروان بالعلوم الدينية وعلى رأسها تعليم القرآن الكريم والحديث، ثم الفقه والتفسير وقد ذكر المالكي في رياض النفوس أن إفريقية قد «دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابيا من صحابة رسول الله -ﷺ- خلال فترة فتحهم لإفريقية منهم من شهد العقبة ومنهم من شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ومنهم من شهد بيعة الرضوان وصلَّى إلى القبلتين» [1] و كذلك دعاء عقبة بن نافع الفهري للقيروان عندما اختطها « اللهم املأها علما وفقها » .

كل هذا يؤهلها لأن تكون صرحا ثقافيا ومركزا فكريا يشع نوره على مر الأزمان، وواكب قيام الدولة الأغلبية نموا متميزا للحياة الفكرية في القيروان وغيرها من الحواضر لتشمل معظم العلوم التي كانت موجودة آنذاك « وكانت القيروان غاصة بالعلماء في شتى العلوم و الفنون و الآداب، الذين نشأوا فيها، والذين سعوا إلى المشرق ليغترفوا من العلوم هناك » [2] كما امتلأت القيروان في عصر بني الأغلب بالعلماء الوافدين إليها لنشر العلم، فقصدها الطلاب من شتى بقاع العالم الإسلامي، واستمر الازدهار الفكري والثقافي بعد ذلك خلال فترة حكم الفاطميين .

ولما كان بالإمارة الأغلبية امتداد فكري وحضاري للخلافة العباسية، فكان من الطبيعي أن تأخذ هذه الإمارة بتقاليد دار الخلافة، فقلدتها في المذاهب والعقائد وفي تشريع الأحكام والقوانين «فكانت الدولة الأغلبية حنفية » [3] ولا يخفى ما كان يتمتع به طلبة المدرسة المالكية من الجاه والتقدير عند الشعب، خاصة ما كان للإمام أبي القاسم الزواوي تلميذ الإمام مالك وأسد بن الفرات وسحنون بن سعد وغيرهم .

«واجتمع يومئذ المذهبان بالمغرب المالكي و الحنفي » [4] وخلال ازدهار فترة الأغالبة نبغ كثير من الفقهاء في مختلف المذاهب، في قمتهم المذهب المالكي، كما نبغت فيه «فقيهات مثل: خديجة بنت سحنون التي كانت من أحسن النساء وأعقلهن » [5].

---

(1) **المالكي:** رياض النفوس ،ج1 ، ص 97 .
(2) **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ،ص 241 .
(3) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:** تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ص269 .
(4) **المرجع نفسه:** ص 269 .
(5) **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص248 .

ومن الذين تركوا آثارا في الفكر والفقه أعلام نذكر منهم أسد بن الفرات (تـ 213 هـ) صاحب الأسدية، وسحنون (تـ 240هـ) صاحب المدونة، وسليمان بن عمران (تـ 270 هـ)، وابن الحداد (تـ 302 هـ) وغيرهم .

وأنجبت الجزائر الأغلبية أعلاما شاركوا في دراسة الفقه وروايات الحديث نذكر منهم إسحاق بن أبي عبد الله الملشوني جليس أمراء بني الأغلب، وكان يجالس الإمام سحنون بالقيروان والفضل بن سلمة بن جرجر الجهني البجائي الذي كان مدرسا بالقيروان، وأبو جعفر أحمد بن نصر الداودي دفين تلمسان، وأبو الوليد مروان المسيلي الذي قال عنه أبو العرب في طبقاته: «كان ثقة مستجابا فاصلا في مثل سحنون بن سعد »[1].

وكما نمت العلوم الشرعية وازدهرت خلال حكم بني الأغلب فقد تطورت العلوم العربية بكل فروعها وبرز الشعراء والخطباء والكتاب، وعلماء النحو واللغة، كما يعتبر عصرهم بداية لازدهار الأدب في بلاد المغرب الإسلامي، فقد ظهر عدد من الأدباء، يمكن اعتبارهم على قلتهم، ممثلين لمظاهر نهضة أدبية في بدايتها وكان من بين أمراء الأغالبة أنفسهم شعراء، «كإبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة وحفيده أبو العباس بن الأغلب »[2] .

وكانت عاصمة الزاب طبنة تنافس القيروان في الميدان الثقافي، فأنجبت أعلاما تفوقوا أدبيا من مثل محمد بن حسين الطبني، وأبي القاسم يوسف البكري، وأبي الفضل عطية الطبني [3] .

ومما يلاحظ في هذا العصر أن ثقافتهم، كان يغلب عليها الطابع الديني، فلا نجد شاعرا إلا وكان فقيها أو محدّثا، فكان شعرهم شعر فقهاء، والدليل أن كثيرا من الفقهاء تركوا لنا قصائد عالجت موضوعات مختلفة كالرثاء والشكوى والوعظ والزهد في الدنيا، ومن أشهر هؤلاء أحمد الصواف (تـ 291 هـ) وعيسى بن مسكين (تـ 257 هـ)، وعبد الله بن قطن (تـ 255 هـ) ... بقي لنا أن نذكر أن الشاعر بكر بن حماد التيهرتي، الذي تم ذكره آنفا، والذي تعلم وتثقف بالقيروان على يد الإمام سحنون وغيره، أنه كذلك تقرب من أمراء بني الأغلب، وعاصرهم في أواخر عهدهم، فنجده قد مدح الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي .

---

(1) **محمد الطمار:** الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج ، ص 84 .
(2) **أبو القاسم محمد كرو و عبد الله شريط :** عصر القيروان ، الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس ، ط1، 1973، ص 38.
(3) **ينظـــر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:** تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ص 269 .

الدولــة الفاطميـــة

الحياة السياسية :

قامت الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي بزعامة عبيد الله المهدي الذي ادّعى أنه صاحب الحق في الخلافة وأنه حفيد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد مهد لقيام الدولة الفاطمية أبو عبد الله الشيعي ، وهو داعية إسماعيلي يعود له الفضل في تأسيس هذه الدولة، وقام بحشد قبيلة "كتامة " لنصرتها والتي بفضلها نجح أبو عبد الله الشيعي في ثورته على الأغالبة والقضاء على دولتهم، فلنا أن نتوقف حينا عند الأسباب والظروف التي ساعدت على قيام هذه الدولة، ولاشك أنَّ من الأسباب المباشرة التي عجَّلت بسقوط دولة الأغالبة هي سياسة القمع والاضطهاد والمعاملة القاسية للشعب، وأخذها بالعنف والتضييق عليه بالمغارم والضرائب الباهظة ، وهذا التعامل جعل الهوة واسعة بين الأسرة الحاكمة وعموم الشعب، فزاد نفور الرعية وثورة بعض القبائل البربرية وبالأخص كتامة التي جعلتها هذه الأسباب وغيرها سهلة الانقياد إلى أبي عبد الله الشيعي الذي بعثه الحسين بن حوشب النجار لبث الدعوة في المغرب قائلا له: «إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك»[1] .

فخرج أبو عبد الله مع أخيه أبي العباس من صنعاء إلى مكة وأخذ يسأل عن حجاج كتامة، فأُرشد إليهم واجتمع بهم، ولم يعرِّفهم قصده، واستمع إلى حديثهم في فضائل أهل البيت فشاركهم فيه، فاستحسنوا منه ذلك «و رأوا ما هو عليه من العبادة والزهد فعلق بقلوبهم، وصار يتعهدهم في رحالهم فاغتبطوا به واغتبط بهم »[2] ولما انتهوا من الحج سار معهم إلى مصر، وكان يبالغ أثناء ذلك في الزهد والعبادة، فعظم في عيونهم وسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم وقبائلهم، وعن الظروف السياسية في بلاد المغرب، فتعرف منهم عن أحوال البلاد ثم خرج معهم إلى بلاد المغرب، وكانوا قد سلكوا طريق الصحراء، وعدلوا عن القيروان إلى أن دخلوا بلد "كتامة" سنة 280هـ وتنافسوا على إقامته بينهم، فسألهم عن" فج الأخيار"وساعدوه على بلوغ ذلك، وفي الأخير استقر أبو عبد الله الشيعي بجبل ايكجان *الذي فيه فج الأخيار، ومن ذلك ذاع صيته وتفرقت أخباره وقصدوه من كل مكان [3] وتمكن هذا الداعية بفضل دهائه وحسن تدبيره للأمور من الوصول إلى استمالة قبيلة كتامة فالتفت حوله و ناصرته، ولأجل نشر دعوته والتأثير في نفوس البربر، قام الداعية بتوظيف الأحاديث النبوية بما يخدم غرضه مع معرفته مدى تعلق أهل القبيلة بالرسول ﷺمما عظم أمره وكثر

([1]) **أبو عبد الله محمد الصنهاجي المدعو ابن حماد الصنهاجي :** أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ، تحقيق و تعليق جلول احمد البدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 12

([2]) **عبد الرحمن بن خلدون :** تاريخ ابن خلدون ، مج 4 ،ص 38 .

* جبل يوجد فيه مكان يسمى فج الأخيار تسكنه قبيلة كتامة،ويقع بالقرب من مدينة جميلة بين سطيف قسنطينة من القطر الجزائري.

([3]) **ينظر:عبد الرحمن بن خلدون**:تاريخ ابن خلدون، مج 4 ،ص 39، **ورابح بونار**:المغرب العربي تاريخه وثقافته،ص 158 .

أتباعه باستمرار وأخذ يعمل على تكوين المجتمع الذي ينشده، وصبغ دعوته بالصبغة الدينية مما جعل أتباعه على ثقة تامة به ولما رأى بأن مرحلة التكوين الداخلي في بلاد كتامة *قد أتت ثمارها بفضل سياسة التوعية، وأصبحت له قوة يستطيع الاعتماد عليها من ناحية العدة والعدد، وفي هذا الوقت وصلت الأنباء إلى الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (261 –289 هـ) فرابه الأمر وأرسل إلى عامله على "ميلة" يسأله عنه، فاستصغر عنه الأمر وأخبره أنه: «رجل يلبس الخشن ويأمر بالخير والعبادة »(1) ولما تعرف أبو عبد الله على الظروف السياسية التي يمر بها الأغالبة في آخر عهدهم، رأى أن يبدأ مرحلة أخرى في تقرير مصير دعوته الإسماعيلية بالمغرب الإسلامي، فبدأ بالفتوحات الأولى في أرض بني الأغلب، فأخذ المدن شيئا فشيئا معتمدا على حماس أتباعه من الكتاميين الناقمين على الأغالبة بسبب سوء تصرفهم، «فأخذ ميلة وبعدها توجه إلى سطيف فحاصرها، ثم تمكن من دخولها، وبعدها قصد طبنة »(2) وأخذ أبو عبد الله يشجع أنصاره على ما يشعل فيهم الحماس لدعوته والعمل في سبيل نصرتها فيقول لهم : «المهدي يخرج في هذه الأيام ويملك الأرض فيا طوبا لمن هاجر إلي وأطاعني »(3) .

فزاد الحماس في أنصاره والتقت جيوشه بجيوش زيادة الله الأغلبي في عدة مواقع، كان آخرها موقعة الأربس ، انتصر فيها أبو عبد الله الشيعي «وانتشرت جيوشه في البلاد، وعلا أمره وبَشَّرهم بأن المهدي قرب ظهوره فكان كما قال » (4) ولما حسم أبو عبد الله الشيعي الصراع عسكريا، دخل مدينة رقادة عاصمة الأغالبة سنة 296 هـ واستولى على ما تركه زيادة الله من الأموال والسلاح، وتم القضاء على دولة الأغالبة وكان ذلك إيذانا بقيام الدولة الفاطمية إلى حين «تنصيب الخليفة الفاطمي الذي كان مسجونا في سجلماسة » (5) .

ثم ارتحل أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة* في طلب المهدي، هذا الإمام المرتقب للخلافة الناشئة التي هيأ دعائمها، وفي ذلك يذكر لنا العلامة ابن خلدون قصة هذا المهدي، ويعرفه بأنه « لما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن إسماعيل الإمام، عهد إلى ابنه عبيد الله، وقال له: أنت المهدي وتهاجر بعدي هجرة بعيدة وتلقى محنا شديدة » (6) فكانت رحلته إلى المغرب مع ابنه أبي القاسم محمد، وفي طريقه ترك إفريقية وقصد سجلماسة، حيث تم احتجازه من طرف أميرها، لما دارت الشكوك حوله بأنه الإمام الفاطمي، وكان أبو عبد الله على علم بذلك،

---

* من أشهر القبائل الجزائرية تقع بين قسنطينة وبجاية تسكن السهوب والجبال،وهي التي قامت على سواعدها الدعوة الشيعية .

(1) **رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص 158 .

(2) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج 4 ، ص 42 .

(3) **محمد محمد زيتون**:القيروان ودورها في الحضارة الإسلامي،ص136، **وينظر:ابن الأثير**:الكامل في التاريخ،ج8،ص13.

(4) **عبد الرحمن ابن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج 4 ، ص 41 .

(5) **محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 137 .

* مدينة عريقة كانت بجنوب المغرب الأقصى اختططها عيسى بن يزيد الصفري الخارجي ثم انتقلت إلى ملك بني مدرار .

(6) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج 4 ، ص 41 .

فتوجه قاصدا سجلماسة في جيوش عظيمة أرعبت كل القبائل، فأقبلت تدخل في طاعته، وفتح في طريقه المغرب الأوسط ، وأسقط الدولة الرستمية سنة 296 هـ، وسار حتى وصل إلى سجلماسة، وهاجم أميرها اليسع بن مدرار واستطاع أن يحرر عبيد الله المهدي من سجنه في نفس السنة، ثم عاد إلى رقادة سنة 297 هـ «فلما قرب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان وأبو عبد الله ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وابنه خلفه، فسلموا عليه، فرد عليهم ردا جميلا، وأمرهم بالانصراف ونزل بقصر من قصور رقادة، وأمر يوم الجمعة أن يذكر اسمه في الخطبة ويلقب بالمهدي أمير المؤمنين في جميع البلاد » [1].

وبهذا كان أول من أعلن مزاحمة الخليفة العباسي في لقبه، وبإعلانه هذا سبب انقساما في جسد الأمة الإسلامية وتغيرت خارطة العالم الإسلامي، فصارت الأمة الإسلامية متفرقة إلى ثلاث دول، الخلافة العباسية بالمشرق وعاصمتها بغداد، والخلافة الأموية بالأندلس وعاصمتها قرطبة، والخلافة الفاطمية العبيدية بالمغرب الإسلامي وعاصمتها رقادة ثم المهدية، وبعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر سنة 361هـ اتخذت القاهرة عاصمة لها وزاد العداء بين هذه الدول وتنافست فيما بينها وحاولت كل واحدة السيطرة وبسط النفوذ على الأخرى، فكان ذلك مدعاة لتفريق كلمة الإسلام وتلاشي وحدته السياسية، وكان من أمر الدولة العبيدية أن دخلت حلبة الصراع من أجل توسيع نفوذها وتحقيق حلمها البعيد بالسيطرة على جميع بلاد المسلمين .

وما إن استتبّ الأمن والاستقرار بالجهة الشرقية من المغرب الإسلامي حتى تحولت أنظار الفاطميين إلى الجهة الغربية «فجهز لها جيشا عرمرما بقيادة عروبة بن يوسف الكتامي فأتى على ملك بني رستم بتيهرت وقضى بها على إمامة الخوارج، لتكون أول عهد للجولات والصولات » [2] واستمر العبيديون في زحفهم على المنطقة الغربية «حتى وصلوا إلى مدينة وهران، ودخلوها على يد أبي حميد اللهيصي بعد حصار طويل وكان ذلك في شعبان سنة 298 هـ »[3] أما بالنسبة للمغرب الأقصى حيث «لم يسيطر عليها المهدي إلا في سنة 307 هـ على يد قائده مصالة بن حبوس والي تيهرت، وذلك بعدما حاصر فاس عدة أيام في عهد يحيى بن إدريس»[4] ولكن يرى ابن عذارى أن «مصالة ابن حبوس استولى عليها سنة308 هـ »[5] .

خلفاء الدولة الفاطمية : دخل أبو عبد الله الشيعي رقادة عاصمة الأغالبة سنة 296 هـ كما قدمنا ذلك، ثم ذهب إلى سجلماسة وأنقذ عبيد الله الفاطمي من معتقله، ونقله معززا مكرما إلى القيروان سنة 297 هـ وكان ذلك تمام قيام الخلافة الفاطمية في المغرب الإسلامي، حيث تولى عبيد الله المهدي مقاليد الأمور، وسير شؤون الدولة وولى العمال عن الولايات و«أرسل رجاله إلى صقلية حيث وصلوا إلى مازر سنة297 هـ من شهر ذي الحجة »[6] .

---

(1) **ابن حماد الصنهاجي** : تاريخ ملوك وأمراء بني عبيد وسيرتهم ، ص 21 .
(2) **ابن الأثير**:الكامل في التاريخ،ج 8،ص 151 .
وينظر: ابن حماد الصنهاجي: تاريخ ملوك وأمراء بني عبيد وسيرتهم،ص23،ص26 .
(3) **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ ، ج 8 ، ص 154 .
(4) **ابن حماد الصنهاجي** : تاريخ ملوك وأمراء بني عبيد وسيرتهم ،ص21 .
(5) **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ، ج1 ، ص 183 .
(6) **محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 138 .

ومن أشهر الأحداث التي وقعت في عهده أنه تمكن من القضاء على أبي عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي وداعية المذهب الشيعي، والسبب في ذلك شعور أبي عبد الله بضياع سلطانه ونفوذه بعد تولي عبيد الله المهدي الحكم، فتآمر مع أخيه أبي العباس وبعض رؤساء قبيلة كتامة على القضاء على المهدي، وقال فيه: «إن أفعاله قبيحة ليست تشبه أفعال المهدي الذي كنت أدعو إليه وأخشى أن أكون قد غلطت فيه»[1] وعند مقتله ثارت فتنة، إلا أن المهدي تمكن من القضاء عليها ونشر السكينة والأمن .

وشهدت كذلك أيامه فتنة أخرى نتجت عن تمادي أتباعه في حمل الناس على التشيع عنوة فقتل فيها خلق كثير خاصة من أهل القيروان وكتامة حتى تدخل المهدي وكف دعاته عن طلب التشيع من العامة [2] وأسكت كذلك فتنة أخرى بصقلية، وأخرى في تيهرت، وبعد ما استقرت الأمور كلها «جعل ولاية العهد لابنه أبي القاسم نزار »[3] ولم تكن آمال المهدي قاصرة على قيام الدولة الفاطمية بالمغرب وإنما كان يسعى إلى قيادة الأمة الإسلامية كلها، فكان دعاة الشيعة ينتشرون في كافة أرجاء العالم الإسلامي لنشر الدعوة الفاطمية ولتهيئة الفتوحات، ففكر في فتح مصر ووجه إليها حملة بقيادة ابنه أبي القاسم محمد «وسار إليها واستولى في طريقه على برقة والإسكندرية والفيوم، ولكن المقتدر بالله الخليفة العباسي أرسل إليه مؤنسا الخادم فحاربه وطرده من مصر »[4] وحاول ثانية إلا أنه لم يوفق في تحقيق مشروعه .

واهتم المهدي بإنشاء المدن ، ففكر في إنشاء مدينة تكون عاصمة لخلافته، فاختار لها مكانا «قد أحاط به البحر من ثلاث جهات وإنما يدخل إليه من الجانب الغربي »[5] وتم بناؤها سنة 305 هـ وانتقل إليها سنة 308هـ وجعل لها «سورا محكما، وأبوابا عظيمة، ومصانع للماء، وبنى فيها القصور والدور ،ولما فرغ منها قال: اليوم أمنت على الفواطم »[6] واطمأن على عاصمة الدولة من الأعداء، وفي عام 315 هـ سير المهدي ابنه أبا القاسم محمد إلى جهة تيهرت فحارب ثوارها وأخمد حركة المعارضة بها «واتخذها قاعدة لمحاربة زناتة الموالية للأمويين بالأندلس»[7] وفي طريق عودته اختط مدينة المسيلة وسماها المحمدية نسبة له وأناب عنه في بلاد المحمدية «علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسية وعقد له عليها وعلى الزاب»[8].

---

(1) **ابن عذارى المراكشي:** البيان المغرب، ج1، ص161، **وينظر: عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ ابن خلدون، مج4، ص45 .
(2) **ينظر: محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص139 **ورابح بونار:** المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص106
(3) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج4 ، ص45 .
(4) **رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص167 .
(5) **البكري** : المغرب في ذكر بلاد المغرب ، ص 29 .
(6) **محمد محمد زيتون:** القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص141 .
وينظر: رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص167.
(7) **رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص 167 .
(8) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج4، ص48 .

وخلص الأمر لعبيد الله المهدي وصفا له الملك « فملك إفريقية كلها والمغرب بأسره وطرابلس وجزيرة صقلية والإسكندرية والفيوم »[1] وفي سنة 322 هـ توفي عبيد الله المهدي أول الأئمة الفاطميين، و علق على ذلك ابن حماد فقال: «مات عبيد الله يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة 322 هـ، ولقد دام عهده أكثر من أربع وعشرين سنة منذ أن دخل رقادة خليفة في شهر ربيع الأول سنة297هـ إلى أن توفي سنة 322 هـ »[2].

وكانت وفاته لدواء شربه قد يكون سبب ذلك «نقرس أصابه »[3]وآل الأمر من بعده إلى ابنه القائم بأمر الله، وكنيته أبو القاسم محمد بن عبد الله «بويع يوم مات أبوه عبيد الله وعمره إذ ذاك اثنتان وأربعون سنة»[4] عهد إليه والده في حياته وسماه ولي عهد المسلمين، وكان يُظهر السرور إذا رآه، اقتفى القائم بأمر الله آثار أبيه واستطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه «بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب»[5] ووجه جهوده لنشر الاستقرار في ربوع المغرب، وبسط سلطان الدولة الفاطمية فيه «كما أعد أسطولا ضخما لغزو بلاد الروم فتوجه إلى "جنوة" ففتحها وأثخن في بلاد الروم ومر بسردانية فأوقع بأهلها»[6] وواجه في عهده عدة ثورات كان أخطرها تلك التي تزعمها أبو يزيد مخلد بن كيداد الذي استطاع أن يجمع حوله البربر بجبال الأوراس، وتلقب بشيخ المؤمنين، ودعا للناصر صاحب الأندلس من بني أمية، وهنا تتجلى محاولة الأمويين بالأندلس في مساعدة حركة المعارضين ضد الفاطميين، فنظم أبو يزيد جموعه وزحف إلى الأربس والتقى بجيش الفاطميين فهزمهم واستولى على الأربس، ثم دخل "باجة" وكان أبو يزيد ينهب المدن التي يستولي عليها، ويقتل الأطفال ويسبي النساء [7] .

كانت انتصارات أبي يزيد ترجع ربما إلى كثرة أنصاره الذين كون بهم جيشا كثير العدد، وزحف بهم إلى القيروان ونزل على رقادة، واستولى عليها بعد قتال عنيف مع الفاطميين سنة 333 هـ، مما دفع القائم بأمر الله أن يستعين بزعماء قبيلة كتامة وأرسل إلى زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة، طالبا منه المساعدة للقضاء على أبي يزيد الذي كاد أن يعصف بدولة الفاطميين لولا قدوم المدد من هاتين القبيلتين، ودارت معارك ضارية بين جنود الفاطميين وجنود أبي يزيد، وتدخلت عوامل شتى في سير المعارك ضد أبي يزيد أهمها تغير سلوكه ومجاهراته بالمحرمات و «كان يبيح لجيشه نهب البلاد وحرقها وسبي النساء وقتل الأطفال مما يؤكد أنه لم يكن أباضي العقيدة، إذ الأباضية لا يستحلون شيئا من ذلك كله، فقد يكون على مذهب الصفرية أو الخوارج الأزارقة المتطرفين، الذين نسبت لهم هذه الأعمال » [8].

([1]) **ابن حماد الصنهاجي** : تاريخ ملوك وأمراء بني عبيد وسيرتهم ، ص7 .
([2]) **المصدر نفسه:** ص 26 .
([3]) **المصدر نفسه:** ص 26 .
([4]) **المصدر نفسه** : ص 29 .
([5]) **رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص 168 .
([6]) **محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 142 .
([7]) **ينظر:عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ ابن خلدون،مج4، ص50،49،**ومبارك بن محمد الميلي:**تاريخ الجزائر العام،ج2،ص122. **ومحمد محمد زيتون:**القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية،ص142،143.
ورابح بونار:المغرب العربي تاريخه و ثقافته،ص170 .
([8]) **د/ شوقي ضيف:** تاريخ الأدب العربي ،عصر الدول والإمارات ، ص33 .

مما ثار عليه بعض البربر وأهل القيروان وخرجوا عن طاعته، وفي هذه الظروف توفي القائم بأمر الله والأخطار محدقة بالخلافة الفاطمية سنة 334 هـ بعد أن عهد لابنه إسماعيل أبي الطاهر .

وبدأ عهد الخليفة الثالث المنصور إسماعيل بن القائم، واستمر في قتال أبي يزيد وطلب المدد من كل جهة ورفع من معنويات الجند، فخرجوا لقتاله، وتمكنوا من التغلب عليه، ففرّ إلى القيروان فمنعه أهلها ودارت عليه الدائرة، وتقلص بذلك نفوذه، وسرّ المنصور بهذه الأنباء، وتبعه المنصور ودارت بينهما معارك عديدة كان النصر فيها في النهاية لخليفة الفاطميين، وتوالت الهزائم بأبي يزيد، والمنصور يقتفي أثره من مكان لآخر حتى حاصره في قلعة كتامة، وتمكن من القبض عليه مثخنا بالجراح سنة 336 هـ [1] وبذلك قضى على تلك الفتنة التي كادت أن تذهب بحلم العبيديين، ويرى المؤرخون أن هذه الثورة من أعظم الثورات التي ابتلي بها الفاطميون في تاريخهم بالمغرب، وتوّج هذا النصر ببناء مدينة صبرة المنصورية بالقرب من القيروان «سماها باسمه وانتقل إليها من المهدية سنة 337 هـ ونقل إليها أسواق القيروان » [2] وبلغ المنصور أنّ ملك الافرنجة يريد غزو المسلمين فأخرج أسطوله و عزّزه بالعساكر، وأمر عامله بصقلية بالخروج معه، والتقت جيوشه بالفرنجة فدحرتها وحققت فتحا عزيزا، ورجعت الحملة بالغنائم، وفي أثناء المدة التي توجهت فيها الحملة توفي المنصور إسماعيل ابن القائم سنة 341 هـ [3] .

وتولى الخلافة بعد وفاته ابنه "معد" الذي تلقب بالمعز لدين الله، الذي«ولد بالمهدية سنة 319 هـ»[4]وفي عهده دانت له قبائل البربر كافة والمغرب كله، و يصفه الأستاذ رابح بونار فيقول : «كان المعز أعظم ملوك الفاطميين قدرا وأجلهم خطرا، بعيد الصيت، عظيم الجبروت، وقورا، كثير التأنّي يذهب بنفسه كل مذهب، ويجيد عدة لغات، وكان ذا ولع بالعلوم والآداب » [5]وقام بتدبير الأمور بإحكام حتى نال نصيبا من مدح الشعراء، وكان الشاعر ابن هانئ الأندلسي أكثرهم في ذلك .

وأمر المعز ولاة الأقاليم والمدن بحسن معاملة الرعية مما عجل عصاة البربر إلى الانقياد إليه وطاعته، وكان يجزل العطاء لهم ومن هؤلاء: « محمد بن خزر أمير مغرواة، وكان عامله على تيهرت وإيفان، ويعلى بن محمد اليفرني، وعلى أشير* وأعمالها زيري بن مناد الصنهاجي، وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن

---

(1) **ينظر: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي** : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ،ج2،تحقيق د/محمد حلمي محمد أحمد ،مطابع الأهرام التجارية ،القاهرة ،1966 ،ص 124 **وعبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ،مج 4،ص52 ، **ورابح بونار**:المغرب العربي تاريخه وثقافته،ص172،**ومحمد محمد زيتون**:القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية،ص144.

(2) **محمد محمد زيتون** :القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص144 .

(3) **ينظر : ابن عذارى** : البيان المغرب ، ج1 ،ص280 ... 220 ، **و ابن الأثير** : الكامل في التاريخ ، ج8،ص165...173، **وابن خلدون** :تاريخ العبر ، ج4،ص55،54.

(4) **ابن حماد الصنهاجي** : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ،ص48 .

(5) **رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ،ص174 .

*بلدة تقع في سفح جبل التيطري بالمدية من القطر الجزائري .

علي الأندلسي وعلى باغاية قيصر الصقلي، وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل، وعلى سجلماسة محمد بن واسول المكناسي » [1] .

وقد وجه المعز الفاطمي جهوده لبسط نفوذه على المغرب الإسلامي، فأرسل سنة 347 هـ قائده ووزيره جوهر الصقلي في جيش كبير كان فيه قادة البربر منهم زيري بن مناد الصنهاجي، وجعفر بن علي بن حمدون واستولى بذلك جوهر على سجلماسة بعدما خرج أميرها محمد بن واسول عن طاعة الخلافة وقبض عليه، ثم واصل سيره غربا حتى وصل إلى المحيط، وعاد لما بسط سيطرته على تلك المناطق، وقضى على كل تمرد وبذلك خضع المغرب الأوسط والأقصى للمعز لدين الله «سوى سبتة وطنجة التي لم يتمكن جوهر من الاستيلاء عليهما »[2] .

وبعدما بسط المعز لدين الله سيطرته على المغرب سيطرة كاملة توجهت أنظاره إلى المشرق لكي يحقق حلم أجداده وقد ساعدته الظروف على تحقيق هذا الهدف عوامل منها استقرار المنطقة وسكون الثورات التي كانت تقوم ضد آبائه، كما اهتم المعز بهذه الحملة على مصر، وهيأ لها كل الظروف المادية والمعنوية، وقد كان للدعاة الفاطميين في مصر أثرهم البارز في نشر أفكار المذهب الشيعي بين المصريين، مما أدى إلى ضعف المقاومة على حملة جوهر الصقلي إضافة إلى هذه الأسباب اضطراب الأحوال في مصر بعد موت كافور الإخشيدي * (تـ357 هـ) واستغل الفاطميون هذه الثغرة، واستطاع جوهر أن يفتحها سنة 358 هـ[3] ففرح بذلك المعز لدين الله، وتقدم ابن هانئ وأنشد بين يديه قصيدة منها :

تَقُولُ بَنُو العَبَّاسِ: هل فُتِحَت مِصرُ ؟ فَقُل لِبَني العبَّاس: قَد قُضِي الأَمْـرُ

وقد جاوز الإسْكَنـدَرِيَّةَ جَوهَـرٌ تُطالعُه البُشْرى، ويَقْدُمُهُ النَّصْـرُ [4]

ولما استتبّ الأمر بمصر، بدأ جوهر الصقلي يعدّ العدة لنقل مركز الدولة العبيدية إلى مصر، فبنى للخليفة قصرا فخما شمال الفسطاط، وبنى معه منازل الوزراء والجند، وكان هذا يعدّ بداية لتأسيس مدينة القاهرة، وبعد أن تم أعماله طلب جوهر من المعز أن ينتقل إليها «وأصبحت القاهرة عاصمة للخلافة العبيدية سنة 362 هـ أي بعد أربع سنوات من فتحها، وكان رحيل المعز إليها في رابع عشر ربيع الأول منها، ومعه ألف حمل مال، ومن السلاح والخيل والعدد ما لا يوصف، فقدم جوهر إلى مصر ووصلت البشارة بفتحها في

([1]) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ،مج4،ص55 .

([2]) **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ ، ج8 ، ص 207 .

* كان واليا على مصر من قبل العباسيين سنة 355 هـ يكنى بأبي المسك ويلقب بالأستاذ قصده المتنبي ومدحه توفي سنة357هـ

([3]) **ينظر: عبد الرحمن بن خلدون** :تاريخ ابن خلدون،مج 4،ص57 **ومحمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية،ص147 **ورابح بونار** :المغرب العربي تاريخه وثقافته ،ص175 .

([4]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 85.

نصف رمضان سنة ثمان وخمسين، فسرّ المعز سرورا كثيرا»[1] ولمّا وطأت قدماه أرض مصر بدأ ينظم شؤون الدولة، ويطبق تعاليم المذهب الجديد على سكان مصر «فأمر المعز بمنع صلاة التراويح في رمضان، وأمر بصيام يومين مثله، وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وأسقط من آذان صلاة الصبح عبارة الصلاة خير من النوم وزاد عبارة حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر »[2] .

ولما عزم المعز على الانتقال إلى مصر استدعى إليه أمير المسيلة جعفر بن علي بن حمدون ليستخلفه على المغرب الإسلامي نظير ما قدمه هو وأبوه من أعمال جليلة للخلافة الفاطمية منذ نشأتها، لكن جعفر وضع شروطا لهذا الاستخلاف مما جعل المعز يستغني عنه، فوقع الاختيار الثاني على بلكين بن زيري الصنهاجي فقال له : «تأهب لخلافة المغرب، فأكبَر ذلك وقال: يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ﷺ ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري، قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح »[3] وبقي معه حتى أجاب وقال: «يا مولانا بشريطة أن تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره والخبر لمن تثق به، وتجعلني أنا قائما بين أيديهم فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين يديك»[4] فرضي المعز بهذا وشكره ولما انصرف قال له عمّ أبيه أبو طالب أحمد بن المهدي عبيد الله يا مولانا: «وتثق بهذا القول من يوسف أنه يفي بما ذكره فقال المعز: يا عمَّنا: كم بين قول يوسف وقول جعفر، واعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف، فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولى وأحسن وأجود عند ذوي العقل وهو نهاية ما يفعله من يترك دياره»[5] وبهذا تم استخلاف بلكين بن زيري على إفريقية والمغرب وأنزله القيروان «وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح »[6] وفارقه متوجها إلى مصر، كان هذا آخر عهد للسلالة العبيدية بالمغرب الإسلامي.

وبانتقال المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر نكون قد انتهينا من عرض الحياة السياسية للدولة الفاطمية بأرض المغرب فبدا لنا فيها اضطرابا سياسيا كان له انعكاس على الحياة الفكرية والثقافية والتأثير فيها ولكن قبل هذا نرى أنه من الضروري أن نعرج على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للدولة الفاطمية .

([1]) **المقريزي** : اتعاظ الحنفا ، ج1 ،ص42 .
([2]) **المصدر نفسه** : ص 46 .
([3]) **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ ، ج 8، ص620 ، **وينظر** : **المقريزي** : اتعاظ الحنفا ،ج1 ، ص 42 .
([4]) **المقريزي** : اتعاظ الحنفا ، ج1 ،ص43 .
([5]) **ابن حماد الصنهاجي** : تاريخ ملوك بني عبيد و سيرتهم ، ص53 .
([6]) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج 4،ص59 .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

تقدمت الحياة الاقتصادية على عهد الفاطميين خاصة في تلك الأوقات التي قضوا فيها على المعارضة وبسطوا سيطرتهم على المغرب الإسلامي، وساد به الأمن و الاستقرار ، فعمت الخيرات وعاد إليه الرخاء، ونشطت التجارة داخليا وخارجيا، نظرا للتطور الفلاحي والصناعي بها، ففي الزراعة كثرت المحصولات بكل مناطق البلاد، التي كانت تحت نفوذهم، ونشطت الفلاحة واشتهرت بغرس الزيتون وزراعة القمح والشعير وغيرها من الحبوب، وتؤكد المصادر أن « الخليفة الفاطمي استعان بقمح المسيلة ونواحيها من إقليم الزاب في حربه على أبي يزيد الذي ثار عليه وهدد خلافته » [1]ويدل هذا على ازدهار الفلاحة بمنطقة المغرب الأوسط وتحقيق الاكتفاء الذاتي لأهل البلاد، كما كانت السهول الساحلية على كامل شريط البحر المتوسط تنتج كماّ هائلا من الحمضيات من برتقال وليمون، وكثيرا من الفواكه المختلفة، كما لحق بالزراعة اعتناء الفلاحين بتربية المواشي وخاصة الأغنام ويتحدث ابن خلدون عن مكاسب البربر بأنها «الشاة والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الإبل من المكاسب » [2].

وفي المجال الصناعي عرفت بلاد المغرب الإسلامي على عهد الخلافة الفاطمية مكانة صناعية مهمة وأهم المصنوعات التي ازدهرت بها المنسوجات الصوفية خاصة السجّاد العربي الذي يسمى الزربية، ويمتاز بالزخرفة الهندسية، وكذلك المنسوجات القطنية، حيث كانت تصنع الأقمشة وتطرز بالحرير، وتذكر المصادر أن المعز لدين الله الفاطمي أمر بصنع صورة للعالم من الحرير الأزرق مطرزة بالذهب مع سائر الألوان تحمل هذه الصورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها وبداخلها صورة الأماكن المقدسة مكة والمدينة [3] وقد يكون الهدف من هذا العمل الكبير هو اشتياق الخليفة للأماكن المقدسة التي كانت في ذلك الوقت تحت إدارة الخلافة العباسية وازدهرت أيضا في هذه الفترة الصناعات الخشبية، تلك التي تتعلق بالأبواب والنوافذ والشرفات والمحاريب واشتهرت كبريات مدن الخلافة بالصناعات المختلفة كصناعة الجلود والسروج و الأقمشة الملوكية وصناعة الحلي والمجوهرات وصناعة الزجاج والبلور واتخذت منها الأواني اللطيفة للفاطميين إلى جانب ذلك راجت صناعة ورق الكتابة[4] واعتنت الدولة الفاطمية بإنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة، كما طورت أساطيلها بغرض الدفاع عن حياض الخلافة من الأخطار الخارجية التي كانت تهددها من ناحية البحر، وأبرز هذه المعامل كان ببونة ومعمل المهدية، وراجت أيضا بين الناس المهن الحرة كالحدادة والنجارة والحياكة[5].

([1]) **محمد الطمار:** الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ص 109 .
([2]) **عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ ابن خلدون ، مج 6 ،ص 89 .
([3]) **ينظر: محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 158 .
([4]) **ينظر: رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ،ص 187 .
([5]) **المرجع نفسه** : ص 187 .

وكان الفاطميون يهتمون بالفنون، فاعتنوا بالزخرفة فيما شيدوا من المدن والبنايات الفخمة، ومن آثارهم المعمارية مدينة المسيلة الذي اختطها أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي سنة 315 هـ وسماها المحمدية كما تقدم ذلك في البحث، وأصبحت المسيلة هي عاصمة الزاب « وبلغت من الحضارة والعمران ما جعلها قبلة للزائرين وكعبة للعلم والأدب » [1] وبطبيعة الحال ينتج من النهضة الصناعية والزراعية نشاط تجاري واسع داخلي وخارجي ساعده على ذلك كثرة الإنتاج مع توفر الأمن والاستقرار الذي سهل الحركة وطور المواصلات، فكانت بالبلاد أسواق كبيرة موزعة على مختلف ولايات الخلافة قصدها التجار من جميع أقطار العالم .

وتقدمت البلاد اقتصاديا وعمّ رخاؤها، فقد بلغ ثمن بيع وقر جمل من التمر بدرهمين، وكانت القوافل تخترق الصحراء تحمل التمر في الغالب وتعود بسبائك الذهب وبالعبيد من بلاد السودان، «فقد كان شمال إفريقية في القرن الرابع مثل مصر وجنوب جزيرة العرب من أكبر أسواق الرقيق الأسود» [2] كما أن صناعة تجفيف السمك كانت رائجة أيضا مثل استخراج المرجان بمرسى الخزر و سبتة كما انتشرت خدمة القطن فكانت بذلك ثروة البلاد واسعة، وقد ذكر البكري «أن تجارة الزيت كانت رائجة منذ القدم مع الروم ثم توزع تصديره إلى مصر وصقلية» [3] كما صدرت الدولة الفاطمية التي كانت عاصمتها المهدية القمح إلى مصر خاصة عند حدوث المجاعة أثناء الفتح الفاطمي لمصر، كما توسعت التجارة الخارجية عبر الطرق التي تربط الدولة بالمناطق الصحراوية فتوطدت العلاقات التجارية مع بلاد السودان، حيث مالي وتشاد وغيرها ونشطت هذه الطرق برا وبحرا «وكانت بجاية مرفأ من مرافئ الأسطول للحط والإقلاع، مما أثر في اقتصاد البلاد ايجابيا فعمَّها الرخاء » [4] .

وأما من الناحية الاجتماعية فقد عرفت بلاد المغرب الإسلامي هزات عنيفة بدخول الفاطميين تركت أثرها في المجتمع بوضوح، وأهم ما يلاحظ في ذلك هو إشاعة تيارات فكرية مختلفة كالدعوة إلى التشيع وتثبيت فكرة المهدوية في النفوس، وعملت الدولة على تنظيم الدعايات الدينية والسياسية تنظيما دقيقا وأحدثت مناصب هامة في المجتمع كداعي الدعاة وأعوانه، وحاولت القضاء على المذهب السني لإحلال المذهب الشيعي الإسماعيلي مكانه، وكل هذا سنشير له في الحياة الفكرية والثقافية .

---

(1) **محمد الطمار:** الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ص 110 .
(2) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي:** تاريخ الجزائر العام ،ج1، ص306 .
(3) **البكـــري:** المغرب في ذكر بلاد المغرب ، ص32 .
(4) **محمد الطمار:** تاريخ الأدب الجزائري ، ص104 .

الحياة الفكرية والثقافية :

إن الحياة الفكرية والثقافية قد شهدت نموا وازدهارا في عهد الأغالبة، فعرفت معظم العلوم التي كانت موجودة آنذاك، وكانت القيروان حاضرة المغرب الإسلامي تعج بالعلماء في مختلف العلوم والفنون والآداب الذين تربوا فيها، والذين قدموا إليها في هجرات مختلفة من سائر بلاد المغرب ومن خارجه، وقصدها الطلاب من شتى أنحاء المغرب والأندلس و صقلية وغيرها من الجزر التي بسط المسلمون سيطرتهم عليها، فصارت القيروان مركزا علميا أصيلا .

واستمر هذا الازدهار خلال فترة حكم الفاطميين، وعرفت المنطقة دخول المذهب الشيعي، وعمل الحكام على حمل العلماء أن يأخذوا به ويطبقوه في حياتهم، خاصة في بداية الخلافة العبيدية، فكان لذلك الأثر الكبير في اضطهاد العلماء وبالخصوص فقهاء المالكية الذين عارضوا المذهب الدخيل بالحجة وردوه بالكتاب والسنة، ولم يتراجع المالكيون عن مذهبهم الذي كان مؤصلا في بلادهم، على الرغم من أن ذلك قد كلف بعضهم إلى أن يلقى ربه شهيدا على أيدي الشيعة أصحاب الأمر بالبلاد، لكن هذه الحوادث لم تمنع من تطور الحياة الفكرية والثقافية في شتى الميادين .

فالدولة الفاطمية لما بسطت سيطرتها على بلاد المغرب سعت في توطيد ملكها وذلك بترسيخ دعوتها الشيعية الإسماعيلية بأساليب القوة حينا، وطورا بالحكمة، بهدف إزالة سيادة المذهب السني الذي كان يأخذ به غالبية الشعب، منذ أن أنعم الله وأكرمه بالإسلام الذي اختاره أهل المغرب عن قناعة من بين الأديان التي تعاقبت عليه لفترات عديدة .

ودعاة الفاطمية منذ مجيئهم من المشرق عندما ضاقت بهم أرضه ولم يجدوا بديلا لذلك سوى أرض المغرب باعتبارها أرض خصبة لزرع بذورهم، ونجحوا في ذلك، فوجدت دعوتهم آذانا صاغية في الأوساط الشعبية، وقد كانوا أذكياء في تمرير دعوتهم لما أصبغوا عليها من مظاهر الإيمان ومبادئ العدل والتسامح التي في مجملها كانت إخفاء للنوايا الحقيقية التي تنطوي على أهداف سياسية بغية السيطرة على مقاليد الملك بالمغرب الإسلامي، قد حمل هؤلاء الدعاة عقائد غريبة عن المجتمع المغربي السني المذهب، الذي ما كان يألفها من قبل، كتقديس الأئمة، والمبالغة في حب آل البيت، وفكرة المهدي المنتظر، فكان من الطبيعي أن يجد مذهبهم الإعراض الشديد في كل ربوع المغرب رغم أنهم مهدوا لهذا طويلا ونالوا ود أتباع من قبيلة كتامة وما تمثله من قوة وبأس في المغرب الأوسط والتي حملت دعوتهم على أكتافها، وصدت خصومها بسيوفها

ولعل أكبر دليل على عدم تقبل أهل المغرب لمثل هذه العقائد أنه ما إن انتقل خلفاء الدولة الفاطمية إلى مصر، حتى تهاوت معتقداتهم على يد بني زيري ورجعت الأمور إلى أصلها بفضل صمود العلماء، وعامة الناس، ودفاعهم عن معتقداتهم الأصيلة، وساد المذهب السني من جديد، وبرغبة شديدة، وهذا مآل

الأفكار التي سرعان ما تضمحل وتزول قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾[1] .

المذهب الشيعي :

وصلت الأفكار الشيعية إلى القيروان في أواخر دولة الاغالبة حتى أن «وزراء زيادة الله بن الأغلب آخر أمراء الأغالبة كانوا لا يبالون إلا بنجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم »[2] والمذهب الشيعي هو الأساس الذي يرتكز عليه الفكر الفاطمي، وهو مركز الحياة الثقافية التي سادت منذ ظهورهم على الساحة المغاربية فمن هم الشيعة ؟ وما هي عقيدتهم ؟ .

الشيعة من حيث مدلولها اللغوي تعني القوم والصحب والأتباع والأعوان، وقد ورد هذا المعنى في بعض آيات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[4] فلفظ الشيعة في الآية الأولى يعني القوم وفي الثانية يعني الأتباع، وأما من حيث الاصطلاح فيقول ابن خلدون: «أطلقت على جماعة اعتقدوا أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي ترجع إلى نظر الأمة، بل إنها ركن من أركان الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة بل يجب عليه أن يعلن الإمام للأمة »[5] ويرى الشهرستاني أن الشيعة «هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته، نصا ووصية، إما جليا أو خفيا»[6].

والشيعة لقب اصطلاحي خاص بإحدى الفرق الإسلامية التي ترتكز في دعوتها السياسية والاجتماعية والدينية على تفضيل آل البيت وخاصة منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالوا : «أنه الوصي على الخلافة، وإنها مستمرة في عقبه إلى النهاية، وأن الخلفاء من سلفه معصومون...» [7] .

والشيعة فرق متعددة اختلفت مذاهبها وتباينت مشاربها، فبعضها جنح إلى الغلو والضلال، وبعضها الآخر التزم الاعتدال، وفرقة الزيدية التي ينتهي نسبها إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسن بن علي هي أكثر الفرق تسامحا من غيرها في الإمامة وفي الابتعاد عن سب الشيخين أبي بكر و عمر رضي الله عنهما، ويقولون بصحة خلافتهما، وإن كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل منهم، ومن أشهر فرق الشيعة الإمامية و الزيدية ولكل منهما طوائف وفروع منها المذهب الإسماعيلي الذي تفرع عن الإمامية، وهو الذي تسرب إلى شمال إفريقيا .

---

(1) **سورة الرعد** : الآية 17 .
(2) **محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 360 .
(3) **سورة القصص** : الآية 15 .
(4) **سورة الصافات** : الآية 83 .
(5) **عبد الرحمن بن خلدون** : المقدمة ، ص 196،197 .
(6) **أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني** : الملل والنحل ، ص118 .
(7) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي** : تاريخ الجزائر العام ، ج1، ص 282.

عقيدة الشيعة الإسماعيلية :

لقد عرف مذهب العبيديين بالمذهب الإسماعيلي وهو مذهب شيعي خرج عن الشيعة الاثنا عشرية «فبعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين : الأولى ساقت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم، والثانية نفت عنه الإمامة وقالت : إن الإمام بعد جعفر هو ابنه إسماعيل، وهذه الفرقة عُرفت بالشيعة الإسماعيلية» [1] .

فالإمامة إذن انتقلت بعد جعفر الصادق وهو الإمام السادس إلى إسماعيل ابنه لا إلى موسى الكاظم ومن أجل ذلك جاءت تسميتهم بالإسماعيلية، وبعد إسماعيل أتت أئمة مستورة لأن الإمام عندهم يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له قوة على الظهور على أعدائه ويكتفي بأن يظهر دعاته فقط، وظل هؤلاء يتداولون الإمامة في ستر وخفاء إلى أن جاء عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية فأظهر الدعوة لما أحس بالقوة وتُسمى هذه الفرقة كذلك بالباطنية لأنهم يقولون: بالإمام الباطن أي المستور، وقال بعضهم: إنما سموا الباطنية لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا [2] .

وتعتقد الإسماعيلية بالوحدانية، فيشهدون أن: لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وفي نفس الوقت يقولون: بأن لكل ظاهر باطنا، وأن لكل تنزيل تأويلا باطنا لا يعلمه إلا الخاصة منهم، وهي من شروط الإيمان ومن عقائدهم أنهم «ينكرون صفات الله أو يكادون، ويعللون ذلك أن الله فوق متناول العقل » [3].

ويعتقدون في وجود الإمام، ويؤمنون بعصمته عن الخطأ، ويبايعونه على الطاعة فيما يأمر به وينهى فالإمام عندهم هو الذي يدافع عن دين الله، ويبطش بأعدائه .

([1]) **د/ علي محمد الصلابي:** الدولة الفاطمية ، مؤسسة إقرأ، القاهرة، ط1 ،2006 ، ص 36 .

([2]) **ينظر: عبد الرحمن بن خلدون** : المقدمة ،ص164 ،**و الشهرستاني** : الملل والنحل ، ص146 ،**وأحمد أمين:** ضحى الإسلام، ج3، مكتبة النهضة المصرية ،مصر ،ط7،د ت، ص213 **ود/علي محمد الصلابي** :الدولة الفاطمية ،ص37 .

([3]) **د/مصطفى الشكعة** : المطالعات الإسلامية في العقيدة والفكر، ص 237 .

وأسماء الله تعالى الحسنى التي ينسبها الله تعالى لنفسه في القرآن الكريم لا تقال لله تعالى، وإنما تطلق عندهم على ما يعرف عند قدماء الفلاسفة بالعقل الكلي المتصف بصفة الكمال «وقد أطلقوا على العقل الكلي اسم (المبدع الأول)، وهو عندهم الواحد، القهار، الجبار، العزيز...وأنه هو الذي خلق (المبدع الثاني)، وهو عندهم النفس الإنسانية ويطلقون عليها (النفس الكلية) »[1]ويجعلون لها جميع الصفات التي يختص بها العقل الكلي إلا أن هذا العقل الكلي كان أسبق منها في الوجود، وإلى توحيد الله وتنزيهه، وبواسطة العقل الكلي وجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية، ويفهم من هنا أن أي مخلوق في هذا الكون يرجع إلى العقل الكلي .

والإمام عند الإسماعيلية يتميز بصفات هي الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنتقم الجبار، ولما كان هذا اعتقادهم ظهر ذلك جليا عند مفكريهم وأدبائهم فلا عجب أن يقول ابن هاني الأندلسي، وهو يمدح المعز لدين الله الفاطمي .

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءتِ الأقْـدارُ   فاحْكُم، فأنت الواحدُ القهَّـارُ [2]

وهم أيضا يرون أن كل الأسماء والصفات التي تأتي من العقل الكلي هي أيضا صفات وأسماء للإمام، وتجلى ذلك في شعر ابن هاني الأندلسي .

وكأنَّمَا أنْت النَّبِـيُّ مُحمـدٌ   وكأنَّما أنْصارُكَ الأنصَـارُ
هذا الذِّي تُجدِي شَفَا عتُهُ غـدا   حقا وتَخْمُدُ أن تـراه النَّـارُ [3]

والشعر الذي قيل في الأئمة الإسماعيلية قد كشف عن جانب كبير من العقيدة الإسماعيلية، فهذا الشاعر محمد البديل يمدح عبيد الله المهدي لما دخل "رقادة "فيقول:

حَلَّ برَقَـادة المسيـحُ   حـلَّ بهـا آدمُ ونُـوحُ
حلَّ بـها أحمدُ المُصطفَـى   حلَّ بها الكَبْـشُ والذَّبيـحُ
حلَّ بهـا اللهُ ذُو المعالِـي   وكلُّ شَـيءٍ سِـوَاهُ ريـحُ[4]

ونجمل بعض أفكار معتقدات الإسماعيلية فيما يلي :

- ضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل .
- العصمة لديهم ليست في عدم ارتكاب المعاصي والأخطاء، بل إنهم يؤولون المعاصي بما يناسب معتقداتهم.
- من مات ولم يعرف إمام زمانه، مات ميتة الجاهلية .
- يضفون على الإمام صفات ترفعه إلى ما يشبه الإله .

---

(1) **ابن حماد الصنهاجي** : تاريخ ملوك بني عبيد وسيرتهم ، ص 109 .
(2) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 101.
(3) **المصدر نفسه:** ص 101.
(4) **د/مصطفى الشكعة** : المطالعات الإسلامية في العقيدة والفكر ، ص 243 .

– يؤمنون بالتقية، والسرية يطبقونها عندما تشتد عليهم الأحداث .

وإذا ابتعدنا قليلا عن المذهبية الفكرية، واتجهنا إلى الجانب الثقافي، وجدنا أن خلفاء بني عبيد كانوا أهل علم وثقافة، وكان لهم اهتمام كبير برجال الأدب، والشعر، والفقه، حتى أنهم يستدعون الشعراء والأدباء إلى بلاطهم في المناسبات المختلفة، فنجد الخليفة القائم بأمر الله يؤثِّر في نفوس سامعيه ببلاغته وفصاحته، وكان الخليفة المنصور أيضا فصيحا بليغا، حاضر البديهة، وأما المعز لدين الله فهو أعظمهم دراية بالأدب واللغات، ومن الطبيعي أن نجد خلفاء بني عبيد على هذا القدر من الثقافة والإلمام بالعلوم، لأنهم أصحاب دعوة ومذهب يريدون نشره بين جميع طبقات الشعب، فكانوا مولعين بالكتب والاعتناء بها، وورث الفاطميون بيت الحكمة التي أسسها الأغالبة، وأضافوا لها الكتب المؤلفة التي تخدم مذهبهم، أو مما أهدي إليهم .

وعند انتقالهم إلى القاهرة، نقلوا الكتب الثمينة حتى كانت مكتبتهم أيام العزيز الفاطمي تحتوي على نحو مليون كتاب من الفقه والنحو والحديث، والتاريخ وسائر العلوم القديمة، وقد كان للمعز في المنصورية مكتبة زاخرة بالكتب، وقيل أن المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتابا فلم يحضره على الفور «فقام المعز وبحث عنه ثم قرأه، وصرف معظم الليل في القراءة وهو واقف على قدميه، وهو يقول: والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلم و الحكمة » [1] .

المراكز الثقافية : ولكي تكتمل الصورة عن الحياة الثقافية خلال الحكم الفاطمي رأينا أن نذكر أهم المراكز الثقافية التي ساهمت في الإشعاع الفكري والثقافي بين ربوع المغرب الإسلامي، ومن أهمّها :

المهديـــــــة :أنشاها الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، و ذلك في مطلع القرن الرابع الهجري حوالي سنة 300هـ واختار بنفسه مكانها يمتاز بالحصانة والمنعة، نظرا لشكوك في نفسه بشق عصا الطاعة في وجهه عندما قتل داعيته أبا عبد الله الشيعي، وفي هذا قال البكري: «وكان سبب بنيان عبيد الله للمهدية قيام أبي عبد الله وجماعة كتامة عليه وما حاولوه من خلعه »[2] .

---

(1) **محمد محمد زيتون** :القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص 414 .
(2) **البكـــري** : المغرب في تاريخ المغرب ، ص30 .

ولذا خشي البقاء في القيروان لكثرة العناصر التي تتربص به الدوائر، ولما أتم بناءها قال: «لقد بنيتها للفواطم ليعتصموا بها ولو ساعة من نهار، اليوم أمنت على الفاطميات »[1] ولم تلبث هذه المدينة حتى أصبحت قاعدة من قواعد النشاط الأدبي والفكري، فأخرجت طائفة من الأدباء و الشعراء ذكر بعضهم ابن رشيق من أهل القرن التالي في أنموذجه كما «خصهم ابن رشيق في كتاب سماه الروضة الموشية في شعراء المهدية »[2] .

المحمدية (المسيلة) :

«وهي ترتبط بالقيروان بروابط عرقية وفكرية وثيقة رغم موقعها البعيد عنها، وكانت المسيلة قاعدة بلاد الزاب، استقر بها العديد من العناصر العربية منذ وقت مبكر »[3] ويعود تأسيس المسيلة كما يرى ابن عذارى إلى سنة 315 هـ وذلك حينما توجه أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي على رأس حملة عسكرية لإخماد ثورة بالمغرب الأقصى، وأثناء رجوعه أمر بإنشائها حيث خط برمحه في الأرض صفة بنائها وهو راكب على فرسه وسماها المحمدية نسبة إليه [4] .

وإذا اختلفت الآراء حول تاريخ إنشاء مدينة المسيلة، فقد اتفقت على أن الذي بناها هو علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسية الذي خرج مع ابن المهدي في حملته العسكرية إلى المغرب وعند الرجوع كلفه ببنائها، ولما انتهت الأشغال بها جعله واليا عليها، فبقي على أمرها وفيا مخلصا للعبيديين إلى أن هلك في ثورة صاحب الحمار سنة 334 هـ فتولاها ابنه جعفر، وكان الهدف من بنائها أن تكون سدا منيعا في وجه قبيلة زناتة المناوئة للفاطميين، وتم اختيار مكانها لسببين هامين موقعها الجغرافي المهم وخصوبة أرضها، وأصبحت فيما بعد عاصمة لإقليم الزاب، بعدما كانت في طبنة، وبذلك أصبحت تمثل العاصمة السياسية والإدارية والمركز الحضاري للمنطقة الممتدة ما بين باغاية * شرقا وتيهرت غربا، وعرفت ازدهارا في كل الميادين وقصدها العلماء والأدباء والشعراء، وربما يعود الفضل في ذلك إلى واليها علي بن حمدون الذي كان ينشط الحركة الثقافية ويقرب إليه العلماء والأدباء إلى أن توفي فخلفه ابنه جعفر «وقد غرس فيه أبوه حب الثقافة والاعتناء بأهلها »[5] .

وقصده العلماء والشعراء، ومن أهمهم الشاعر ابن هانئ الأندلسي الذي وفد إلى المغرب الأوسط قادما من اشبيلية واستقر به المقام بالمسيلة عند أسرة جعفر بن علي بن حمدون وأخيه يحيى وابنه إبراهيم، ووجد

([1]) **المقريزي** : اتعاظ الحنفا ، ج1 ، ص 27 .

([2]) **د/محمد طه الحاجري**:مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، دار النهضة العربي، بيروت ، ط 1، 1983، ص13.

([3]) **الشاذلي بو يحيى**:الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري،مج2، نقله إلى العربية محمد العربي عبدالرزاق،دط،دت،ص459.

([4]) **ينظر** : **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ، ج1،ص190 ، **وابن حماد الصنهاجي** : تاريخ ملوك بني عبيد وسيرتهم ص30 **و مبارك بن محمد الميلي** : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ،ص129 .

* مدينة تقع بين مسكيانة وتمقاد الروماني بالشرق الجزائري .

([5]) **محمد الطمار** : الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ،ص110 .

عند هذه الأسرة ما لم يجده عند ولاة اشبيلية، فعاش مكرما منعما، وأكثر من مدح هذه الأسرة،قال يمدح جعفر بن علي:

ألاَ أيُّهَا الوادِي المُقدَّسُ بالطَّوى وأهلَ النَّدى قَلبي إليك مَشُوقُ
ويا أيُّها القَصْرُ المُنِيفُ قِبَابُهُ على الزَّاب لا يُسْدَدْ إليكَ طريقُ
ويا مَلِكَ الزَّابِ الرَّفِيع عِمَادُهُ بَقِيتَ لِجَمع المَجد و هي فَريقُ [1]

وقال :

خُلِقْتَ شِهَابًا يُضيءُ الخُطوبَ ولسْتَ شِهابًا يُضِيءُ الظُّلَمْ [2]
وأنَّك من مَعْشَرٍ، طِفْلُهم يُتَوَّجُ ، قَبْل بُلوغ الحُلُمْ [3]

واطمأن ابن هانئ وظل ينعم في كنف هذه الأسرة، ولا يخاف شر الحاجة ولا غائلة الأحداث فتفرغ لفنّه وشعره وأستطيب الحياة في ذلك الإقليم الذي عشقه كثيرا، وظل يمدح هذه الأسرة الكريمة التي اصطفته على غيره بصدق إلى أن التحق ببلاد المعز لدين الله الفاطمي، وقلبه معلق بالمسيلة، وصدق لما قال :

خليليَّ أين الزَّابُ عنَّا وجعفرُ وجنَّةُ خلدٍ بِنْتُ عَنْها وكوثَرُ [4]

وبهذا الازدهار الثقافي ساهمت حاضرة المسيلة في إنعاش مختلف وسائل الحضارة بالمغرب الأوسط خلال هذا العهد، وشهد بذلك شاعرها ابن هانئ حين قال :

ورأيتُ حَولي وفْدَ كلِّ قبيلةٍ حتَّى تَوهَّمْتُ العراقَ الزَّابَا [5]

وبقيت تتمتع بمكانتها بين مختلف الحواضر أمدا طويلا.

([1]) **ابن هانئ الأندلسي** :الديوان ،ص 480.
([2]) **المصدر نفسه:** ص 311.
([3]) **المصدر نفسه:** ص 315.
([4]) **المصدر نفسه:** ص 475.
([5]) **المصدر نفسه:** ص 235.

المنصـــــورية (صبرة):

إذا كان عبيد الله المهدي أنشأ المهدية، والقائم بأمر الله أنشأ المسيلة، فالخليفة الثالث المنصور قد بنى كذلك مدينة جنوب غرب مدينة القيروان على بعد نصف ميل، وسماها المنصورية نسبة إليه، كما أطلق عليها اسم "صبرة " وهو الأشهر حسب رأي ابن حماد[1] وعمد المنصور إلى إنشائها في المكان الذي صبر فيه جيشه عند المعارك التي خاضها ضد صاحب الحمار .

وانتصر عليه لذا أطلق عليها اسم "صبرة "، وذلك لصبر وثبات جيشه في ساحة القتال، وقد يكون بناؤها رمزا لتخليد الانتصار ضد أخطر ثورة واجهها الفاطميون «وبدأ في بنائها سنة 336 هـ وانتقل إليها سنة 337 هـ »[2] وأصبحت هي العاصمة السياسية والإدارية ومركزا للتجارة والصناعة، وظلت بنفس المكانة في عهد المعز الذي زاد في ترقيتها عمرانيا، وصفها البكري فقال: «ومدينة صبرة متصلة بالقيروان...وهي منزل الولاة إلى حين خرابها، ولها خمسة أبواب...»[3]

وبصبـرة قصور فخمة تحيط بها بساتين تتخللها فوارات وبرك تشد الناظرين بذوقها الفني الجميل «وكانت هذه القصور و ما يقام فيها من احتفالات ومواكب مناسبات توحي بالقصائد إلى الشعراء الذين كانوا يدورون في فلك أولياء نعمتهم، فيعيشون في كل من القيروان وصبرة، متنقلين باستمرار بين هذه وتلك »[4] ورغم قلة المصادر فمن الثابت أن قسما من النشاط الأدبي وخاصة ما كان يتصل بالبلاط، من مدائح و مراث ووصف للمواكب ومساجلات كان يثيرها المعز بين شعرائه .

([1]) **ينظر : ابن حماد الصنهاجي** : تاريخ ملوك بني عبيد وسيرتهم ، ص 34 .
([2]) **ابن عذارى** : البيان المغرب ،ج1،ص219 .
([3]) **البكري** : المغرب في ذكر بلاد المغرب ،ص24 .
([4]) **الشاذلي بويحيى** : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ،مج 2 ،ص ،456 .

الدولـــــــة الصنهاجية (الزيرية)
الحياة السياسية :

شهد المغرب الإسلامي قيام الدولة الصنهاجية بعد الدولة الرستمية والدولة الأغلبية والفاطمية، ولما كان المغرب الإسلامي يمثل حجر الزاوية لدى رجال النظام الفاطمي في المحافظة على نفوذهم في منطقة البحر الأبيض المتوسط، فإن المعز لدين الله آخر خلفاء العبيديين بالمغرب الإسلامي قد فكر طويلا لمّا عزم على الرحيل إلى مصر في الشخصية التي يستخلفها على المغرب، فلم يجد أفضل من بلكين بن زيري بن مناد الذي برهن على مقدرته السياسية، وإخلاصه التام للفاطميين، ومن هذا انحدرت فكرة تأسيس الدولة الصنهاجية، فهي تنسب إلى زعيم صنهاجة زيري بن مناد الذي عُرف بالشجاعة وعلوّ الهمة، فهو من يرجع إليه الفضل في القضاء على بعض خصوم الدولة الفاطمية من قبيلة زناتة، وباسمه كذلك سميت الدولة الزيرية .

وأما اسم الدولة الصنهاجية فيعود إلى قبيلة صنهاجة التي تعتبر عَلَمًا يطلق على وطن وقبيلة، فالوطن هو قطعة من أرض المغرب الأوسط «ما بين زواوة شرقا و زناتة* غربا، وتمتد على الساحل البحري من مدينة الجزائر إلى تنس، يحده وطن الحضنة والمسيلة والمدية ومليانة »[1] وأما القبيلة فيرجع أصلها عند ابن خلدون الذي يرى «أنه من ولد صنهاج من بطون البرانس من ولد برنس بن بر »[2] وهذه القبيلة هي من أكبر قبائل البربر وهي ذات بطون وأفخاذ منتشرة بكامل الشمال الإفريقي، هذا عن تسمية الدولة الصنهاجية ونسبها، فكيف نشأت ؟ ومن هم أمراؤها الذين خلدوا عزها ؟ .

إذا كانت قبيلة كتامة هي التي ساهمت في نصرة أبي عبد الله الشيعي في توطيد أركان الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، والقضاء على الدول التي قامت به من الرستميين والأغالبة والأدارسة، فإن قبيلة صنهاجة كان لها الدور الكبير في القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، ومن ذلك بدأ ميل خلفاء الدولة العبيدية إلى قبيلة صنهاجة لما لمسوا فيها من ولاء وإخلاص، فأسندوا إليها الأمور المهمة في الدولة وارتفع نجم الصنهاجيين في زمن عائلة بني زيري وأفل نجم قبيلة كتامة «التي بدأت تستنزف قواها بسبب الحروب الكثيرة التي خاضتها »[3] ولما عزم لقبيلة صنهاجة بدل من قبيلة كتامة، ذلك لأن صنهاجة هي الأقدر على مواجهة زناتة، ولأن رئيسها بلكين بن زيري نال إعجاب الفاطميين بإخلاصه، وحسن تدبيره [4] .

---

* قبيلة بربرية عريقة تسكن على الأخص بالمغرب الأوسط ومنها بطون ، مغراوة وجراوة وبنو يفرن .

([1]) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي** : تاريخ الجزائر العام ، ص 320 .

([2]) **عبد الرحمن بن خلـــــــدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج 6 ، ص179 .

([3]) **عبد العزيز فيلالي** :العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، ص 191 .

([4]) **ينظر : محمد بن عميـرة** : دور زناتة في الحركة المذهبية ، ص 243،244.

فمن ذلك الوقت غادر بنو زيري عاصمتهم القبلية أشير التي كانوا يقيمون بها وتوجهوا إلى القيروان حيث صبرة المنصورية مقر إقامة الفاطميين سابقا، وتولى الأمير الصنهاجي بلكين بن زيري حكم إفريقية والمغرب، وعندها « انتقلت السلطة رسميا من العنصر العربي إلى العنصر البربري » (1) ودامت الدولة الصنهاجية نحو 180 سنة، حيث امتد حكمها من سنة 362هـ إلى سنة 543 هـ تعاقب على إدارتها عدة حكـــــــام وتخلل عهدها كثيرا من الأحداث، وسنورد من توالى على حكمها، وأهم أحداثها بإيجاز .

أمــــــراء الصنهاجيين :

أول أمرائهم بلكين بن زيري، الذي يُوصَف بأنه شجاع مقدام حازم، بعيد النظر، محب للعمران، ومن مآثره العمرانية في حياته أنه اختط مدينتين في المغرب الأوسط هما جزائر بني مزغنة بأمر من أبيه، ومدينة مليانة (2) وكان أبوه من قبل ذلك هو من اختط مدينة أشير سنة 324 هـ في العهد الفاطمي، واتخذها عاصمة له ولقبيلته، وربما هذا ما يبين ميلهم وحبهم للعمران .

وخاض بلكين بن زيري حروبا عنيفة في عهده، فأخضع بلاد المغرب الأوسط كلها وسيطر على سجلماسة وقضى على ثورة أهل تيهرت، وأخضع جموع زناتة في تلمسان، وقد يعود حزمه هذا في بسط سيطرته إلى تطبيق وصية المعز لدين الله الفاطمي عند ارتحاله إلى القاهرة، فتذكر المصادر أنه لما عهد إليه بحكم البلاد نيابة عنه وأسماه يوسف بدلا من بلكين وكناه أبا الفتوح، ولقبه بسيف الدولة، وأوصاه بثلاث «أن لا يرفع السيف عن البربر، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحدا من أهل بيته »(3) وعهد إليه كذلك بأن يحافظ على السيطرة الفاطمية ونفوذها، وأن لا يسمح بامتداد نفوذ الأمويين، وظل كذلك إلى أن توفي سنة 373 هـ .

وخلفه ابنه المنصور بن بلكين الذي تولى إمارة المغرب الإسلامي بعد وفاة أبيه، وكان عاملا على أشير وصاحب عهد أبيه، فلقد كان على دراية بتسيير الأمور، وناضجا سياسيا على طريقة أبيه، وذكر ابن خلدون أنه «كان واليا على أشير، وصاحب عهد أبيه، فقام بأمر صنهاجة من بعده وقلده العزيز نزار بن معد أمر إفريقية والمغرب على سنن أبيه »(4) كان يحمل صفات الجود والصرامة والعزم التي جعلت منه قائدا سياسيا بارعا، وتشير المصادر إلى أنه أول من بدأ يعمل على استقلال المغرب عن الخلفاء الفاطميين .

ويظهر ذلك من خلا ل التصريح الذي ألقاه أمام الوفد القيرواني الذي هنأه بالولاية عندما قال: «إن أبي يوسف وجدي زيري، كانا يأخذان بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يولى ويعزل بكتاب

(1) **رابح بونار**: المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص188،189 .

(2) **ينظر:عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون، مج 6 ،ص181 ، **ورابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ،ص189

(3) **د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقي** :تاريخ المغرب والأندلس ، ص 184 .

(4) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، مج 6،ص 185 .

لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير »[1] فيفهم من عبارة "ولست ممن يولى ويعزل بكتاب " على أنه تصريح باستقلال المغرب عن الخلفاء الفاطميين، وفي الحياة السياسية واصل حربه على زناتة كما فعل أبوه، فأرسل جيشا سنة 374هـ إلى المغرب الأقصى لاستعادة هذه البلاد من أيدي زناتة الذين استولوا على سجلماسة وفاس، وكانت له علاقات بالفاطميين تمثلت في تبادل الهدايا، فيذكر أنه «جهز هدية للخليفة بمصر، فأتاه من قبله سجل وهدية بها فيلة وزرافات»[2] ودام في الحكم حتى توفي سنة386 هـ وتولى الإمارة من بعده ابنه باديس بن المنصور المكنى أبو مناد باديس فترسم خطى من سبقه في إعلان الولاء للفاطميين، «وجاءه التقليد الفاطمي، واحتفل به سنة 387 هـ احتفالا عظيما»[3] تفرغ بعد ذلك لتدعيم إمارته وفي عصره ثارت عليه قبيلة زناتة بالمغرب الأوسط واضطربت البلاد، وساءت أحوالها الاقتصادية لكن الأمير الصنهاجي باديس بن المنصور سير إليها جيشا كثيفا مع عمه حماد بن بلكين سنة 388 هـ واستطاع حماد بخبرته العسكرية القضاء على الثائرين، وعندما استتب الأمن أنشأ حماد هناك مدينة القلعة الحصينة التي نسبت إليه، وأصبحت تسمى باسمه قلعة بني حماد [4] لكن حماد شق عصا الطاعة على ابن أخيه باديس واستقل بما تحت يده من البلاد، فسار إليه باديس بعد ما تيقن من سوء تدبيره، فكاتبه بأن يرفع يده عن الأراضي التي استقل بها، فامتنع حماد عن ذلك و ساءت العلاقة بينهما، مما أدى ذلك إلى حروب بينهما كاد أن ينتصر فيها باديس لولا أن اختطفته المنية بمدينة المحمدية سنة 406 هـ، وانفرد حماد بما له من المغرب الأوسط [5] وبانفراد حماد بن بلكين بالقلعة سنة 406 هـ « انقسمت الدولة الصنهاجية إلى إمارة شرقية وعاصمتها القيروان، وغربية وقاعدتها قلعة بني حماد ثم بجاية »[6] .

لما مات باديس بن المنصور كان ابنه المعز صغير السن تحت كفالة عمته" أم ملال " واتفقت خاصة القوم على بيعته رغم صغر سنه وعجزه عن تكاليف الإمارة لما رأوا فيه من فطنة ونجابة.

([1]) **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ، ج1، ص 240 .
([2]) **رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ،ص190.
([3]) **المرجع نفسه** : ص190 .
([4]) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ بن خلدون ،مج6 ،ص 186 .
([5]) **ينظر:عبد الرحمن بن محمد الجيلالي**: تاريخ الجزائر ،ج1، ص 336 **ورابح بونار**:المغرب العربي تاريخه وثقافته ص191.
([6]) **د/ أحمد يزن**:النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ،مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرباط ،المغرب،ص 18 .

وصفه ابن عذارى في بيانه قائلا: «كان المعز بن باديس صغيرا لما ولي وهو ابن ثمانية أعوام وقيل سبعة أعوام، وتربى في حجر وزيـــــره أبي الحسن ابن أبي الرجال وكان ورعا زاهدا، وكانت إفريقيا كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة »[1] ولما كبر وأمسك زمام الدولة بنفسه قام بدور فعال في حياة الدولة الصنهاجية على الصعيدين السياسي والفكري، وفي هذا الوقت كان حماد بن بلكين قد بسط أيديه على أشير والمسيلة، وحاصر باغاية من المغرب الأوسط «ولكن المعز لم يقبل انفصال جزء من دولته، فسار إلى القلعة وحاصر حماد سنة 432 هـ عدة سنين »[2] ثم أقلع عنها وعاد إلى بلاده، واستمر ملكه بإفريقية والقيروان، وكان أضخم ملك عرفه البربر بإفريقية، وبلغت الدولة الصنهاجية في عهده وخاصة السنين الأولى أوج ازدهارها، وعظمت ثرواتها وزاد دخلها، وقهر زناتة في معظم المعارك، ولمهابته تقربت له الملوك بالهدايا والتّحف ابتغاء مهادنته، من ذلك هدية أتته من مصر، وجاءته وفود من الروم سنة 426 هـ تحمل الهدايا وقبلها المعز بقصره في صبرة، وردها بما يناسب ذلك [3] .

وفي حدود سنة 435 هـ تغيرت سياسته، فناصر أهل السنة وتنكر للمذهب الشيعي الذي كان قد نشره العبيديون منذ استيلائهم على المغرب، وقد يرجع هذا الانقلاب الفكري إلى التربية التي نشأ عليها، فهو الذي أخذ قسطا وافرا من الأدب على يد ابن أبي الرجال « الذي أدَّبه على مذهب مالك»[4] ويرى ابن خلدون أنه« أعلن بمذهبه لأول ولايته، ولعن الرافضة ثم صار إلى قتل من وجد منهم، وتذكر المصادر أنه كبا فرسه ذات يوم فنادى مستغيثا باسمي أبي بكر وعمر _رضي الله عنهما_فسمعته العامة فثاروا لحينهم بالشيعة وقتلوهم أبرح قتل»[5] واندلعت ثورة قوية ضدهم كرد فعل لما عاناه أهل السنة من قبل على أيدي الشيعة، وتحول المعز بن باديس من الدعوة للفاطميين إلى الدعوة للعباسيين حيث كاتب القائم العباسي رسميا سنة 439 هـ أو سنة 440 هـ على رأي ابن عذارى الذي يقول: «وقطعت الخطبة لصاحب مصر وأحرقت بنوده، وأمر المعز بن باديس أن يدعى على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب، وتقطع دعوة الشيعة العبيديين، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعباس»[6] وقد غضب الفاطميون لذلك وأرسلوا إليه يتوعدونه لكنه أصر على خلع طاعتهم، وأمر بتبديل السكة عن أسماء بني عبيد ومنع التصرف بمال عليه أسماؤهم .

([1]) **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ، ج1 ، ص273 .
([2]) **د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقي** :تاريخ المغرب والأندلس ، ص 185 .
([3]) **ينظر:أبو علي الحسن بن رشيق** :العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت،لبنان،ط5، 1981،ص09و**عبدالرحمن بن خلدون**:تاريخ ابن خلدون،مج6،ص187 .
ورابح بونار المغرب العربي تاريخه وثقافته،ص191.
([4]) **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ، ج1، ص 273 .
([5]) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ،مج6 ،ص 187 .
([6]) **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ، ج1 ، ص277.

ذلك ما أدى بالخليفة الفاطمي بمصر أن يتأثر كثيرا لهذا الحادث الخطير المتمثل في الانقلاب الديني والسياسي الذي وقع بالمغرب الإسلامي «فعظم عليه خروج المغرب عن طاعة الفاطميين، وانقراض دعوة الشيعة به فكتب المستنصر بالله العبيدي إلى المعزبن باديس يهدده»[1] وأرسل رسوله إليه فرد عليه المعز بن باديس بقوله « قل لصاحبك إنا لنا ملك إفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر »[2] وازدادت العلاقة سوءا بينهما، وانقطعت السبل ففكر الفاطميون في الانتقام من الأمير الصنهاجي، فدبر الوزير اليازوري مكيدة ينتقم بها من سكان إفريقية وأميرها، فأشار على الخليفة بتسريح أعراب الصعيد من بني هلال وبني سليم وزغبة للنزوح على المغرب انتقاما للمعز بن باديس وإفسادا لأرضه .

نزوح بني هلال إلى المغرب :

بعد التغيير الجذري في تاريخ ومصير الشمال الإفريقي جراء ما قام به المعز بن باديس بقطع دعوة الفاطميين بالمغرب، وعدم الاعتراف بسلطتهم، وأكثر من ذلك إعلان ولائه للعباسيين وتخليه عن المذهب الشيعي والعودة إلى مذهب أهل السنة مذهب الإمام مالك بن أنس _ﷺ_ فقد ابتهج أهل إفريقية والمغرب بخطوة أميرهم لأنهم كانوا يحبون المذهب المالكي ولا يرضون عنه بديلا، ودافعوا عن هذا بأعز ما يملكون في العهد الفاطمي عندما فرض عليهم المذهب الشيعي _كما تناول البحث آنفا _ لكن الخليفة الفاطمي بالقاهرة غضب من تمرد المعز عليه وتفتق ذهن وزيره اليازوري عن فكرة غريبة لتأديب المعز، والانتقام منه، ولما عرضها على الخليفة الفاطمي رحب بها.

ورأى الوزير أن إقطاع إفريقية والمغرب لبني هلال وبني سليم هو في مصلحة الدولة الفاطمية، ففي حالة انتصار المعز بن باديس على هذه القبائل البدوية فهو تخليص مصر منهم لأنهم كانوا لا يعرفون للنظام سبيلا، ولا أحد كان بمعزل عن عدوانهم، وإذا تمكن الأعراب من الانتصار على الصنهاجيين فقد انتقموا لشرف الخلافة الفاطمية وأقنع الوزير الخليفة الفاطمي بذلك ولم يخف الوزير عن القبائل هذه الخطة فقد قال لهم: « فقد سرحتكم لجواز النيل وأعطيتكم ما يملكه ابن باديس العبد الآبق »[3] وكتب أيضا إلى المعز بن باديس يهدده قائلا :«... أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولا، وحملنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا»[4] وبهذا قد نجحت خطة الفاطميين في ترحيل الأعراب وإغرائهم بما في المغرب من ثروات، وكان هدف الشيعة هو الانتقام من المعز ودولته صنهاجة، وأما قبائل بني هلال «فنزحوا لا حبا في نصرة الفاطميين، ولا بغضا في صنهاجة، ولكن طلبا للرزق »[5] .

---

(1) **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي** : تاريخ الجزائر العام ،ص344.
(2) **د/أحمد يزن** : النقد الأدبي في القيروان ،ص19.
(3) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ بن خلدون ،مج6 ،ص 17 .
(4) **المصدر نفسه** :ص19**وينظر** :اتعاظ الحنفا،ج2،ص216 **وابن الأثير**:الكامل في التاريخ ،ج8،ص86.
(5) **مبارك بن محمد الميلي** : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ،ص556 .

ويصف مبارك بن محمد الميلي قبائل بني هلال بأنهم «بداة ظواعن يسكنون بيوتا يستخفونها يوم ظعنهم ويكسبون الخيل لركوبهم والأنعام لحمل أثقالهم، والتغذي بألبانها واتخاذ الملابس والأثاث من أوبارها وأصوافها وأشعارها، ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل »[1] .

وخرجت الحملة الهلالية الأولى من مصر سنة 442هـ نزلوا ببرقة بأنعامهم و«عاثوا في أرض إفريقية حتى أنهم مروا بقرية فتنادوا: هذه القيروان فاستباحوها في الحين »[2] ثم وصلوا نواحي قابس وتونس فأكثروا الفساد والنهب ، وتكررت الصدامات بينهم وبين الأهالي، وتعددت نكبات الصنهاجيين فشبه ابن خلدون سير هذه القبائل فقال: «وسارت قبائل بني هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إفريقية سنة 443 هـ »[3] ولما انتهت جموعهم إلى القرب من القيروان، تيقن المعز من الخطر القادم فسخر كل ما يملك للدفاع عن القيروان ولكن دون جدوى، وانهزم المعز أمام زحف الأعراب رغم دفاعه عن عاصمة المغرب الإسلامي، وقال في ذلك شاعرهم :

وإنَّ ابْنَ باديس لأَحْزَمَ فَارسٍ — لعَمْرِي ولكنْ مَا لديهِ رِجَالُ
ثلاثةُ آلافٍ لنَا هَزمـــــتْ لَهُ — ثلاثينَ أَلْفًا إنَّ ذَا لنكـــــالُ [4]

وبعد أن استولى الهلاليون على أكثر المدن الإفريقية، حاصروا القيروان حصارا شديدا، وأفسدوا ضواحيها وواصلوا عبثهم وفسادهم، وبعثوا إلى إخوتهم من بقية الأعراب يشكرون لهم الأرض الخصبة والصالحة للمرعى، وما حققوه من الانتصارات، فطلبوا منهم اللحاق بهم لكن الوزير اليازوري «منعهم إلا بمال يدفعونه، فجمع من اللاحقين أضعاف ما دفعه للسابقين »[5] ولما اشتدت وطأتهم اضطر المعز بن باديس وحاشيته إلى ترك القيروان والارتحال نحو المهدية [6] فنزل على عامله هناك ابنه الأكبر تميم بن المعز سنة 449 هـ وعندها أطلقت أيدي بني هلال ومن انظم إليهم، فعاثوا في الأرض فسادا ونهبا وتخريبا، واستباحوا القيروان، وحطموا معالمها ونتج عن ذلك مآس لا تعد ولا تحصى مات فيها خلق كثير، وكان استيلاء بني هلال على مدينة القيروان وانتقال المعز منها إلى المهدية شاهدا على بداية سقوط الدولة الصنهاجية التي كان لها الأثر البعيد، و بدأت مدن دولة المعز تسقط الواحدة تلو الأخر، أما المعز بن باديس فقضى سنواته الأخيرة من حكمه في المهدية التي لم يبق له من ملكه سواها إلى أن وافته المنية سنة 454هـ [7]

([1]) **المرجع السابق** : ص 557.
([2]) **أحمد بن أبي الضياف** : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ،الدار التونسية للنشر،تونس،ط2،1976،ص173.
([3]) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ،مج6 ،ص 18 .
([4]) **أحمد بن أبي الضياف** : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،ص174.
([5]) **المصدر نفسه** : ص 174 .
([6]) **ينظر** : **المقريزي** : اتعاظ الحنفا ، ج2، ص215 .
([7]) **عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ بن خلدون ،مج6 ،ص 188.

وخلفه ابنه تميم الذي حكم المهدية وبعض البلاد المجاورة له، متقاسما ملك آبائه مع الهلاليين وبعض زعماء زناتة و صنهاجة، فحكم كل واحد منهم جزءا صغيرا، الأمر الذي فتت وحدة البلاد وأساء إلى أوضاعها الاقتصادية، وأضعف تماسك المجتمع، وفي عهده استرد "النورمنديون"جزيرة صقلية بعد جهود حربية وانسحب آخر المدافعين عنها إلى المغرب، وتبعتها سائر الجزر التي كانت ضمن ديار الإسلام (1) .

وبقي تميم يدبر أمور مملكته الضعيفة بين مضايقة الأعراب له ومهاجمة "النورمنديين " حتى توفي سنة 501هـ وآل الأمر من بعده إلى ابنه يحيى بن تميم الذي أحسن السيرة مع الرعية، وسمت همته لمقاومة "النورمنديين " فقام بإنشاء أسطول بحري قوي غزا به بلاد الروم حتى صالحوه على مال، وهابوا قوته «وكان له في ذلك آثارا عزيزة، وهلك فجأة في قصره سنة 509 هـ »(2).

ولما هلك يحيى بن تميم ولي علي بن يحيى ابنه الأمر في إدبار، وتوترت العلاقات بينه وبين"روجار النورمندي" ملك صقلية، فتخوف من ذلك الأمير علي «واستنجد بيوسف بن تاشفين المرابطي ليساعده على أعدائه إلا أن الموت عجله، فتوفي سنة 515 هـ »(3).

ولما مات علي بن يحيى تولى الأمر من بعده ابنه الحسن بن علي وهو آخر ملك صنهاجي، وفي هذه الأثناء كان النورمنديون بصقلية ينتظرون الفرصة، فهاجموه سنة 517هـ ونزلت جنودهم، وقاومهم رجال الحسن ودحروهم إلى البحر مهزومين ، لكن روجار أعاد الكرّة على المهدية فوجدها خالية من الدفاع لاشتغال جنود الحسن بن علي بحروب مع الأعراب خارجها، فدخلها واستولى عليها سنة 543هـ وسكن النورمنديون قصورها، وغنموا ما فيها، وأمنوا الناس، أما الحسن بن علي فلعجزه غادر مملكته بما خفّ من نفائس وهو يقول: «سلامة المسلمين من القتل والأسر خير لي من الملك والقصر »(4) قاصدا صاحب بجاية إلى أن تم الأمر إلى عبد المؤمن بن علي باني صرح الموحدين سنة 547 هـ (5) الذين أعادوا الاعتبار والهيبة لهذه البلاد من جديد واستردوها من أيدي النورمنديين .

---

(1) **ينظر: د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقي** :تاريخ المغرب والأندلس ، ص 188 .
(2) **عبد الرحمن بن خلدون:** تاريخ ابن خلدون ،مج6،ص190.
(3) **رابح بونار:** المغرب العربي تاريخه وثقافته ،ص240.
(4) **محمد بن مبارك الميلي** : تاريخ الجزائر العام ،ج2،ص136.
(5) **ينظر: عبد الرحمن بن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ،مج6،ص192.
وابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ،ج1،ص313، إتحاف أهل الزمان ،ص180.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

تعد بلاد المغرب الإسلامي من أجود المناطق الصالحة للفلاحة نظرا لخصوبة أرضها وتنوع مناخها، فهي أرض تحتوي على جبال وسهول واسعة داخلية وساحلية تتأثر بمناخ البحر الأبيض المتوسط، وتكثر بها هذه السهول لطول شريطها الساحلي، كما تحتوي على شواطئ كثيرة وصحاري شاسعة، مما يهيئها لنهضة فلاحية كبيرة تغرس فيها كل أنواع الحبوب ومختلف الأشجار المثمرة من زيتون وحمضيات ونخيل وغيرها...

وقد قيل أن المسلمين عندما فتحوا هذه البلاد وجدوا ظلال الأشجار لا تنقطع فيها من طرابلس إلى الشرق الجزائري [1] فبلاد المغرب غنية بجبالها المكسوة بالغابات، وسهولها مغطاة بالبساتين، تكثر فيها الأنهار والآبار والعيون، والحقول المختلفة، كما كانت أيضا صحراؤها مليئة بواحات النخيل، وأكبر منتوجات هذه البلاد الزيوت وشتى أنواع الخضر والحبوب والبقول، وطبيعي أن ينتج عن هذا الازدهار الفلاحي إنتاج حيواني مهم، أما الجانب الصناعي فقد كان على قدر كبير من التقدم والإتقان، وتعد الصناعة عنصرا هاما من حياة الشعب ورفاهيته، وعرف المغرب الإسلامي في عهد الصنهاجيين أنشطة صناعية كالصناعات الحريرية الصغيرة منها والكبيرة وصناعة المنسوجات بصفة عامة القطنية والصوفية بأنواعها ومختلف الزرابي، وقد بلغت صناعة المنسوجات درجة عالية من الإتقان والتفنن، ونفس الشيء يقال عن الصناعات الجلدية التي كانت تطرز بأسلاك الفضة، إلى جانب ذلك نجد تطورا هائلا في صناعة المجوهرات والزجاج والورق الذي «كانت أوربا تستورده من تونس وكانت صناعته من أنشط الصناعات وأكثرها انتشارا ونجاحا بين سكان القيروان خاصة» [2] واشتهرت كذلك في هذه الفترة الصناعات الحربية كبناء السفن والزوارق لتقوية الأساطيل البحرية .

ولهذا الازدهار الفلاحي والصناعي كان له الأثر البعيد في تنشيط الحركة التجارية، مما ساهم في تشغيل اليد العاملة، وتحريك التبادلات التجارية داخليا وخارجيا، ومكّن هذا النشاط الاقتصادي الدولة الصنهاجية من أن تكون أوفر الدول مالا، حتى ذكر ابن خلدون أن الصنهاجيين بإفريقية كانوا إذا أجازوا الوفود من أمراء زناتة فإنما يعطونهم المال أحمالا [3] وكان لمركز القيروان الجغرافي والسياسي دور كبير في ربط الصلة بين المشرق والمغرب والأندلس وجنوب أوربا بموانئ، مما طور الحياة التجارية الخارجية وجعل أسواق القيروان تشهد ازدهارا لا محدودا، فقصدها الناس من جميع الجهات لطلب الرزق بالتجارة، فالتقى فيها الحجازي واليمني والمصري والأندلسي بالمغربي والصقلي، مما جعل مدن المغرب الإسلامي يسيرة المال رائجة التجارة [4] وبهذا التقدم الاقتصادي بلغت القيروان في العصر الصنهاجي منتهى العمران الإسلامي فشيدوا القصور، وأنشأوا المنتزهات بمختلف الحواضر الإفريقية .

---

(1) **ينظر: أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط :** عصر القيروان ،ص26 .

(2) **المرجع نفســه :** ص27.

(3) **ينظر : أبو القاسم محمد كرو و عبد الله شريط :** عصر القيروان ص 27،28.

(4) **د/ أحمد يزن :**النقد الأدبي في القيروان ، ص20.

وأما من الناحية الاجتماعية فكانت القيروان في العصر الذي نحن بصدد البحث فيه من أزهى عواصم العالم العربي، فهي قبلة للوافدين من مختلف الأقطار الإسلامية طلبا للتجارة أو العلم أو لأغراض أخرى، فهي بذلك كانت تضاهي دمشق و الكوفة وبغداد و قرطبة وغيرها، وكانت الحياة الاجتماعية فيها تعج بالنشاط و الاتساع العمراني، وعاشت بين أحضانها عناصر شتى من بربر و عرب و غيرهم، وعرف المجتمع الصنهاجي طبقات عديدة، أهمها الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وطبقة الخواص، وطبقة التجار، وطبقة المثقفين، وطبقة الشعب المحرومة [1] وعموما فالحياة العامة في هذه الفترة كانت تتبع مجرى الحياة السياسية، فمتى هدأت الأمور واستقرت، انصرف الناس للتعمير و التشييد، وعرف الصنهاجيون في عهدهم الأول درجة من الثراء لم تعرفها القيروان قبل حكمهم، ومن ذلك ما حدثنا به المؤرخون من كثرة الولائم والهدايا والهبات والجواري، ويخبرنا ابن عذارى أن « المنصور الصنهاجي أرسل هدية إلى مصر بلغت قيمتها ألف دينار عينا »[2] كما يحدثنا نفس المصدر عن عرس " أم العلو " أخت المعز بن باديس بأن مهرها زاد على ألف دينار، وشوهد في القصر من أصناف الجواهر وأواني الذهب و الفضة ما سمع به أحد من الملوك قبله[3] وهذا الازدهار لم يكن مقتصرا على القيروان فحسب، بل كانت تشاركها فيه أيضا بقية المراكز التابعة لدولة صنهاجة مثل فاس و المسيلة و قابس و صفاقس و قفصة وتوزر و باجة و المهدية و تونس ...

واهتم الصنهاجيون كذلك « بتأسيس مدن أخرى كانت هي أيضا مراكز تمثل هذا التطور منها مدينة الجزائر، ومليانة والمدية وغيرها » [4] هذه المدن التي زخرت بنشاط الطبقات الشعبية سواء في الكد والعمل أو الراحة أو اللهو، وكان أكثر ولوعهم في أوقات الراحة بسباق الخيل أو الحراب أو الجلوس حول موائد الشطرنج وكذلك حول القصاصين في مجالسهم الشعبية، كما كان الشباب يتردد بكثرة على أماكن الغناء والرقص وخاصة في ضاحية القرية، فقد ذكر ابن رشيق: « أن الشاعر بكر بن علي الصابوني دخل إلى محل قيان فوجد جماعة من إخوانه يشربون، منهم ابن أبي حفص الكاتب، ورأى برذونه قائما في السقيفة فقال: كم لكم هاهنا ؟ فقالوا : كذا وكذا يوما، فشرب نهاره أجمع وليله، وأراد الانصراف من الغد وافتقد رداءه ودراهمه ولم يعثر لهما على أثر فقال لأبي حفص الكاتب: سألتك بالله أن تنزل إلى هذا العبد الصالح صائم النهار قائم الليل قال: وأي عبد يكون هذا ؟ قال: هو برذونك يا سيدي، فضحك الجماعة وانصرفوا» [5] فهذه القصة تصور لنا جانبا من حياة اللهو التي كان يعيشها الناس في المجتمع الصنهاجي، كما أنها تصور لنا تلك الروح الفكهة والنفس المرحة .

---

(1) **ينظر: المرجع السابق** ،ص21.
(2) **ابن عذارى المراكشي** : البيان المغرب ،ج1،ص249.
(3) **ينظر: المصدر نفسه** ، ص284.
(4) **أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط** : عصر القيروان ،ص25 .
(5) **المرجع نفسه** : ص26 **وينظر : د/أحمد يزن** : النقد الأدبي في القيروان ، ص23.

الحياة الفكرية والثقافية :

لم يمض وقت طويل على استقرار الفاطميين في مصر وتأسيسهم لمدينة القاهرة وجامع الأزهر، وجعلها عاصمة لهم حتى بدأ نفوذهم في بلاد المغرب يتلاشى، ووجد الصنهاجيون الفرصة السانحة لإعلان الانفصال وإنشاء أول دولة إسلامية بربرية مستقلة، وقد اشتهر من ملوك هذه الدولة باديس بن يوسف وابنه المعز الذي حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك وكان أكثرهم من قبل على مذهب الشيعة أو أبي حنيفة، وبلغت الثقافة في عهد المعز الصنهاجي مبلغا عظيما، ونبغ عدد كبير من العلماء والأدباء، وكان البلاط الصنهاجي زاخرا بالكثير منهم كما كان البلاط الفاطمي من قبل في المهدية يعج بالشعراء وفي طليعتهم ابن هانئ كما رأينا ذلك .

وقد ساعد الحركة الفكرية والثقافية على الازدهار انتشار المكتبات الخاصة والعامة وانتشار التعليم وإقبال أمراء صنهاجة على العلم والأدب وأخذهم بأيدي أهله وخاصته، وفي مطلع القرن الخامس الهجري نزح علماء وأدباء وتقربوا منهم، وأجزلوا عليهم بالعطايا ،وفي هذا العهد لم تكن المراكز الحضارية وخاصة القيروان معزولة عن المشرق ، بل كانت على اتصال به مما أهلها لأن تكون رابطة طبيعية بين المشرق الإسلامي ومغربه نظرا لموقعها الجغرافي الممتاز، فيمر عليها الجميع ويقصدها من طلاب علم وعلماء «وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب دار العلم، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم»[1] وإلى جانب هذا المركز المحوري مراكز أخرى سمت بعصر صنهاجة وساهمت في تطورها الفكري من أمثال المهدية التي كان بها بلاط فاخر، التفت حوله مجموعة من العلماء والأدباء والشعراء [2] ومدينة صبرة التي كان بها ديوان الرسائل، وهو يحتوي على أكثر من مائة كاتب كابن رشيق وابن شرف ويرأسهم أبو الحسن علي بن أبي الرجال [3] وفي محيط هذه المراكز النشطة فكريا وثقافيا انكب العلماء على تأليف الكتب، فظهرت أصناف شتى من المؤلفات تعالج موضوعات مختلفة في المعارف الفقهية والعلمية واللغوية والتاريخية والأدبية ... وسنلقي عليها نظرة في ما يلي :

الفـــــقه :

بعد قيام الدولة الصنهاجية خفّ التضييق على المذهب المالكي الذي ناله من قبل على يد الدولة الفاطمية عندما جعلت حدا للحركة الفكرية بفرضها المذهب الشيعي رسميا في البلاد، فتحررت الحياة الفكرية من جديد ونبغ فيها فقهاء وأعلام، واشتهرت طبقة من الفقهاء في عهد حكم باديس والمعز حرضت على قطع الصلة بالملوك الفاطميين، وحملت أهل المغرب على إتباع المذهب المالكي دون سواه في حدود سنة435هـ [4]

([1]) **عبد الواحد المراكشي:** المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،تحقيق د/محمد زينهم محمد عزب،دار الفرجاني للنشر والتوزيع، د ط ، د ت، ص356 .

([2]) **ينظر: د/أحمد يزن :** النقد الأدبي في القيروان ، ص26 .

([3]) **ينظر: المرجع نفسه :** ص27 .

([4]) **ينظر: المرجع نفسه :** ص28.

وقد برز في ظل هذه الحركة علماء أجلاء نذكر منهم أبو عبد الله بن أبي زيد النفزي القيرواني (تـ 386هـ) هذا الفقيه المالكي الذي كان يلقّب بمالك الصغير لكثرة تآليفه وسعة علمه وشهرته بين الناس ، وكان يرحل إليه طلاب العلم من كل مكان للرواية والتفقه [1] و أبو الحسن علي بن خلف القابسي (تـ 403هـ)، وهو إمام مصلح، وفقيه مؤرخ صاحب الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المتعلمين سجل فيها ملاحظات حول التعليم في القرن الرابع الهجري على غرار ما سجله الإمام محمد بن سحنون في القرن الثالث الهجري، و أعطى فكرة على الجهود المبذولة للقضاء على الأمية ونشر الكتابة وتعميم التعليم خدمة للثقافة الإسلامية [2] ونحن بصدد ذكر جهود الفقهاء لابد أن ننوه بالعمل الذي قام به فقهاء المغرب الأوسط من دراسة للفقه والحديث والتفسير وغيرها فنجد من بينهم من شرح صحيح البخاري، وموطأ مالك كأحمد بن نصر الداودي تـ 402هـ ، وله كتب جليلة من شرح البخاري بعنوان النصيحة في شرح صحيح البخاري

و الواعي في الفقه وهو شرح لموطأ مالك [3] ومنهم من نبغ في القراءات والنحو والكلام كأبي القاسم البسكري (تـ 465هـ) الذي انتقل إلى المشرق وعمل هناك مدرسا وتوفي بنيسابور، ومنهم الفقيه حسن بن محمد بن سلمون المسيلي تـ 431هـ الذي انتقل إلى الأندلس وكان فقيها عفيفا وأبو العباس أحمد الباغائي تـ 401 هـ الذي ارتحل كذلك إلى الأندلس وتوفي هناك [4] وحركة الفقه لم يضعف نشاطها في الفترة الصنهاجية رغم الفتن وإنما ازدادت قوة نظرا إلى حاجة الناس إلى من يبصرهم بشؤون الحياة المحيطة بهم .

العلــوم :

وإلى جانب الحركة الدينية والفقهية عرفت الدولة الصنهاجية حركة علمية مزدهرة في شتى أنواع العلوم كالكيمياء والرياضيات والطب والفلك وغيرها «في هذا الجو العلمي ظهر أبو القاسم بن محرز الذي برز في فن المناظرة، وإسحاق بن سليمان وابن الجزار في الطب »[5] ومن رجال الحكمة العلمية نجد ابن أبي الرجال الشيباني تـ 425هـ مؤدب المعز بن باديس الذي كان عالما رياضيا فلكيا عاش مدة في بلاط المعز وعمل وزيرا له أثناء حكمه «ومن آثاره العلمية البارع في أحكام النجوم وأرجوزة في الأحكام الفلكية»[6] وكان العلماء في هذا العصر يتصفون بصفات العلماء والباحثين «كحرية البحث والتسامح، وبذل الجهد والتضحيات، وتحمل المشاق الكثيرة بما في ذلك السفر الطويل في سبيل العلم »[7] .

---

(1) **ينظر:رابح بونار:**المغرب العربي تاريخه وثقافته،ص262.
ود/بشير خلدون :الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،1981 ،ص28 .
(2) **ينظر: رابح بونار** :المغرب العربي تاريخه وثقافته ،ص259 .
(3) **ينظر:عبد الرحمن بن محمد الجيلالي** :تاريخ الجزائر العام ،ج1،ص361.
(4) **ينظر:رابح بونار:**المغرب العربي تاريخه وثقافته،ص،267.
وعبد الرحمن بن محمد الجيلالي:تاريخ الجزائر العام، ج1، ص360.
(5) **د/ بشير خلدون** : الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ،ص30.
(6) **د/ أحمد يزن** : النقد الأدبي في القيروان ،ص 30.
(7) **أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط** : عصر القيروان ،ص34 .

النشاط الأدبي :

يرى الدارسون للحياة الأدبية في المغرب الإسلامي أن النشاط الأدبي في القرون الأولى كان ضئيلا والسبب هو انصراف رجال الفكر إلى علوم الشريعة إحساسا منهم بأن البيئة المغربية مازالت في حاجة إلى نشر تعاليم الإسلام وتنظيم الحياة وفق المبادئ الجديدة على السكان، ففي العهد الفاطمي اتسعت الحركة الأدبية وعرفت تقدما، وأخذت تثمر وتنضج في العهد الصنهاجي، وفي محيطه ازدهر الشعر أكثر مما كان عليه وتنوعت موضوعاته من مدح وفخر ووصف وغزل ورثاء وخمريات ...[1].

فكان العصر الصنهاجي عصر النضج الأدبي وربما يعود الفضل إلى أمراء الدولة الذين عملوا على بعث الحركة الفكرية والثقافية في كل نواحي البلاد، فقد كان المعز بن باديس محبا لأهل العلم كثير العطاء، مدحه الشعراء وقصده الأدباء، واجتمع في بلاطه أكثر من مائة شاعر وأديب [2] وكان من رجال حكمهم الأدباء والشعراء والعلماء من أمثال ابن أبي الرجال رئيس ديوان الإنشاء في الدولة الذي نعرف حياته الأدبية من خلال كتاب العمدة لابن رشيق الذي روى عنه أشعارا كثيرة في مختلف الأغراض، ويعلق عليه ابن رشيق في أبيات قالها يتشوق إلى أهله «فلو أن أعرابيا تذكر نجدا فحن به إلى الوطن أو تشوق فيه إلى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا المولد الحضري المتأخر العصر »[3] وقد أثر ابن أبي الرجال في حياة ابن رشيق في نواح عدة من ثقافته كما أثر فيه شيوخ آخرون كالحصري و القزاز و الخشني... [4]

وقد كان يعيش في حاضـــــرة الصنهاجيين عدد كبير من الأدباء قدر لهم أن يقيموا بها، أو يكونوا على اتصال مستمر بها نازحين من المراكز التي حولها ليستقروا في بلاد المعز، ومن هؤلاء الأدباء نذكر عبد الكريم النهشلي أستاذ ابن رشيق وكاتب المعز، فقد كان شاعرا وناقدا فذّا اشتهر بكتاب الممتع في علم الشعر وعروضه ، وأبو علي حسن بن رشيق المسيلي المعروف بالقيرواني الذي كان من أشهر شعراء عصره وله تآليف كثيرة في النقد أشهرها العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، و قراضة الذهب في نقد أشعار العرب وأنموذج الزمان في شعراء القيروان [5] كما نذكر الشاعر أبو عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة الذي كان معاصرا للنهشلي، أثنى عليه ابن رشيق في أنموذجه فقال: «شاعر لسن مقتدر، يؤثر الاستعارة ويكثر الزجر والعيافة ويسلك طريق ابن أبي ربيعة في نظم الأقوال والحكايات»[6] .

---

(1) **د/ أحمد يزن** : النقد الأدبي في القيروان ،ص 35.
(2) **ينظر: د/ بشير خلدون:** الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ،ص22.
(3) **ابن رشيق** : العمدة ، ج1،ص113 .
(4) **ينظر : محمد الطمار** : الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ،ص 124 .
(5) **ينظر : د/ بشير خلدون** : الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي،ص25**و د/أحمد يزن**:النقد الأدبي في القيروان،ص79.
(6) **حسن بن رشيق القيرواني** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ،جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر والتوزيع ،تونس و المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،ط1،1986،ص 209 .

وله قصيدة رائعة في مدح ثقة الدولة أمير صقلية، ولا ننسى الأديب ابن أبي الربيب الحسن بن محمد بن أحمد التيهرتي ويدعى القيرواني لقضاء معظم حياته بها، فكان هو الآخر شاعرا بارعا وصفه ابن رشيق بأنه «بلغ النهاية في الأدب وعلم الخبر والنسب ... وكان خبيرا باللغة شاعرا مقدما قوي الكلام »[1] وقال ابن رشيق: «حدثنا جماعة من أصحابنا قالوا: سألنا عبد الكريم: من أشعر أهل بلدنا في الوقت؟ فبدأ بنفسه وثنى بابن الربيب»[2] .

ومهما يكن من أمر فإن الفترة الصنهاجية مثلت عصر الازدهار والنضج، وبلغت البلاد فيها قمة مجدها وراجت الحياة الفكرية والثقافية رواجا كبيرا، وتطور الشعر والنثر، وربما يعود ذلك إلى إقبال حكامها على العلم والأدب رغبة منهم في نشر المعارف تقديرا لأصحابها «وكان المعز بن باديس وقد حكم أكثر من أربعين سنة لا يسمع بعالم جليل أو شاعر عظيم إلا أحضره إلى حضرته، وجعله من خاصته »[3] .

المراكز الثقافية :

شهد عصر الصنهاجيين الكثير من المراكز الثقافية توزعت على أرض المغرب الإسلامي، ففي المغرب الأدنى كانت المهدية وتونس وفي المغرب الأوسط كانت المسيلة وقلعة بني حماد وتيهرت والزاب وتلمسان ...

لكن من بين هذه الحواضر تميزت القيروان بصفة خاصة فاستقطبت معظم النشاطات الفكرية وهذا لكونها رمزا تاريخيا وعاصمة للدولة، وبالإضافة إلى ذلك كانت تمثل المركز الاستراتيجي المهم لكونها نقطة التواصل بين المشرق والمغرب، وهذا ما أهلها لأن تكون أشهر مركز سياسي وثقافي في المغرب كله .

القيـــروان :

هي أولى المدن التي تأسست في بلاد المغرب تحت راية الإسلام والعروبة أسسها عقبة بن نافع الفهري سنة 50هـ قبل إتمام الفتح الإسلامي بزمن طويل، كانت كبيرة المساحة بعيدة عن البحر تقع وسط تونـــس الحالية [4] ويصفها البكري في كتابه المسالك والممالك بقوله: «ومدينة القيروان في بساط من الأمر مديد، في الجوف منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة والمهدية، وفي القبلة بحر سفاقس وقابس، وأقربها منها البحر الشرقي وشرقيها سبخة وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة، وأحسنها الجانب الغربي وهو المعروف بفحص الدارة يصاب في السنة الخصبة للحبة مائة، وهواء هذا الجانب طيب صحيح »[5] والقيروان حسب هذا الوصف تمتاز بموقع مهم، وبأرض خصبة ومناخ معتدل مما سمح لها أن تزدهر اقتصاديا

([1]) **المصدر السابق** : ص 111،112 .
([2]) **المصدر نفســه** : ص 112 .
([3]) **د/ عبد العزيز قلقيلة** : النقد الأدبي في المغرب العربي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط ،2007، ص40 .
([4]) **ينظر: موسى لقبال** : المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القيروان حتى انتهاء ثورات الخوارج ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 ، ص 34 .
([5]) **البكــري** : المسالك والممالك ، ص 197.

واجتماعيا وثقافيا، ومن الناحية السياسية فتاريخ القيروان عريق يعود إلى بداية الفتوحات الإسلامية، وظلت طيلة أربعة قرون وإلى وقت خرابها سنة 449هـ حاضرة البلاد، ولم يبق لها شيء من عظمتها سوى صيتها الذائع الذي يعود بنسبة كبيرة إلى مكانة الصحابة والتابعين والمجاهدين في سبيل الله والعلماء ورجال الأدب الذين نزلوا بها ونشروا العلم والأدب، حتى أنها كانت رابعة الحواضر الإسلامية في ذلك الوقت بعد البصرة والكوفة ودمشق فهي أهم مدينة بالمغرب، وتوصف بالقلعة الشامخة للمذهب المالكي ومحل جذب للعلماء والطلاب وأهل الورع والصلاح [1] والذي يهمنا في هذه الدراسة الازدهار و النضج الأدبي في الفترة الصنهاجية وهي الفترة التي هاجر إليها شعراؤنا الذين نحن بصدد دراسة شعرهم، ونبغوا فيها وأبدعوا، فمثلت القيروان بحق عصر النضج الأدبي خاصة في عهد المعز بن باديس الذي كان «...ملكا جليلا عالي الهمة محبا لأهل العلم، كثير العطاء، وكان واسطة عقد بيته، ومدحه الشعراء، وانتجعه الأدباء»[2] فهذا الذي ساعد القيروان على الريادة الثقافية والإقبال على الأدب، فأصبحت بذلك قبلة للمبدعين من كل الأنحاء، فكثر الإبداع بها وانتشرت العلوم وارتفع المستوى الثقافي في الشارع القيرواني [3].

([1]) **ينظر: الشاذلي بويحيى:** الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ، مج 2 ص453 .

([2])**محمد بن محمد الأندلسي:**الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة الدار التونسية للنشر، تونس، ج1، ص940.

([3]) **ينظر:رابح بونار :** المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص281،282.

الفصــل الثانــي

دراسة فـــــي الموضـــــــــوعـات

أولا : المـــــــدح .

ثانــيا: الوصـــف .

ثالثــا: الرثـــــاء .

رابــعا: الزهـــــد .

خامسا: الغـــزل .

سادسا: الهـــجاء .

سابــعا: موضوعـــــات أخـــرى

أ- الفخـــــر .

ب- الاعتـــذار .

جـ - الخمـــريات .

أولا: **المـــدح**:

المدح واحد من الموضوعات الشعرية العربية، يقوم على فن الثناء وتعداد مناقب الإنسان الحي وإظهار محاسنه وإشاعة محامده التي خلقها الله فيه بالفطرة أو التي اكتسبها اكتسابا والتي يتوهّمها الشاعر فيه وكان المدح في العصر الجاهلي واجبا مقدسا وأداء لحق القبيلة، على الشاعر أن ينهض به لإظهار فضائلها وتخليد أمجادها ومفاخرها، وكان الإعجاب يعتبر الدافع الأول الذي ينطق بمدح الممدوح كإعجاب الشاعر زهير بن أبي سلمى بالحارث بن عوف وهرم بن سنان الذين أصلحا بين قبيلتي "عبس "و"ذبيان" وحقنا دماءهما، فكانا جديرين بالإعجاب ثم المدح[6] والشاعر في القديم لا يتكسب بالشعر «وإنما ينظم الشعر في مقابل حق يراه فيؤدي واجبه »[2] فيقوم بمدح كبار القبيلة، وذوي الفضل من كبار العرب مقابل تقديره .

فالمدح كان ينبع من دافع يدل على كرم الخلق لا من عاطفة متزلفة تدل على ضعف النفس وهوانها، ثم تطورت دوافع المدح وطغى حب المال على الناس فظهر التكسب وصار الشعراء يتكسبون بالمدح ولا يبعثهم على نظمه حب لمن يمدحون، بل طمع فيما يربحون، وظهر ذلك في أواخر العصر الجاهلي، ومن الشعراء الذين تكسبوا بشعرهم :النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وطرفة بن العبد والأعشى الذي جعل الشعر متجرا يتجر به فقصد حتى ملك العجم الذي استهجن شعره، ولكنه أثابه اقتداء بملوك العرب[3] .

وتنافس الشعراء في المديح وتهافتوا على التكسب مما جعل موضوعه يعرف تطورا في لغته ومعانيه وأساليبه، فأولى الشعراء لبنية القصيدة المدحية اهتماما خاصا حتى يتحقق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحيهم ونيل مبتغاهم، «وبفضل هذا التنافس تحقق للقصيدة نموها المطرد فصارت في بنائها جامعة لكثير من التقاليد التي سنها الجاهليون »[4] .

وفي عصر صدر الإسلام ظهر الرسول محمد ﷺ فانقسم العرب في إتباعه ووقف فريق من الشعراء يذب عنه ويشيد بالرسالة الجديدة وبقيمها السمحة، فظهر المديح الديني الإسلامي يمدح الدعوة والرسول ويَكْبُر الخُلق الرفيع والبطولة، ويبين مزايا الدين الجديد بالإيجاب، كل هذا مهّد الطريق للشعراء الإسلاميين من بعده على امتداح الإسلام وما جاء به النبي الكريم من قيم مثلى، وفي العهد الأموي انتقلت السلطة إلى الشام وانتقلت معهم عصبياتهم ونزاعاتهم القبلية، وكثرت الحروب المذهبية والسياسية بينهم، فخاض الشعراء في مدح الخلفاء والأمراء، وأغدقوا عليهم بالأموال والعطايا، فانبسطت رقعة المديح السياسي والاجتماعي والديني

([1]) **ينظر:د/غازي طليمات عرفان الأشقر**:الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه،دار الفكر،دمشق، ط1، 2002،ص200.
(2) **ابــن رشيــق** : العمـــــدة ، ج1، ص80.
(3) **المصدر نفســه** : ص81.
([4]) **علــي عالـــية** : شعر الفلاسفة في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في الأدب العربي القديم ، جامعة باتنة ، 2005، ص15.

أما في العصر العباسي فقد كثر المديح وتنوع وساعدت على انتشاره عوامل كالترف وتباين الطبقات وتعدد الأحزاب السياسية والمذاهب الدينية، فكان الشعراء في الطبقة المتوسطة تتقرب وتمدح وتتصل بالسياسة حينا وبالمذهب والحزب حينا آخر [1] كما اهتم النقاد بموضوع المديح، وأرشدوا الشعراء إلى مواطن الإجادة ومواطن الضعف، وبينوا لهم نيل الحضرة عند ممد وحيهم، ويرجع قدامة بن جعفر صفات المدح إلى مجموعة من الفضائل وهي :العقل والشجاعة والعدل والعفة [2] وهذه الفضائل الأربعة تعتبر أصولا وكل أصل يتفرع إلى صفات فرعية، فالعقل أصل ترجع إليه من الفضائل كالمعرفة و الحياء والبيان والعلم والحجة والحلم،والشجاعة أصل ترجع إليه فضيلة الحماية والدفاع والإقدام، والعدل يحمل كثيرا من الخلال كالسماحة والتبرع بالنائل وإجابة السائل وقرى الأضياف، والعفة كذلك ترجع لها الفضائل كالقناعة وقلة الشره وطهارة الإزار وغيرها [3] وإضافة إلى هذا التقسيم الذي وضعه النقاد مقياسا للجودة والذي يمدح فيه الشاعر بفضيلة أو ما يتفرع عنها، دعا النقاد إلى مراعاة الممدوح « فلكل ممدوح ما يناسبه من المعاني والصور والأساليب»[4] .

وأما من ناحية المضمون فالشاعر يُبرز في ممدوحيه الصفات التي تُظهر الإعجاب وهي صفات تقليدية يطيب للعربي أن يوصف بها كالمروءة والشجاعة والكرم وما يدور حول انتصارات الممدوح التي تعد نصرا للدين أو للأمة، ويدخل أحيانا في ذلك وصف السلاح والجيوش والمعارك .

والمديح عند الشعراء المغاربة لا يختلف كثيرا عن المديح عند إخوانهم المشارقة، فقد نظموا شعر المدح وأكثروا منه وتنافسوا في إبداع المعاني والصور واختيار اللغة المناسبة «ونجد بعض كبار الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسي وابن دراج القسطلي وابن حمديس الصقلي قد غلب على شعرهم موضوع المديح وغالبا ما توجه هذه المدائح إلى أمراء الأندلس وخلفائها وملوكها » [5] وهذا ما ينطبق على شعرائنا المهاجرين إلى القيروان والذي كان موضوع المدح من أهم صفحات شعرهم، فتغنوا ببطولات حكامهم ومكارم سادتهم وخصالهم الحميدة في السلم والحرب .

ولقد أعجب شعراؤنا على غرار إخوانهم من المشرق وغيرهم من شعراء الأمم القديمة والحديثة بالخلُق الرفيع والرأي السديد وبالشجاعة الفائقة والكرم الواسع، فأثنوا على رجال الحكم وأصحاب النفوذ ونظروا إليهم نظرة اعتزاز وإكبار منوهين بطريقة حكمهم ورشاد سياستهم، وبعظيم انتصاراتهم وبقيم تسامحهم .

([1]) **ينظر : سامي الدهان** : المديح، دار المعارف ، القاهرة، ط5 ، 1992، ص12.

([2]) **ينظر : قدامة بن جعفر**: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،د ط،د ت، ص96.

([3]) **المصدر نفسه** : ص98 .

([4]) **محمد غنيمي هلال** : النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ،1973، ص177.

([5]) **د/ عبد العزيز عتيق** :الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان ، ط2 ، 1976، ص185.

وسيبين البحث من خلال هذه الدراسة أن غرض المدح في شعر المهاجرين إلى القيروان ظل محتفظا بكثير من سمات القصيدة العربية التي يستهلها الشاعر بذكر الديار والدمن والآثار، ويوصل ذلك بالنسيب فيشكو شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، ويتشوق لجذب القلوب واستدعاء الأسماع إليه ثم يخلص إلى المدح [1] وتطرقنا من خلال شعر هؤلاء إلى النواحي الأدبية في المديح من وصف للشجاعة والكرم وأصالة النسب، رأينا فيها أهدافا سياسية امتزجت بالعاطفة الدينية التي اعتمد عليها هذا المديح كأساس للمطالبة وعنوان للحجة، وكان ذلك خصوصا في الفترة الفاطمية وشاعر مذهبها ابن هانئ الأندلسي .

المدح السياســي :

إن الحياة السياسية والأوضاع المختلفة التي كان يعيشها المغرب الإسلامي قبل خراب القيروان قد أفرزت هذا اللون الشعري، وفرض وجوده ضمن غرض المديح كأمر طبيعي لما ساد المنطقة من أحداث واضطرابات، فظهر ما يسمى بالمدح السياسي الذي يرتكز على مدح الخلفاء والأمراء والحكام وذوي الجاه والنفوذ في البلاد .

وبنظرة فاحصة إلى شعر هذا اللون من الناحية السياسية الصرفة، نجد فيها دوافع خفية وظاهرة تدفع إلى العمل السياسي، فالشاعر ابن هانئ الأندلسي حين امتدح سيده المعز الفاطمي انتصر لمذهب معين ولدولة بذاتها، لأن بني أمية وبني العباس في رؤاه الشعرية أعداء، والنابغة حين امتدح مليكه النعمان بن المنذر انتصر لدولة دون دولة ومملكة دون مملكة لأن الغساسنة كانوا أعداء المناذرة » [2] .

وشيء يلفت الانتباه في غرض المديح عند شعرائنا، هو غياب مدح العلماء والأدباء مما يجعلنا نتساءل لماذا لم يتغن شعراؤنا بفضائل رجال العلم والأدب ؟ أم أن سبب ذلك ضياع بعض الموروث الشعري الذي يختص بمدح العلماء، أم أن شعراءنا صرفوا اهتمام إبداعهم نحو شخصيات سياسية ليحفظ بها التاريخ آثارهم ويحفل بذكر أسمائهم، ويفضلون فوق ذلك الشهرة، فكان معظم مدحهم يدور حول الحاكم أو السلطة طمعا في التقرب و النوال.

الحاكــم :

كان الحاكم عند شعرائنا أو الأمير أو قائد الجيش هو الممدوح، فيتقربون منه وينظمون فيه أجود الأشعار يصفونه ويشيدون بأعماله وانتصاراته، يرجون رضاه ويدفعهم في كل ذلك رغبة الانخراط في زمرة بلاطه فيحققون من وراء ذلك الشهرة والمال، فمدح شعرائنا للحكام كان مدحا تقليديا كمدح شعراء العرب الأقدمين للخلفاء والأمراء والأشراف «إما طمعا في بعض مالهم وهو الأظهر من الأطوار، وإما إعجابا بشهامتهم

([1]) **ينظر :ابن قتيبة :** الشعر والشعراء ، ج 1، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر،1966، ص 74،75 .
([2]) **ينظر : سامي الدهان :** المديح ، ص 91 .

وخلالهم أو كرمهم ومآثرهم وهو الأقل من الأحوال»[1] ويبدو من خلال قراءتنا لشعرهم أنهم ألحقوا بمن مدحوا نوعين من الصفات.

صفات ذاتية :

وهذا النوع من الصفات لم يعتمد عليه شعراؤنا كثيرا في التقرب من ممدوحيهم على الرغم من انتشاره عند الأقدمين، حيث يقول ابن طباطبا: «وأما ما وجدته في أخلاقها (العرب) و تمدّحت به ومدحت به سواها... فخلال مشهورة منها في الخلق والجمال و البسطة... » [2].

ولم أعثر على صور تتعلق بالصفات الذاتية فيما استطعت جمعه من المادة الشعرية عند الشعراء الذين اخترتهم من بين الشعراء المهاجرين إلى القيروان إلا ما سجله ابن هانئ الأندلسي* في مدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله * وبعض رجاله، فقال في مدح الخليفة المعز لدين الفاطمي : (الكامل)

هَذَا الأَغَرُّ الأَزْهَرُ المتألِّقُ المُـ ... تَدَفِّقُ المُتَبَلِّجُ الوَضَّـــــاءُ

فَعَلَيْهِ مِنْ سِيمَا النَّبِي دَلاَلَةٌ ... وعَلَيْهِ مِنْ نُورِ الإِلَه بَهَاءُ [3]

فيرى الشاعر في ممدوحه وجها مشرقا متدفقا بالنور ووجها طلقا حسنا له سَمْتُ النبي الكريم الطاهر الوضاء وفي موضع آخر وصفه بالنور فقـال : (الكامل)

النُّورُ أَنْتَ وَكُلُّ نُورٍ ظُلْمَةٌ ... والفَوْقُ أَنْتَ وَكُلُّ فَوْقٍ دُونُ [4]

فتشبيه المدوح بالنور صورة تقليدية قديمة فهو يصف ذاته معليا من شأنه مقرنا هذه الصفة المعنوية بصفة حسية تتمثل في ذاته النيرة الوضاءة، كما زاد في جمال هذا البيت تلك المحسنات حين طابق الشاعر بين (النور والظلمة) و بين (فوق و دون)، وهذا لإبراز ممدوحه، وقال في مدح جعفر بن علي * أمير الزاب :

والمُشْرِقَاتُ النَّيِّرَاتُ ثَلاَثَةٌ ... الشَّمْسُ والقَمَرُ المُنِيرُ وجَعْفَرُ [5] (الكامل)

وبنفس الصورة جعل الشاعر من جعفر نورا يضاهي نور الكواكب التي تملأ الفضاء ضياء كالشمس والقمر، بل جعله ثالثهما بأسلوب المبالغة، كل هذا التشبيه لتوضيح إشراق المدوح وسمو مكانته وعلوها.

وقال أيضا يمدح أبا الفرج الشيباني*: (البسيط)

([1]) **د/عبد الملك مرتاض:** الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة ، الجزائر، د ط ،2003 ، ص64.

([2]) **محمد زغلول سلام** : مدخل إلى الشعر الجاهلي دراسة في البيئة والشعر ، منشأة المعارف ، مصر،د ط، 1995، ص161 .

* هو أبو القاسم محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون المعروف بابن هانئ الأندلسي ولد سنة 326 هـ باشبيلية ، ونشأ بها ،وأخذ علومه بقرطبة انتقل إلى المغرب سنة 347 هـ ، واستقر بإقليم الزاب (المحمدية) عند عائلة جعفر بن علي بن حمدون التي أحسنت إليه ،ثم هاجر إلى القيروان بطلب من المعز لدين الله الفاطمي ،توفي سنة 362 هـ ببرقة في طريقه إلى مصر .

* اسمه معد وكنيته أبو تميم ولقبه المعز لدين الله هو رابع الخلفاء الفاطميين (ينظر: الفصل الأول ص 34)

([3]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 34،35 .

([4]) **المصدر نفسه** : الديوان ، ص211.

* جعفر بن علي بن حمدون أمير إقليم الزاب وعاصمته المحمدية(المسيلة) خلال الحكم الفاطمي .

([5]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص398.

أَما وَوَجْهِكَ وهُوَ الشَّمْسُ طَالِعَةً لَقَدْ تَكَامَلَ فِيكَ الخَلقُ والخُلُقُ [1]

فيُقسم الشاعر بوجه الممدوح، والقسم يكون دائما لأمر جليل عظيم، ليبين أنه كالشمس في شروقها يشرق نورا، وقد تكاملت فيه الصفات الخلقية والخلقية، ولما كان الحاكم الممدوح متشيعا جاءت معاني الشعر تحمل دلالات شيعية خصوصا في الفترة الفاطمية، فقد انتصر شاعرها لمذهب الإسماعيلية، فهو ينظر إلى الحاكم برؤية خاصة ويرى بأن الإمامة له إلهام رباني، وأنها فريضة على كل مسلم وأن طاعته من طاعة الله فيقول في ذلك يمدح المعز الفاطمي :

(الكامل)

أَعَلَيْكَ تَخْتَلِفُ المَنَابِرُ بَعْدَمَا جَنَحتْ إِليْكَ المَشْرِقَان جُنُوحَا

أَمْ فِيكَ تَخْتَلِجُ الخَلائِقُ مِرْيَةً كَلاَّ وَقَدْ وَضَحَ الصَبَاحُ وُضُوحَا

أُوتِيتَ فَضْلَ خِلاَفَةٍ كَنُبُوَّةٍ وَنَجِيَّ إِلهَامٍ كَوَحْيٍ يُوحَى

أَخَلِيفَةَ اللهِ الرِّضي وَسَبيلهُ وَمَنَارَهُ وَكِتَابَهُ المَشْرُوحَا [2]

ويقول في مقطوعة أخرى : (الكامل)

هَذَا مُعِدٌّ و الخَلاَئِقُ كُلُّهَا هَذَا المُعِزُّ مُتَوَّجًا وِالدِّينُ

هَذَا ضَمِيرُ النَّشْأَةِ الأُولَى التِّي بدأ الإِلَهُ وَغيْبُهَا المَكْنُونُ [3]

فيُظهر الشاعر في الخليفة التشيّع، ويصفه بأنه ضمير النشأة الأولى، وأنه الغيب المكنون، وقد مثّله حاكما ليس كالحكام العاديين الذين يتمتعون بسلطان قوي، بل كان يرى فيه خصائص إلهية انفرد بها، فموقعه ليس خليفة كالخلافة التي عهدها الناس فيمن خلفوا رسول اللهﷺ، وإنما هو خليفة الله لا خليفة رسوله، يتلقى عن الله شأنه شأن الأنبياء في ذلك، وقد عرض في سياق مدحه الحاكم الشيعي وجها آخر يتضمن قدسية الإمام في العقيدة الشيعية بوصفه علة الكون الأولى، والكون لأجله قد خلق فقال :

هُوَ علَّة الدُّنْيَا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ ولِعلَّةٍ ما كَانَتِ الأَشْيَاءُ [4] (الكامل)

ولا عجب أن يبدو هذا في شاعرنا وهو يغمر ممدوحه الإمام والخليفة بأوصاف مفعمة بأساليب المبالغة، كأنه استخرجها من قاموسه المذهبي، فهو شيعي المذهب، والإمامة مذهب الدولة الفاطمية ودعامة رئاستها الدينية لأن الإمامة عندهم أصل من أصول الدين [5] وبهذه المفاهيم أرست قواعد السلطة بالمغرب وفرضت عقائدها على الناس.

---

* قائد فاطمي كلف بجمع الخراج بالمغرب الأوسط .

([1]) **ابن هانئ الأندلسي** :الديوان ،ص363.

([2]) **المصدر نفسه** : ص 55،56.

([3]) **ابن هانئ الأندلسي** :الديوان، ص 205 .

([4]) **المصدر نفسه** : ص33.

([5]) **د/عبد الرحمن حجازي**:الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي دراسة أسلوبية،المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،ط1،2005،ص97.

صفات خُلقية :

أما الصفات الخلقية فقد كان لها النصيب الأكبر في قصائد شعرائنا ومنها السخاء والشجاعة والحلم والوفاء والعدل والكرم وأصالة النسب والمجد وغيرها، وسيبين البحث بعض الصفات التي أدرجها شعراؤنا وهم يصفون ممدوحيهم ومنها :

المدح بالكـرم :

وهي صفة لا تكاد تخرج عن الصفات المتعارف عليها في موضوع المدح عند الشعراء العرب، فيثنون على الممدوح بالجود والكرم.

قال الشاعر بكر بن حماد التيهرتي* يمدح أحمد بن سفيان* قائلا: (الطويل)

وقائلةٍ زارَ المُلوكَ فلمْ يَفِـــدْ　　فيَا ليتَهُ زار ابْنَ سُفيانَ أحْمَدَا

فتَى يسخَطُ المالَ الذِّي هو ربُّهُ　　ويُرضِي العَوالِي والحُسامَ المُهنَّدَا (1)

فممدوح الشاعر كثير السخاء طعان للأعداء، وهي صفات كثيرا ما تناولها الجاهليون في شعرهم، فقد زاوج الشاعر بين صفتين في مدحه وعمد إلى مطابقة (يسخط،يرضى) فالأولى دلالة على جود الأمير فهو معطاء في ماله الذي يملكه والثانية شدته في الحروب التي تجعله يرضي بها سيوفه بشجاعته وحسن بلائه .

وللشاعر كذلك قصيدة أخرى يمدح فيها أحمد بن القاسم بن إدريس* بقوله : (الكامل)

إنَّ السماحةَ والمُروءَة و النَّدى　　جُمِعُوا لأحْمَدَ مِنْ بَنِيِّ القاسمِ

وإذا تفاخَرَتِ القبائلُ وانْتَمتْ　　فافْخَرْ بفضْلِ مُحمّدٍ و بِفاطِمِ

وبجعفر الطيَّارِ في دَرَجِ العُـلا　　وعَلِيٍّ العَضْبِ الحُسامِ الصَّارمِ

إنِّي لمُشتاقٌ إليكَ و إنَّمـا　　يَسْمُو العُقابُ إذَا سَمَا بقوادمِ

فابْعثْ إليَّ بمَرْكبٍ أسْمُو بهِ　　عليَّ أكُونُ عَليكَ أوَّل قَـادمِ

وأعْلمْ بأنَّك لَنْ تنـالَ مَحـبَّةً　　إلاَّ ببعضِ ملابسٍ ودراهـمِ (2)

---

* هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (قيل بن سهر)بن إسماعيل الزناتي أصلا ولد بتاهرت سنة 200هـ ،وتلقى بها دروسه الأولى على يد مشاهير علمائها وفقهائها ،في سنة 217هـ ،هاجر إلى القيروان وتزود بديارها علما وأدبا ومنها رحل إلى المشرق وأقام ببغداد واتصل بخليفتها العباسي المعتصم ومدحه ، واحتك بشعرائها ،عاد إلى القيروان سنة 274هـ وتصدر بها التدريس وظل يتردد بين القيروان وتاهرت حتى سنة 295هـ أين رجع إلى تاهرت فاعترض سبيله اللصوص وقتلوا ابنه عبد الرحمن وجرح هو جراحا أودت به بعد ذلك سنة 296هـ بمسقط رأسه .

* هو أحمد بن سوادة التميمي كان عاملا للأغالبة على إقليم الزاب ثم طرابلس ثم صقلية ،وله في ايطاليا فتوحات مشهورة ،توفي سنة 260هـ بالقيروان .

(1) **محمد بن رمضان بن شاوش** :الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ،ص71 .

* هو الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى .

(2) **محمد بن رمضان شاوش** :الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ،ص72،73.

يثني شاعرنا في هذه المقطوعة على جود وسخاء الممدوح، ويشير إلى منزلته وكرم نسبه، وهذا إعلاء لشأنه وطمعا في العطاء الجزل، وهذا ما ظهر واضحا في البيت الأخير، فهو لم يتعفف عن ذكر السؤال على طريقة الشاعر الأعشى الذي عرف بذلك [1] وهي دلالة على أن مدح شاعرنا لم يتخلص عن المدح التكسّبي المعروف في الشعر العربي، كما نرى الشاعر يستثمر الموروث الديني والتاريخي بما يحقق غايته، فيجعل ممدوحه الذي هو من أسرة الأدارسة والتي ينتهي نسبها إلى علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما وإلى رسول الله ، فهذا الفضل والكرم الفياض إنما هو من كرم سيد المرسلين وآل بيته .

ويقول الشاعر أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة * في مدح ثقة الدولة* والي صقلية : (الطويل)

أغـــرُّ قُضَاعِـــيٌّ يكـــادُ نـوالهُ ... لكثْرَةِ ما يَدعُو إلى الشُكْرِ يَجْحَفُ

سعَى وسعَى الأمْلاكُ في طلبِ العُلاَ ... ففازَ وأَكْدَوا إذْ أخفَّ وأقْطَفُـــوا

ويقظانُ شَابَ البَطْشَ باليرِّ و التُّقىَ ... بكَفَّيْه ما يُرجَى وما يُتخـــوَّفُ [2]

يرى الشاعر أن كثرة نوال وعطاء الممدوح تكلّف من الشكر ما لا يطاق، وهذا لعظيم جوده على الناس، ويرى في ممدوحه أنه سبق غيره في صفات الخير والبر والحزم، كل ذلك عبر عنه بهذه الثنائيات(الفوز،الخيبة)،(السرعة و البطء) (الرجاء،الخوف)، ليظهر من هذه المطابقات صفة ممدوحه المتألقة دائما فهو الأسرع وصاحب النصر والمرتجى منه الخير، فهو القوي على أعدائه الرحيم برعيته، وهذا ما جعل من الشاعر صانعا ماهرا متفقها في اللغة يصرف شؤونها وينوعها حسب تشكيل قصيدته، كما لمسنا تكرارا في البيت الثاني وهذا إثراء للموسيقى وتأثيرا في المتلقي، ويقول في قصيدة أخرى :

(الكامل)

طَـــبٌّ بأدْواءِ الجِـــهادِ إذَا ... صَدَمَ العَجَاجُ قَوادِمَ النِّسرِ

وإذ احْتَبَى في شمْلَةٍ ضَربَتْ ... بيضُ النَّوال جماجِمَ الفَقْر

ينْدَى وأيْدِي المُزْن جامـــدةٌ ... ويَلينُ عند قساوةِ الدَّهْـــرِ [3]

([1]) **ينظر: ابن رشيق** : العمدة ، ج1، ص 81 .

* **هو** أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة ،هاجر إلى القيروان بصحبة أبيه ومنها إلى جزيرة صقلية أيام العهد الفاطمي ،ذكره ابن رشيق في أنموذجه وأثنى على أدبه كثيرا قائلا:إنه شاعر مقتدر يؤثر الاستعارة ..ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في ميله إلى القصص الشعري، اشتهر بقصيدته الفائية التي مدح بها ثقة الدولة الذي تولى إمارة صقلية سنة377 هـ.

* **هو** أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد أمير صقلية الذي تولى الإمارة سنة 377 هـ .

([2]) **د/شوقي ضيف:** تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ،ص 134.

([3]) **حسن بن رشيق القيرواني** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 214 .

فصاحب الشاعر يعرف كيف يشفي أدواء الجهاد حين تشتد المعارك وهذا شأنه في الحرب، أما في السلم فالمعنى الذي تشخصه الأبيات هو الجود الفياض الذي هو من مناقب ممدوحه المتأصلة فيه، وقد اعتمد الشاعر على مجموعة من الصور لإظهار هذا المعنى في صورة فنية مشرقة، فوظف (بيض النوال) كناية عن الأيدي الكريمة كما وظف (أيدي المزن) و(جماجم الفقر) وهما استعارتان مكنيتان للدلالة على العطاء والجود في وقت تشح أيدي السحاب ويلين الممدوح عند قساوة الدهر .

ويثني ابن هانئ الأندلسي على سخاء جعفر بن علي* فيقول : (الطويل)

وما الجُودُ شيئًا كان قبْلكَ سابقًا بلِ الجُودُ شيءٌ في زمانكَ حادثُ [1]

فالشاعر في هذه القصيدة الطويلة بعدما ينهال على ممدوحه بذكر البطل العربي الشهم من شجاعة نادرة وعقل سليم تراه يمدح فيه الجود، وبأسلوب النفي والإثبات يجعل منه شخصا متميزا في عطائه باعتبار أن الجود حديث عهده وزمانه فقط مستعملا في ذلك محسنا معنويا (سابق،حادث) ليثبت مدى تفرد ممدوحه بهذه الصفة.

وبنفس النبرة الصوتية يقول في مدح الخليفة الفاطمي المعز : (الطويل)

وما الجُودُ جودًا في سواكَ حقيقةً وما هو إلاَّ كالحديثِ المُرَجّـمِ

فلو أنه في النَّفسِ لم يَكُ غُصَّـــةً ولو أنَّه في الطبعِ لم يُتَجَشَّـمِ

وَجُودُكَ جُودٌ ليسَ بالمالِ وحــدهُ إذا نَهضتْ كَفٌّ بأعبَاءِ مغْرمِ [2]

يؤكد الشاعر أن صفة الجود في ممدوحه إنما تنبع من طبعه بعيدة عن التكلف الذي يرى في سواه، كما يدافع الشاعر عن حقيقة هذه الصفة فيه بعيدا عن الظنون، ثم يتبين أن جوده لا يقتصر على المال وحده، بل إن كفّه تحمل كل الأعباء وتغدق في كل النواحي، وقال في مدحه أيضا : (الطويل)

وما قِيسَ وفرُ المالِ في كلِّ حـالةٍ بجُودِكَ إلاَّ كانَ جـُودُك أوفَـرَا

فلا بُخْلٌ يا أكرمَ النَّاسِ مَعشــرًا وأطيبَ أبناءِ النبيّينَ عُنصـــــرَا

فإنَّك لم تترك على الأرضِ جَاهلاً وإنَّك لم تتْرُك على الأرض مُعْسِرَا [3]

ويثني الشاعر هنا على سيده عطاءه الوفير، ويجعل منه جوادا كريما سليل الأنبياء فهو فاطمي النسب، و تعدد أسماء التفضيل (أوفر،أكرم،أطيب) له دلالة خاصة وهي تفضيله على الناس وجعله أجود خلق الله قاطبة كما جعل منه مصلحا رائدا بمحوه للأمية ونشره للعلم، وقضائه على الفقر وهذا العمل لا يكون إلا لأهل العزم من الرجال .

وقال يمدح إبراهيم بن جعفر بن علي * : (الطويل)

---

* **هو** الأمير جعفر بن علي بن حمدون أمير المحمدية **(المسيلة)** أيام الفاطميين .

(1) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ،ص 241 .

(2) **المصدر نفسه** : ص189.

(3) **المصدر نفسه** : ص100.

وقد عمَّ منْ في ذلك الثَّغْرِ نائلاً   كما افْتَرَقَتْ تَهْمِي من المُزن فُرّقُهْ (1)

فالشاعر يصور سخاء الأمير في صورة رائعة فيشبه عطاء الممدوح العميم في أهله ورعيته، كالسحابة الماطرة التي لا تنقطع خيراتها، فعطاؤه غيث نافع، يحي المحتاجين مثل ما يحي الماء العشب، وفي الفترة الصنهاجية نجد الشاعر ابن رشيق* من الشعراء الذين قلَّ ممْدُوحُوهم، وقد استأثر بذلك المعز بن باديس* الذي عثرنا له على هذه المقطوعة في كتاب الذخيرة لابن بسام يقول فيها :

(الطويل)

معزَّ الهُدى لازال عهدُكَ دانيَا   وزيَّنْتَ الدُّنــيا لنا بحيَاتِـكاَ

أَتَتْنِي أُنْثَى يَعْلَــمُ اللهُ أنَّنِــي   سُرِرْتُ بِها إذ أمُّهَا من هِباتِكَا

وقد كُنتُ أرْجو أنَّها ذو بلاغةٍ   يقُومُ مَقامِي في بديـعِ صفاتِكَا

وما نحنُ إلاَّ نَبْتُ جُودِكَ كُلُّنَا   وكلُّ نباتِ الأرضِ من بركاتِكَا (2)

فيعرض ابن رشيق أخبارا هامة عن أسرته، فزوجته هبة من المعز وهذا إقرار بعطاياه، وفي البيت الأخير يؤكد جود وكرم سيده في وجود هذه الأسرة، فجوده غيث أعطى الحياة لهذه الأسرة وللناس أجمعين، فكل نبات في الأرض هو من بركة الممدوح، فدلت الصورة البيانية (نبت جودك) التي شبه فيها الجود بالنبات و أفصحت عن خيره الكريم ونعمه التي طالت الجميع، وقال يمدح الأمير تميم * :

(الطويل)

أصَحُّ وأقْوى ما سمعناهُ في النَّدَى   من الخَبرِ المأثُــورِ منذُ قديــمِ

أحاديثُ تَرْوِيهَا السُّيولُ عَنِ الحَيا   عَنِ البَحْرِ عَنْ كَفِّ الأميرِ تَمِيمِ (3)

فابن رشيق يجعل من تميم بن المعز الصنهاجي رجلا كريما جوادا، وهذا الجود فيه أقوى من الأخبار المأثورة التي تتوارثها الأجيال، وقد وظف الاستعارة (أحاديث ترويها السيول) لبيان كرمه الفياض على المحتاجين، فهو كالسيول التي تحكي الخصب والنماء، بل أعظم من ذلك فهو بحر كثير العطاء والذي خيره لا ينقطع كل هذا عن كف الأمير

المدح بالقوة والشجاعة :

* ابراهيم ابن الأمير جعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب .

(1) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص283.

* **هو** أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني ،أبوه رشيق مولى من موالي الأزد ،ولد بالمحمدية سنة 390هـ ونشأ وتأدّب بها يسيرا ،وتعلم صنعة الصياغة عن أبيه ،وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم ،وتاقت نفسه إلى المزيد من ذلك وملاقاة أهل الأدب فهاجر إلى القيروان سنة 406هـ،فأخذ عن علمائها ،واتصل بالبلاط الصنهاجي وبالمعز بن باديس سنة417 هـ ومدحه وتجذرت العلاقات معه إلى أن داهمت القيروان الأحداث التي عصفت بها فانتقل مع صاحبه إلى المهدية فارا من بطش الهلاليين ،ومنها خرج إلى صقلية وبقي هناك حتى توفي سنة 456 هـ .

* **الأمير الصنهاجي** الذي أعلن الانفصال رسميا عن الخلافة الفاطمية (انظر الفصل الأول ص 52) .

(2) **أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني** :الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق4 ، مج 1، ص611،612.

* **تولى الخلافة** بعد موت المعز بن باديس (أنظر الفصل الأول ص55) .

(3) **ابــن رشيــق** : الديوان ، شرح صلاح الدين هواري وهدى عودة ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت ، ص 143.

لقد عني شعراؤنا بوصف ممدوحيهم بصفات الشجاعة والقوة والإقدام وغيرها لأن هده الصفات محببة في الرجل العربي، وقد احتفى بها القدماء كثيرا[1] وهذا شاعرنا بكر بن حماد يمدح الأمير أبا العيش* فيقول :

(الكامل)

سَائل زواغَةَ * عن فِعَال سُيـوفِهِ ورِمَاحِهِ في العَارضِ المُتَهَـــلِّلِ

وديَارَ نفزةَ * كيفَ دَاسَ حرِيمَهَا والخَيْلُ تمْرَغُ بالوَشِيجِ الذُّبــلِ

وغشَّى مغِيلةَ *بالسُّيُوفِ مذلـّـةً وسَقَى جرّاوةَ *من نقيعِ الحَنْظَلِ [2]

من هذه الأبيات تبدو سمات القصيدة العربية واضحة، وتكشف عن جانب القوة في الممدوح فهو صاحب شجاعة، أذل رقاب المتمردين من قبائل (نفزة،مغيلة،جراوة)، وهو مقدام لا يهاب المخاطر، كل هذا جاء في أسلوب قائم على التقرير و الإخبار، واستخدامه لفعل الأمر حتى تظنه خطيبا يتحدث آمرا سامعيه .

ويمدح الشاعر عبد الكريم النهشلي* المنصور بن بلكين ويصف شجاعته وقوته قائلا : (الطويل)

وما بلدٌ لم يُؤتِكَ الطوعَ أهلُـــهَا بآمـــنةٍ أن لا تُـدكَ هِضــابُهَا

تحطُّ بها الأسْدُ الضَّواري خواضعًا لديْك ولــو أنَّ الكواكـــبَ غابُهَا

تهابُكَ آفاتُ الخُطوُبِ فتنتهِــي ولا تنتهي عن خطَّــةٍ فتــهَابُهَا

ولوْ أنَّها عاصتْكَ غير مُجيـــبةٍ أجابَتْكَ من تحتِ السُيُوفِ رقابُهَا

رماحُك أحناءُ الضُّلوعِ نِقافُــهَا وخيلُكَ تامُورُ النُّفُــوسِ شَرابُهَا [3]

يستعمل عبد الكريم النهشلي عدة صور تتمثل في استعارات مكنية (أجابتك من تحت السيوف رقابها) (تهابك آفات الخطوب) كلها تكشف عن قوة جيش الممدوح الذي يملك العدة والعدد، و لا يترك الفرصة لأعدائه حتى يدكّهم، و يبالغ في قوة وشجاعة ممدوحه التي تجعل الأسود الضارية تهابه وتسلم له خاضعة.

ويقول ابن قاضي ميلة في مدح ثقة الدولة : (الطويل)

حسامٌ على مَنْ نَاصبَ الدّينَ مُصْلَتٌ وستْرٌ على من راقب اللّه مُغدفُ

يسَايرهُ جيشان :رأيٌ وفيلـــــقٌ ويصحبهُ سيفان :عزمٌ و مرهفُ

([1]) **ينظــر:أحمد محمد النجار**:أساليب الصناعة في الشعر الجاهلي، الصدر لخدمات الطباعة ، مصر ، ط1، 1966،ص 192.

* أبو العيش عيسى بن إدريس من أبناء محمد بن سليمان دفين قرية عين الحوت بالقرب من تلمسان .

* **زواغة** : اسم قبائل بربرية كانت غرب مدينة جراوة ثم انتقلت إلى تلمسان واستوطنتها .

* **نفــزة** : اسم قبائل بربرية مغربية استوطنت ناحية تلمسان .

* **مغيلة** : اسم قبائل بربرية كانت تسكن الجبال ناحية فاس.

* **جرَّاوة** : اسم مدينة قديمة أسسها أبو العيش عام 257هــ على الضفة اليسرى من وادي ملوية .

([2]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد ، ص 74 .

* هو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي،ولد بالمحمدية(المسيلة) نشأ فيها وفي سنة 345هــ هاجر إلى القيروان أيام المعز لدين الله الفاطمي والتقى بابن هانئ هناك ،ودخل في خدمة الصنهاجيين فكان كاتبا لهم في ديوان الرسائل ،صحب المنصور بن بلكين وابنه باديس و كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب،وأشعارها توفي بالمهدية (بتونس) سنة 405هــ

([3]) **د/شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ،ص 132 .

مُطّلٌ على من شاءهُ فكـــأنَّــــما على حُكمه صَرْفُ الرَّدَى يَتَصرَّفُ (1)

يرمز الشاعر بالسيف المسلول على الأعداء لصفة القوة والشجاعة والإقدام التي يتميز بها ممدوحه، فهو حامي حمى الإسلام في الجزيرة، وهو ذو حزم وبطش على أعدائه، وذو ستر ورحمة وكرم على أهله، ولذلك يرافقه جيشان من حزمه، وله سيفان سيف للعزم وآخر للرأفة، فالمعنى يدور حول ثنائيات (البطش، الرحمة) (الصرامة، اللين) وهذا دليل على قوة الرأي والحكمة وقوة البطش والحزم، وهي من صفات البطولة في القائد العظيم.

وقال ابن هانئ يمدح جوهر الصقلي* ويثني عليه شجاعته وحنكته العسكرية وقوته القتالية، ويذكر الوقائع التي خاضها هذا القائد ما بين سجلماسة وفاس حتى بلغ ساحل البحر، ويتحدث عن رؤوس الأعداء الذين ظفر بهم، وأسر منهم من أسر وقتل منهم من قتل كل ذلك صوَّره الشاعر في صورة ساخرة كاريكاتورية:

(الطويل)

وأدركت سُولاً في ابن واسُولَ* عنْوةً وزحْزَحتَ منه يذْبُلاً فتزحزحَـا

يمُوت ويحيَا بــين راجٍ وآيِـــسٍ فكان له الهُلْكُ المُواشِكُ أرْوحَـا

وقد سلبتْهُ الزَّاعبيةُ مـا ادَّعــى فأصبح تِنِّينًا وأمْسَى دُرحْرحَـا

وكان الجُذاميُّ الطَّويــلُ نجـادُهُ بهيمًا مدى أعْصَارِهِ فتوضَّحَا

عجلـتَ له بطْـــشًا وإنَّ وراءهُ لخرْقًا من البيدِ المَرُورَاتِ أفيَحَا (2)

الأبيات وصف لمعركة تاريخية يظهر فيها الجيش الفاطمي قوي البأس يقضي على كل تمرد داخل المغرب مهما كان صاحب هذا التمرد فالهزيمة لاحقة به، وهذا النصر إنما هو من إقدام وشجاعة الممدوح الذي لا يتوانى لحظة في ضرب أعدائه، ويواصل وصف قوة المعارك التي يخوضها فيقول: (الطويل)

ليالي حروبٍ كنَّ شُهْبًا ثواقبًا لها شُعَلٌ كانت سَمائمَ لُفَّحَـا

رأى ابنُ سفيانَ فيهَا رَشَادَهُ وعفَّى على أثْرِ الفَسادِ وأصْلحَا

وفي آلِ موسى قد شننْتَ وقائعًا أهبْتَ لهم تلك الزَعَازعَ* لُقَّحَا (3)

نلاحظ أنّ الشاعر بنى النص من كلمات تنتمي إلى الحقل الدلالي الحربي (ليالي حروب، شهب ثواقب، شعل، ، وقائع، زعازع، لقح) كما يغلب على الجمل والألفاظ معاني الانتصار الساحق فالمعارك

---

(1) **المرجع السابق** : ص 134 .

* **هو** مملوك رومي رباه المعز لدين الله وجعله قائد الجيوش ، يدعى جوهر الصقلي نسبة إلى صقلية .

* **هو** محمد بن الفتح أمير سجلماسة .

(2) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 382،383 .

* **الزعازع** : الشدائد .

(3) **المصدر نفسه** : ص 385 .

شديدة كالشهب أحرقت أعداء ممدوحه، وهؤلاء الأعداء هم بنو أمية في المشرق بذكر أبي سفيان، و وفي المغرب بذكر موسى بن أبي العافية قائد الأمويين بالمغرب الأقصى .

ويمدح في جعفر بن علي إقدامه وبسالته في حرب أبي يزيد بن مخلد الخارجي* وكيف حاصره في قلعة كتامة حين لجأ إليها حتى تم القضاء عليه وأصبح ببلائه الحسن ونجاحه في خوض المعارك أميرا على الزاب واتخذ المسيلة (المحمدية) عاصمة له، فيصف الشاعر شجاعة وقوة جعفر في هذه المعركة قائلا :

بلَى !هذه تيماءُ والأبْلقُ الفردُ   فسَلْ أجَمَاتِ الأسدِ ما فعل الأسدُ   (الطويل)

حرُوريَّةٌ ما كبَّر اللهَ خاطبٌ   عليها ولا حيًّا بها ملكًا وفْـــدُ [1]

وسجل الشاعر بطولة جعفر الرائعة في القضاء على ثورة الخارجي ابن مخلد، وهذا بفضل شجاعته ومقدرته القتالية كما نلاحظ تمثيلا بالأماكن، فقلعة حروراء معقل الخوارج بالكوفة، وتيماء هي قلعة جعفر التي حررها من الخوارج وجعلها عامرة بالتكبير والذكر والوفادة .

والشاعر ابن هانئ يمثل لسان حال الفاطميين في كل مسعاهم بالمغرب وحتى بمصر عند رحيلهم إليها فعاش حياته لهم قلبا وقالبا وصور أمجادهم في شعره وسجل بطولاتهم ونصرهم وصور خصومهم والمناوئين لهم من بني أمية وبني العباس، وقد عمهم الهوان ودحرتهم الهزيمة الماحقة كل هذا يحيل إلى قوة وشجاعة ممدوحيه الذين هم في الأساس دعاة المذهب الشيعي فيقول في مدح المعز :   (الكامل)

وأميّةُ تُحْفي* السُّؤالَ وما لِمَنْ   أودى به الطُّوفانُ يَذكُـــرُ نُوحَا

بُهِتُوا وهم يتَوَهَمُونَك بـــارزًا   والتَّاج مُؤتلقًا عليْـــك لَمُوحَا

تتجاوبُ الدُّنيا عليهم مأتمًا   فكأنَّما صَبَّحْتَهُـــم تَصْبيحَا

فكأنَّ جدَّك في فَوارِسِ هَاشِمٍ   منهم بحيثُ يَرَى الحُسينَ ذَبيحَا [2]

يصور ابن هانئ قوة وتنظيم الجيش الفاطمي، ويعزو هذا إلى تدبير المعز لدين الله الفاطمي، و قد استحضر في ذلك التاريخ والدين من خلال قصة نوح والطوفان ونتائجها، والحسين بن علي رضي الله عنه، كلها رموز تحمل صفات البطولة والشجاعة والإباء لشخصيات خلدها الدين والتاريخ.

والشاعر جعل من هذا كله رمزا لانتصارات سيده أمام ألد خصومه من بني أمية وكيف صورهم صاغرين نادمين بعد فوات الأوان عن طاعته، كما لا ينفع الندم مع ذكر نوح بعد الغرق الذي أصاب قومه،

---

* تزعم أكبر حركة معارضة ضد الفاطميين وكاد يقضي على خلافتهم ، قتل في عهد المنصور الفاطمي عام 336 هـ (**ينظر**: الفصل الأول ص 31،32) .

[1] **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 243 .

* **تحفـــي** : تردد .

[2] **المصدر نفسه** : ص 55.

فالقصيدة من الشعر التاريخي الثقافي الذي يتحدث عن أحداث تعرضت لها الدولة الفاطمية ذات العقيدة الشيعية وما تعرضت له، ويقول أيضا في مدح المعز لدين الله : (الكامل)

أسَفِي على الأحْرارِ قَلَّ حفاظُهمْ إنْ كان يُغنِي الحُرَّ أنْ يتأسَّفَا
فتربَّصُوا فاللهُ مُنجِزُ وَعدِهِ قد آنَ للظلْمَاءِ أن تَتَكشَّفَا
هذا المعزُّ ابنُ النَّبيّ المصطفى سيذُبُّ عن حَرَمِ النبيّ المصطفى [1]

وبنبرة الأسف والتحسر على قلة الرجال الأحرار، وفي جو من الظلام الذي تعيشه الأمة يأتي الخلاص ممن يذبون على آل البيت وهو المعز ممدوحه .

وهذا الشاعر ابن رشيق يثني على ممدوحه المعز بن باديس نفس الصفات فيقول : (البسيط)

إذا توجَّهَ في أُولى كتائِبِهِ لم تَفْرِقِ العَينُ بين السَّهْلِ والجَبَلِ
فالجيشُ ينفضُ حَوْلَيْهِ أسِنَّتَه نَفضَ العُقابِ جَناحَيْهِ من البَلَلِ
يأتِي الأمُورَ على رِفقٍ وفي دَعةٍ عَجْلانَ كالفَلَكِ الدوَّارِ في مَهَلِ [2]

الممدوح رجل قوي وشجاع عند إدارته المعارك، وهو مقدام جريء يقتحم الأهوال، ولقوّة جيشه يستوي السهل والجبل فيقذف الرعب في أعدائه قبل المعركة، كل هذه المعاني وضحها في تشابيه (الجيش ينفض نفض العقاب) (عجلان كالفلك)، فقوة الجيش ومهابته كالنسر ينفض جناحيه من البلل، والممدوح كالفلك الذي يدور في المياه بمهل، و هذا دليل على حسن الرأي وسداده ورفقه عند إدارة المعارك .

وقال أيضا يمدح سيده : (الكامل)

وغدا ابنُ ذِي يَزَنٍ بسُفْلٍ دُونهُ هِمَمًا نزلنَ به على غُمْدانِ [3]

فبعدما يمتدح الشاعر الموضع الذي حل به المعز بن باديس وهو الموضع الذي من أشرف المواضع وأعلاها في مدينة صبرة التي بناها المعز حماية للبلاد وحصنا لأهلها، فيرى ابن رشيق في ممدوحه لما قام بهذه الأعمال قد فاق أهل زمانه قوة وتخطيطا، فجعل منه بطلا مقداما موظفا هذه الإحالة التاريخية بذكر بطل يحاكي ممدوحه في الشجاعة وهو ابن ذي يزن ملك اليمن المعروف بالبطولة والشجاعة وقوة البأس .

([1]) **المصدر السابق** : ص 114،115.
([2]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 127 .
([3]) **المصدر نفسه** : ص 156 .

المدح بأصالة النسب :

من الصفات التي أثنى بها أيضا شعراؤنا على ممدوحيهم شرف وأصالة نسبهم فهم من أصول شريفة وينتسبون إلى المجد، وهم أمجاد وأعمالهم وسعيهم إنما هي نسب لمجدهم التليد.

يقول بكر بن حماد في مدح أحمد بن القاسم بن إدريس صاحب مدينة "كُرت" * : (الكامل)

وإذا تفاخَرتِ القبائلُ وانْتمَتْ   فافخرْ بفضلِ مُحمَّد وبفَاطِـــمِ

وبجعفر الطيَّارِ في دَرَجِ العُلاَ   وعليٍّ العَضْبِ* الحسامِ الصارمِ (1)

يبرز بكر أصالة ونسب ممدوحه فيذكر بكرم أرومته، فممدوحه من بيت الرسول ﷺ وعلي وفاطمة وجعفر أخيار في النسب والمجد، أما جمل الشاعر فقد وردت مفعمة باستحضار شخصيات من الموروث الحضاري والديني للأمة وفي ذلك إشارة بمجد العلويين، وهذا تأكيد لمنزلة ومجد ممدوحه الذي هو سليل فاطمة الزهراء وأي كرم وشرف أمجد من هذا ! ويمدح الشاعر ابن رشيق المعز بن باديس في قصيدة مطولة يفتتحها بمقدمة غزلية على نمط القصيدة العربية ثم يخلص إلى مدح صاحبه فيقول : (الكامل)

يا ابْنَ الأعزَّةِ من أكابرِ حِمْير   وسُلالةِ الأمْلاكِ من قحْــطانِ

من كلِّ أبْلج آمرٍ بلـــسانــهِ   يضعُ السُّيوفَ موَاضعَ التِّيجَانِ (2)

في هذين البيتين ثناء واضح لنسب الممدوح العريق الذي يعود إلى أكابر الحميريين الذين ينتهي نسبهم إلى ملوك قحطان، وإنه لشرف عظيم أن ينتمي الممدوح إلى هذه القبيلة العربية الأصيلة، إن هؤلاء الملوك الذين منهم الممدوح تعددت مناقبهم الحميدة، وتعددت مآثرهم العظيمة وعلا ذكرهم، فمجدهم تليد وشرفهم رفيع وتذكير الشاعر بهذا النسب العريق هو إشادة بالممدوح وما له من شرف المجد وكرم النسب، وقال ابن هانئ في مدح الخليفة الفاطمي يثني عليه نسبه الشريف المتصل بآل البيت الطاهرين ويذكر مجده الذي هو من مجدهم أصالة ونسبا : (الطويل)

وأنْ لا إمَامُ غيرُ ذي التَّاجِ تلتقِي   عليه هَوادِي مَجْدِهِ والحَــوارِكُ

له نسبُ الزَّهـــراءِ دِنْيًا يَخَصّـُـه   وسالفُ ما ضَمَّتْ عليه العَواتِكُ (3)

---

* **كـُـرت** بضم الكاف وهي مدينة قديمة كانت بالمغرب الأقصى في جبل يسمى باسمها اتخذها أحمد بن القاسم قاعدة لإمارته وقد خربها بنو محمد بن سليمان أمراء تلمسان .

* **العضب** : السيف القاطع .

(1) **محمد بن رمضان بن شاوش** : الدر الوقاد ، ص 72، 73 .

(2) **ابن رشـــيق** : الديـــوان ، ص 156 .

(3) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 125.

يستعمل الشاعر ألفاظ (التاج، الهوادي، الحوارك)، لها معاني الاستعلاء والصدارة في كل شيء، فالتاج في أعلى الرأس والهادية أول الشيء و الحارك أعلى الكاهل، كل هذا ليصور مكانة الإمامة في سيده المعز التي انتقلت إليه وراثيا، ووصلت إليه من نسبه الذي يتصل بآل البيت ويلتصق بالزهراء وخير أمهات المؤمنين اللواتي لهن الشرف الرفيع والمجد العلوي ...

وقال أيضا يذكر مجد صاحبه التليد : (الطويل)

سبقْتُمْ إلى المجْدِ القديم ِبأسْرِهِ وبُؤتُم بعَادِيٍّ على الدَّهر أقْدَمِ

وليست كما أبْقتْ ضُبَيْعَةُ أضْجَم وليس كما شَادَتْ قبائلُ جُرهَم ِ

ولكنَّ طودًا لم يُحلْحلْ رَسيُّهُ وفَارعةً قَعسَاءَ لم تُتَسَنَّمِ

إذا ما بنَاءٌ شادَهُ اللهُ وحدهُ تهدَّمتِ الدُّنيَا ولم يَتَهدَّمِ [1]

لقد تخير الشاعر مجموعة من الرموز ذات البعد التاريخي والحضاري ومنها (عاد، ضبيعة، جرهم، طود) كل هذه الكلمات رامزة إلى العراقة والشموخ والثبات، وهو استلهام من موروث الأمة القديم، يأتي بها الشاعر ويقارب بها مجد ممدوحه، بل يجعل مجده أقدم من هذه القبائل وشدته وأثره أرسخ من الطود العظيم الشامخ وبمبالغة ساحرة يجعل من ممدوحه مجدا وأثرا باقيا لأنه من صناعة الإله، فتفنى الدنيا ويبقى علما فارعا .

ثانيا: **الوصف:**

يعرف النقاد الوصف بأنه ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، قال ابن رشيق : «أصل الوصف الكشف والإظهار ويقال :قد وصف الثوب الجسم إذ نمّ عليه ولم يستره»[2] .

والوصف لم يكن غرضا بارزا تخصص له قصائد مستقلة، وإنما كان يخالط الموضوعات الأخرى ويتسرب بين تضاعيفها ولذلك قال ابن رشيق: «الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه»[3] وهذا يعني أن باب الوصف عند العرب كان من أوسع الأبواب وأكثرها شيوعا وانتشارا لأنه يدخل في كل الموضوعات الأخرى ويمتزج بها و «قلّ أن تجد قصيدة بُنيت على موضوع الوصف وحده اللهم إلا في القطع القصار»[4] فالوصف إذن كثير لكنه غير مستقل بذاته كاستغلال غرض المدح والرثاء مثلا، فالمدح وصف للممدوح وتعديد لخصاله وفضائله، والرثاء وصف للفقيد وتعديد لما كان عليه من مناقب، والفخر وصف لعراقة النسب والشجاعة وعلو الهمة.

([1]) **المصدر السابق :** ص 198 .
([2]) **ابن رشيق :** العمدة ، ج2 ، ص 295 .
([3]) **المصدر نفسه :** ج 2 ، ص 294 .
([4]) **د/عبد العزيز عتيق :** الأدب العربي في الأندلس ، ص 284 .

والغزل وصف للمرأة ومحاسنها الحسية والمعنوية، ويكون ذلك في بقية الأغراض غير أن الوصف بهذا المفهوم لا يستوعب الكثير من الأشعار التي تستقل بالوصف الخالص مما حتّم على الدارسين المحدثين التمييز بين الوصف في الشعر و بين شعر الوصف، وهذا الأخير أُطلق عليه وصف الطبيعة، ورأوا أن الطبيعة نوعان :

أولا–الطبيعة الساكنة الميتة التي لا حركة فيها ولا حياة، فجعلوا منها وصف الجبال والشعاب والأودية والسراب والأطلال والغدران والآبار والأمطار، وما يرافق انهمار الأمطار من برق ورعد وسيول، ووصف السماء بغيومها ونجومها وصفوها وكدرها، ووصف الأرض بصخورها ورمالها وأشجارها وأعشابها وواحاتها ورياضها ووصف الجو وتقلباته .

ثانيا– الطبيعة الحية المتحركة بأحيائها، وجعلوا منها عالم الحيوان وحشروا في هذا القسم صفة الحيوان الأليف كالإبل والخيل والشاء، ووصف الحيوان الوحشي كالسباع والضواري إلى جانب الحشرات والطيور، حتى اجتمع لديهم عالم متنوع زاخر من الكائنات الحية يعج بالحركة والنشاط [1] وكل هذا يلخص أن الطبيعة من الناحية الاصطلاحية تشمل الجماد والنبات والحيوان .

ولكن مع التطور الحضاري أضاف الدارسون نوعا آخر للطبيعة أطلقوا عليه الطبيعة المصنوعة تلك التي كان للإنسان فيها دخل، ويعنون بها وصف السفن والأساطيل والأبنية ، فضلا عن المظاهر الحضارية الأخرى كوصفِ القصور والنوافير والأقلام والصحف والمحابر ووسائل الحرب وما إلى ذلك من مستحدثات التطور الحضاري .

و شعر الطبيعة في الأدب العربي قديم أصيل، فقد ألقى الشعر الجاهلي بظلاله على وصف الطبيعة منذ القدم، ولو عدنا إلى دواوين الشعراء الجاهليين للمسنا ارتباطا شديدا بين الشاعر وبيئته، إذ وصف كل ما وقع تحت حسه، فوصف الطبيعة الحية من حيوان أليف وغير أليف، ووصف النبات والأشجار، كما وصف الطبيعة الميتة من رمال وكثبان وصحراء وسماء، ووصف أيضا بعض المصنوعات كالسيف والرمح والسهم وما إلى ذلك، وفي العصر الأموي ذكر الشعراء كثيرا من المشاهد التي تتميز بالحسن والجمال فنجد الشاعر ذا الرمّة الذي فاق معاصريه في باب الوصف حين أقبل على ألوان الطبيعة وصورها شعرا فامتثلها امتثالا ثم أداها في صدق وانفعال ظاهرين فبدت جديدة ممتلئة حياة ونشاطا، ونجد "العجاج وابنه رَؤُبَةُ" من الشعراء الذين أحبوا الطبيعة حيها وصامتها [2] .

([1]) **ينظر : د/غازي طليمات عرفان الأشقر** : الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه ، ص 78 .

([2]) **ينظر : محمد احدادن:** الحياة الأدبية والثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الأدب العربي ، جامعة الجزائر، 2006 ، ص 73 .

وفي العصر العباسي ومع انتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد ازدهرت الحياة الثقافية في بغداد، وتابع العباسيون اهتمامهم بالطبيعة في إطار تطورهم الحضاري النامي زمانا بعد زمان فكان فيهم أبو نواس وأبو تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز وغيرهم [1] فتطور شعر الطبيعة في عصرهم تطور الحضارة الجديدة وزاد هذا التطور خصوصا في القرنين الرابع والخامس الهجريين حين مثل هذا الاتجاه الشاعر أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبري «الذي وصف الطبيعة التي عاش لها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع في العربية، وقد مضى معاصروه من حوله ومن خلفهم في العصور التالية لا في المشرق وحده، بل في المغرب والأندلس يسيرون على هديه فيه »[2].

وشاع هذا الغرض كذلك في بلاد الأندلس بفعل سحر الطبيعة الرائعة وانعكاسها في نفوس أبنائها من الشعراء، فالأندلس تشتهر بطبيعة فاتنة في سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومنتزهاتها، وهي طبيعة سحرت ألباب الشعراء فتغنوا بمفاتنها ومشاهدها، وأما شعراء المغرب فقد ارتبطوا بطبيعة بلادهم الجميلة وأكثروا من شعر الوصف لجمال طبيعتهم التي لا تقل جمالا عن الأندلس بأنهارها وأوديتها وجبالها الشاهقة ورياضها وغاباتها وشواطئها ومناخها المعتدل الجميل .

فاتجه الشعراء إلى وصف مظاهر طبيعتهم وما تثيره من سحرها الأخاذ، وروعتها الخلابة، فجسدوا ذلك في لوحات فنية مبدعة تكشف مدى إعجابهم بالطبيعة التي تحتضنهم، فطبيعة المغرب متحرّكها وصامتها بأزهارها وخضرتها وثمارها وشمسها حركت مشاعر شعرائنا، فهاموا شوقا بما أبدعه الخالق المصور في هذا الكون، واندفعوا يصورون طبيعة بلدهم، وعلى الرغم من ضياع الكثير من الأشعار التي قيلت في هذا الشأن فإن ما استطعنا جمعه في هذا الغرض دليل على غنى الشعر المغربي القديم بوصف الطبيعة .

وقد تفاعل شعراؤنا وأبدعوا صورا جميلة لعب الخيال في تأليفها دورا كبيرا، وتعددت عندهم موضوعات الوصف مؤكدة مدى تعلق هؤلاء الشعراء بطبيعتهم، فوصفوا منها الأنهار والرياض والصبح والسحب والقصور والخضر والفواكه، وصفوا كل حي بها من حيوانات وطيور، كما وصفوا ما جدّ حضاريا من مصنوعات، كالعود والقوس والسيف والأسطول، وبعد اختيار أشعار الوصف عندهم قمنا بتصنيفها إلى ما يلي:

وصف الطبيعة الصامتة :

حَبا الله أرض المغرب بطبيعة خلابة متنوعة نعم بها الإنسان وتمتع، واهتم شعراؤنا بوصف بعض مظاهرها، وما تفننت به يد ذلك الإنسان من بساتين ورياض ودور وقصور، كما اهتموا بوصف الظواهر

([1]) **ينظر : د/ محمد رضوان الداية** : في الأدب الأندلسي ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 2000 ، ص 112.

([2]) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، مصر ،ط5، 1973، ص363.

الطبيعية الكونية كالليل والصبح والمزن والبرق وتقلبات المناخ، ومن ذلك قول بكر بن حماد واصفا جوّ مدينة تيهرت التي يكثر فيها الغيم ويشتد بها البرد: (السريع)

ما أخشنَ البردَ و ريعَانَهُ   وأطرفَ الشَّمسَ بتَاهرت
تبْدُو منَ الغَيمِ إذا مَا بَدتْ   كأنَّهَا تُنْشرُ مِن تَخْتِ
نحنُ في بحرٍ بلا لجَّةٍ   تجري بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ
نفرحُ بالشَّمسِ إذا ما بدتْ   كفرحَةِ الذميِّ بالسّبْتِ [1]

يميل شاعرنا إلى التصوير فيشبه الشمس وقت بزوغها وسط الغيوم الكثيفة بحسناء تستيقظ من نومها وقد التفت بغطاء، كما صور الريح الباردة وهي تهب من كل ناحية حتى يظن المرء وكأنه وسط بحر كثير الهدوء ومن هذه الصور يتحدث عن عروس النهار التي تستظرف كثيرا عند أهل تاهرت، فشبه فرحتهم بفرحة اليهود بيوم السبت، كما اعتمدت صور الشاعر عموما على التشبيه الذي يعد عند القدماء الأداة البيانية الأولى في الصور الشعرية، والشعراء القدامى قد «استعانوا لغرض التأثير في سامعيهم بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية وأكثرها دورانا في أشعارهم التشبيه، فلم يصفوا شيئا إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي» [2] وللشاعر عبد الكريم النهشلي قصيدة يصف فيها روضة يقول فيها: (المتقارب)

سلامٌ على طِيبِ روعتنَا   إلى القصْرِ والنَّهرِ الخَضْرَمِ
إلى مُزْبدِ الموجِ طاف لِعُبَابٍ   يهدفُ في البَانِ والسَّاسمِ
تخالُ به قطَمًا مُغْرمًا   يكِرُّ على قطَمٍ مُغْرمِ
وقد جلَّلَتْهُ بأوراقِهَا   فُرُوعٌ جلَّتَ ناطقَ اليَمِ
عَلَتْهَا الحمَامُ بتغريدِهَا   كما سَجَعَ النُّوحُ في مَأتمِ
كأنَّ شُعَاعَ الضُّحَى بنيهَا   على السَّوسَنِ الغضِّ و الحيزَمِ [3]

النص في مجمله يصف نهرا وروضة زمن الربيع، فيتتبّع الشاعر هذا المنظر متأملا، و يرسم الصورة بريشة فنان يجلس أمام مشهد الطبيعة ببساطها المخضر، ونهرها الصافي الذي يسحُّ زلالا، ومما زاد هذا النهر جمالا أنه وسط روضة مورقة الأشجار مغردة الطيور، وقد تفتحت أكمام أزهارها ولاسيما زهرة السوسن ذات الرائحة العبقة، إنه مشهد الطبيعة في زمن الربيع وجوِّه الجميل، إنها روضة حيّة بنهرها الجاري تغمر الفرحة أرجاءها ويعم السرور كل جوانبها، فقد غلب الطابع الحسي على الصور وقرب المشبه من المشبه به، بل غالبا ما شغلت الشاعر الصور

---

(1) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص61.
(2) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف ، مصر، ط7 ،1960، ص 288 .
(3) **رشيد بورويبة** : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1977 ، ص 169 .

الكلية في تصويره للنهر والروضة، وتقترب صوره من الواقع المحسوس أكثر من اقترابها من النسيج الخيالي المجرد ويعتبر هذا من أبرز خصائص الوصف .

وكثيرا ما يستهل الشاعر ابن هانئ الأندلسي مدائحه بوصف الطبيعة ويصف في هذه الأبيات روضة تحت المطر فيقول : (البسيط)

أَلُؤْلُؤٌ دَمْعُ هذا الغيثِ أم نُقَطُ؟ ما كان أحْسَنَهُ لو كَان يُلتَقطُ
بين السحابِ وبين الرِّيحِ مَلحَمةٌ قَعَائعٌ وظُبىً في الجوِّ تُختَرَطُ
أهدى لنا الرَّبيعُ إلينا روضةً أنُفًا كما تنفَّسَ عن كافُورهِ السَّفَطُ
غَمائمٌ في نواحي الجوِّ عاكفةٌ جَعْدٌ تحدَّرَ منهَا وابلٌ سَبِطُ
والبرقُ يظهرُ في لَألاءِ غُرّتِهِ قاضٍ من المُزْنِ في أحْكامِه شَطَطُ
وللجديديْنِ من طُولٍ ومن قِصَرٍ حبلانِ مُنقبضٌ عنَّا ومنبسطُ
والأرضُ تبسطُ في خدِّ الثَّرى ورقًا كما تُنَشَّرُ في حافاتِهَا البُسُطُ
والرِّيحُ تبعثُ أنفاسًا معطَّرةً مثلَ العَبيرِ بماءِ الوَردِ يُختَلطُ [1]

إن عناصر الطبيعة في هذا النص كثيرة ومتنوعة تمثلت في (الغيث ،السحاب، الربيع، البرق، الرعد، الليل النهار، الأرض، السماء،الثرى،الزهر،الروائح ...)ووظف الشاعر هذه العناصر لوصف روضة تحت انصباب المطر مما زاد في جمال هذه الروضة وبهائها، كما زينتها الأزهار وكساها الربيع ببساط أخضر تنبعث حوله أنفاس معطرة مثل العبير، وتوظيف الشاعر لأدوات البيان واضح في هذه الأبيات، فالتشبيهات كثيرة منها ما جعل صفاء قطرات المطر وحسنها كاللؤلؤ، كما جعل من علاقات الرعد والبرق والسحاب معركة عظيمة الاحتدام تنتهي بنزول المطر على الروضة البهيجة التي يهديها الربيع كثيرا من الأزهار المختلفة الألوان والروائح الذكية التي تنبعث من بعيد، و أكثر الشاعر من الاستعارات (أهدى لنا الربيع، الأرض تنبسط،الريح تنبعث...) كل ذلك ليعطي صورة دقيقة عن روضة أحياها دمع الغيث وجعل الربيع منها جنّة مديدة البساط الذي تزخرفه الأزهار بأنفاسها العطرة، وفي وصف الطبيعة كذلك نجد شاعرنا ابن رشيق يبدع عندما يصور ظاهرة المزن فيقول :

(الطويل)

خَليليَّ هل للمُزْنِ مُقْلةُ عاشِقٍ أم النَّارُ في أحشائِهَا وهْيَ لا تدري
سحابٌ حَكتْ ثَكْلَى أُصِيبتْ بواحدٍ فعاجتْ له نَحْو الرِّياضِ على قبرِ
ترقرق دمعًا في خُدودٍ توشَّحتْ مطارفُهَا بالبَرق طِرْزًا من التِّبْرِ
فوشْيٌ بلا رقْمٍ ونسْجٌ بلا يَدٍ ودمعٌ بلا عينٍ وضحْكٌ بلا ثغْرِ [2]

---

(1) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 108 ،109 .
(2) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 79،80.

بهذا التصوير الفني البديع وباستعمال عدة عناصر طبيعية (المزن، السحاب،البرق...) رسم الشاعر لوحة طبيعية رائعة جمعت لمعان البرق وقهقهة الرعد وسحّ المطر، فالشاعر يصور المزن وكأنه مقلة عاشق دَنِف يبكي محبوبته أو كامرأة ثكلى فقدت وحيدها فهي تبكي وتسكب دمعا مدرارا على خدودها متلألأ كأنه فتات من الذهب أو الفضة، وللشاعر بيت منفرد يستبعد أن لا يكون جزء من قصيدة في الوصف لاشتماله على ضمير الغائب الذي يستلزم أشياء سبقته، وهذا البيت يذكر فيه وادي المحمدية (المسيلة) الذي لا يزال موجودا في عصرنا هذا، تسقى بمائه الغزير سهول المسيلة ويقول فيه : (الكامل)

تحكـي غواربُهُ غَواربَ بُـزَّلٍ جـاءت بغير قوادمٍ وهَوادِي [1]

فيشبه أعالي أمواج الوادي بغوارب الإبل المسنة التي جاءت بغير قوادم وهوادي، كما اعتمد الشاعر في توضيح صورته على الجناس التام (غوارب الماء،غوارب الإبل) كشيء من الصنعة التي تزيد في جمالية البيت.

وصف الطبيعة الحيوانية :

وقد التفتَ شعراؤنا إلى وصف الحيوانات التي تشاركهم حياتهم كالخيل والفرس وبعض الحيوانات البحرية لقرب حياتهم من البحر الذي تمتد سواحله بالمغرب فوصفوا أسماكه صغيرة وكبيرة، كما طال وصفهم بعض الطيور على اختلاف أنواعها، ونلاحظ أن الشاعر عبد الكريم النهشلي لم يخرج عن سنن ممن قبله في الاهتمام بتدقيق النظر في جسم الحيوان ووصف جميع أعضائه فقال في وصف الفيل: (الطويل)

وأضخمُ هنديّ النَّجَـارِ تعـدُّهُ مُلوكُ بني سَاسان إنْ نابهَا دَهْـرُ
يجيء كطودٍ جائلٍ فوق أربـعٍ مُضبَّرةٍ* لُمّتْ كما لُمّـتِ الصَّـخرُ
له فخـذانِ كالكَثِيبيْن لبـدًا وصدرٌ كما أوفى من الهَضبة الصَّدرُ
ووجهٌ به أنفٌ كرَاوُوقِ *خُمـرةٍ ينالُ به ما تُدرِكُ الأنْمُـلُ العَشْـرُ
وأذنٌ كنصفِ البَردِ تَسمعُـهُ النَّـدى خفيًّا وطرفٌ ينْفضُ العَنَتَ مُزوّرُ
له لون ما بين النَهـار وليْـلهِ إذا نطق العُصفورُ أو غَلَّسَ الصَّقْرُ [2]

فالمتلقي حين يسمع القصيدة يتراءى له فيل ضخم رأي العين، يعكس هذا اهتمام الشاعر بوصف المظهر الخارجي للفيل، فأبرز كل طرف من أطرافه (الأذن، الناب، الأنف، الفخذين، القوائم...) .

([1]) **المصدر السابق** : ص 67 .
***مضبرة** : مكتنزة اللحم .
***راووق** : إبريق الخمر .
([2]) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 175 .

فقد وصف لنا الفيل عند سيره مقتديا بالجاهليين الذين كانوا «إذا وصفوا شيئا أدقوا النظر في أجزائه وخير مثال على ذلك وصف طرفة لناقته، فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة، ولم يترك فيها شيئا دون وصف أو بيان » [1].

وما يلاحظ في هذه القصيدة كثرة التشبيهات، كما غلب الطابع الحسي على عموم صوره، وجعلها قريبة المأخذ حتى كاد يجعل الفيل الضخم يتحرك أمامنا وهذا أسلوب محمود في الوصف عند القدماء كما يرى ابن رشيق «وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع»[2].

فشبه الفيل بالطود في ضخامته وهو من التشابيه المألوفة في القصيدة العربية، وشبه فخذيه بالكثيبين وشبه أذنه بنصف البرد، وشبه أنفه بالراووق، وغير ذلك في التشابيه المزدحمة بين ثنايا الأبيات التي أحاطت بوصف المشهد .

وبنفس القافية يصف النهشلي الخيل التي كانت ضمن هدية نزار الخليفة الفاطمي بالقاهرة إلى المنصور بن بلكين الصنهاجي سنة 384هـ فيقول : (الطويل)

وبُلْقٌ تقاسمْنَ الدُجُنَّةَ والضُحَى ... فمن هذه شَطْرٌ ومن هذه شَطْرُ
وصُفْرٌ كأنَّ الزَعْفرانَ خِضَابُها ... وإلَّا فمِنْ ماءِ العَقيقِ لها قِشْرُ
وشُهْبٌ من اللُجّ اسْتُعيرتْ مُتُونُهَا ... ومن صُوَرِ الأقمار أوْجُهها قَمْرُ
عليها السرُوجُ المُحْكَماتُ إذا مشتْ ... بها خُيَلاَءُ الخَيلِ رَنَّحها كِبْرُ [3]

يلاحظ الشاعر الخيل ويصور لنا ألوانها ففيها السواد والبياض، فكأن الظلام والنور اقتسما لون الخيل وأعطى لكل نصيبا، ومن الخيل ما لونها أصفر كأنها خضبت بالزعفران أو بقشر من ماء العقيق، ومن الخيل كذلك شهب اختلط فيها بياض الشعر بسواده كأنها استعارت ظهورها من الليل وظلمته الشديدة وأما أوجهها فمضيئة ضياء القمر الساطع، وتمشي مزهوة بنفسها مشية الخيلاء المتعالية، لقد استعمل الشاعر تشابيه كثيرة، ورسم من خلالها الألوان المختلفة للخيل التي أعجب بها .

---

(1) **ينظر: إيليا حاوي**:فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط3، 1980، ص 38،39.
(2) **ابن رشيق** : العمدة ،ج2، ص130.
(3) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص173 .

وقال ابن قاضي ميلة في وصف قرش: (المتقارب)

وأشْغَى بفكَّيْهِ مثلُ المُـــــدى طويلُ القِرَا* مُدمَـجُ الأعظمِ
تصرُّفُه في ضـمَانِ الميـــَــاه ومُهْجَتُهُ في يَدِ الخِضْـرَمِ
يخافُ الهواءَ ويخشى الضِّـياءَ وإنْ كَـان أجْرأَ من ضَيْغَمِ
له داخل اليمّ بطْشُ الأسُـودِ وتَصْحَبُه مشيـةُ الأرقـــمِ (1)

اعتمد الشاعر على الوصف التشريحي لهذا الحيوان البحري، فذكر أن أسنانه مختلفة في نظامها وشبه ذلك بالمدى والسكاكين، وأنه طويل الظهر عظامه مدمجة مع لحمه، كما صور لنا بعض خصوصيات حياته التي تتناسب وطبيعته فهو لا يعيش إلا في الماء، ويخاف الهواء والضياء، وإن كان أجرأ من أسد فاتك، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل في داخله يتحرك، وهو وصف يميل إلى العلمية أكثر منه إلى الفنية.

و قد نعت الشاعر موصوفه وذكر الشيء كما فيه من أحوال و هيئات حتى كاد يمثله عيانا للسامع، وقد اعتمد على التشبيه في ذلك لتقريب صورة هذا الحيوان الذي مهجته في يد البحر المتلاطم على حد تعبير الشاعر، و اهتم شعراؤنا بوصف الطيور، وهذا الشاعر عبد الله بن محمد الجُراوي * يبدع في تصوير ديك فيقـول :

وكائنٍ نَفَى النَّومَ عن عُتْرَفَانِ بديعَ المِلاحَةِ حُلْوَ المعـَـانِي (المتقارب)
بأجْفانِ عَيْنيْهِ ياقُوتتـَـانِ كأنَّ ومِيضَهُمَا جَمْرتـَـــانِ
على رأسِه التَّاجُ مُسْتشْرِفًا كتَاجِ ابن هُرمُز في المِهرجَـانِ
وقُرْطَان من جَوهرٍ أحمَـر يزينَانِهِ زينَ قُرطَ الحَصَـانِ
له عُنقٌ حَـولهَا رَونَـــقٌ كما حوَتِ الخَمْرَ إحدَى القنانِي (2)

يضع الشاعر هذا الديك في صورة بديعة عندما انتفى عنه النوم وظل دائم السهر والسهاد، فدقق وصف أعضائه وجعله غاية في الجمال والملاحة، بأجفانه ياقوتتان تلمعان كأنهما جمرتان وعلى رأسه تاج شبيه بتاج ابن هرمز في احتفال يوم المهرجان، وهذا توظيف تاريخي بارز، وله قرطان من الياقوت الأحمر اللذان يزينان المرأة العفيفة الطاهرة، وترى حول عنقه رونق من الجمال الرائع وله ريش زاه بديع، وبكثرة التشبيهات لأعضاء جسمه جعل منه آية في الملاحة و الجمال .

ويواصل الشاعر وصفه فيقول : (المتقارب)

---

* **القـــرا** : الظهر .

(1) **المصدر السابق** : ص 213.

* هو عبد الله بن محمد الجراوي نسبة إلى موضع بين قسنطينة وقلعة بني حماد ،نشأ وتأدب بها ثم هاجر إلى حاضرة القيروان سنة 407 هــ ، كان شاعرا فحلا، وصافا دربا بالخبر والنسب، جيد الفكر والخاطر .

(2) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 218.

فقام به ذنَبٌ معجـــبٌ   كبَاقةِ زهـرٍ بدتْ منْ بـــنَانِ
وقاسَ جَناحًا على ساقِــهِ   كما قِيسَ سِتْرٌ على خَيـْزُرانِ
وصفّقَ تصفيقَ مُسْتهتِــرٍ   بمُحْمَرَّةٍ من بناتِ الدِنِـــــان
وغَرَّدَ تَغريدَ ذي لوعــةٍ   يبُوحُ بأشواقِهِ للغوانِـــــي [1]

وكأن الديك أمامنا يرفرف بجناحيه على ساقه، وكأنه مقيس عليه كستر يسدل على خيزران، وقام بالتصفيق مخمورا، وغرد تغريد ملتاع يبوح للغواني بأشواقه الحارة .

وصف الطبيعة النباتية :

ومن الموضوعات التي شغلت شعراءنا وصف الأشجار والأزهار التي كانت تزين بساتين وحدائق المغرب فقد فتنوا بأزهارها وبثمارها فيقول الشاعر ابن هانئ الأندلسي في وصف زهر الرمان :

وبِنْت أيْكٍ كالشَّبابِ النَّضْرِ   كأنَّهـا بيـن الغُصُونِ الخُــضْرِ (الرجز)
جَنانُ بَازٍ أو جَنانُ صَقْــرٍ   قد خَلَّفَتْـهُ لَقْـوَةٌ *بِوَكْـــــــرِ
كأنَّما مجّتْ دمًا من نحــرٍ   أو نَشأتْ في تُربَـةٍ من جَمْـــرِ
أوْ روِيَتْ بجَدْولٍ من خَمْـرٍ   لو كَفَّ عنْهَا الدَّهْرُ صَرْفَ الدَّهْرِ
جاءتْ بمثْلِ النَّهْدِ فوق الصَّدرِ   تفْتَرُّ عن مثلِ اللثَـاتِ الحُمُــــرِ [2]

الشاعر ابن هانئ مفتون بطبيعة المغرب و ببساتينها التي تحوي الثمار والأزهار، فتراه في هذه الأبيات معجب بزهر الرمان الذي يغطي مساحات شاسعة من هضاب المنطقة، وخاصة على ضفاف وادي المسيلة التي كان يقيم بها فشبه هذه الزهرة التي كناها ببنت الأيك في جمالها ونضارتها وهي بين الغصون كالشباب النضر كما صورها، وجعل منها لب الباز أو الصقر تركته أنثى العقاب في وكرها ثم راح يتابع نموها في تصوير بديع فهاهي الجمرة المتلألئة فلو تخطئها صروف الدهر ويتعهدها صاحبها بما يكفي من الاعتناء لأثمرت لنا ثمارا أكثر جمالا و بهاء من زهرها، وتزيد بريقا ولمعانا أكثر من اللثات الحمر.

فالأبيات اكتظت بالتشابيه لتوضيح صورة الموصوف للقارئ، كما لمسنا قرب المشبه من المشبه به في كامل الصور التي غلب عليها الطابع الحسي الذي هو من خصائص غرض الوصف .

وللشاعر ابن رشيق أكثر من مقطوعة يصف فيها الأشجار والأزهار والثمار صراحة وضمنيا، ويبدو أنه كان عاشقا لكثير من الفواكه، وله أكثر من صورة في ذلك فقال في المشمش :

كأنَّما المِشْمشُ لـمّـا بـــــدتْ   أشجارُهُ وَهْوَ بها يَلتهِـــبْ (السريع)

([1]) **المصدر السابق** : ص 219 .
* **اللقـــوة** : أنثى العقاب .
([2]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 469،470.

خُضْرُ قِبابِ المُلْكِ حفّتْ بها جَلاجلٌ مَصْقولةٌ من ذَهَــبْ [1]

يشبه ثمر المشمش وقد نضج على أشجاره بقباب الملك ذات اللون الأخضر، وقد أحيطت بأجراس مصنوعة من ذهب، فجعل من حبات المشمش أجراسا ذهبية و من الأشجار الخضراء هي قباب .

وقال يصف زهر شقيق النعمان: (الوافر)

رأيتُ شقيقةً حَمْراءَ بـادٍ على أطْرافِها لَطْخُ السَّـــوادِ
يلوحُ بها كأحْسنِ ما تَراهُ على شَفَةِ الصَّبيِّ من المِـدَادِ [2]

تظهر قدرة الشاعر بوضوح على تشخيص المظاهر الطبيعية بدقة، ففـي هـذه الصـورة الـتي شبه فيهـا شـقائق النعمان وقد لطخت أطرافها بنقط سوداء بشفة الطفل الصغير التي زاد جمال حمرتها بالسواد، فجمال الصـورة لا يكمن في التشبيه المركب فقط بقدر ما يكمن في امتزاج الصورة باللون فضلا عن المشاكلة بين الصورة والإيقاع.

وصف الطبيعة المصنوعة :

لقد تفاعل شعراؤنا مع الطبيعة المصنوعة وأبدعوا لنا صورا جميلة لعب الخيـال في تأليفهـا دورا كـبيرا فوصفوا كل ما كان للإنسان لمسة فيه فضلا عن وصف بعض المظاهر الحضارية .

وللشاعر ابن قاضي ميلة أبيات في وصف عود، الذي مصدره من أغصان الشجر يقول فيها :

جاءتْ بعودٍ يُناغيهَا ويُسْعــدُهَا انْظُرْ بَدائِعَ ما يأتي به الشَّجرُ (البسيط)
غنَّتْ عليه ضُروبُ الطيرِ ساجعةً حينًا فلمَّا ذَوَى غنَّى به البشــرُ
فلاَ يَزالُ عَليهِ أوْ بهِ طـَــــــربٌ يُهيجُهُ الأعْجَمان الطيرُ والوتــرُ [3]

يتأمل الشاعر وسيلة من وسائل العزف والطرب، ويتعجب مـن التحـول الـذي يطـرأ علـى هـذا العـود الـذي مصدره أغصان الشجر، فقد كانت ضروب من الطير وصنوفه تمرح عليه وتغني، و هو موصول بشـجرته، فلمـا قطع منها وذوى هاهو الإنسان يشد عليه بأوتار ويغنى عليه وينشد كما فعل به الطير من قبل، وكأنما يهيجه طوال حياته أعجمان الطير قديما والوتر حديثا .

ويظهر إعجاب الشاعر ابن هانئ الأندلسي واضحا بمظلة كان يلبسها المعز لـدين الله الفـاطمي ممتلئـة بالنقوش والجواهر فقال في وصفها : (الكامل)

وعلَى أميــرِ المُؤمنينَ غَمَامـــــــةٌ نشَأتْ تُظلِّلُ تَاجَهُ تظليــــــلاَ
نَهضتْ بثِقْلِ الدُرِّ ضُوعِف نَسْجُهَا فَجَرَتْ عَليْهِ عَسْجَدًا*مَحْـلُولاَ

([1]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص38 .
([2]) **المصدر نفسه** : ص 66 .
([3]) **د/شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 184 .
* **العسجد** : الذهب .

أيْكيَّةُ الذَّهَبِ*المُرصَّعِ رَفْرفَـــــتْ   فيهَا حَمَامٌ ما دَعَوْنَ هَديـــلاَ
وتُبَاشرُ الفَلَكَ الأَثِيرَ كأنَّـــــــمَا   تبغِي بِهنَّ إلى السَّمـاء رَحـيلاَ [1]

و هذا شاعر الفاطميين ابن هـانئ الأندلسـي تسـتوقفه مظلـة المعـز لـدين الله الفـاطمي الـتي يـدعو شـكلها إلى الإعجاب، ومظلة خلفاء بني عُبيد ظاهرة متميزة تلفت الانتبـاه، فقـد سـبق وأن وصـفت كـثيرا وممـا قـالوا عنها: «فيـها خطاطيف لطاف و حلق يمسك بعضها بعضـا تـنظم وتنفـتح و رأسـها كالرمانـة ويعلـوه أيضـا رمانة صغيرة كلها ذهب مرصّع بجوهر»[2].

وعلى غرار ذلك وصف شاعرنا مظلة سيده التي كان يلبسها في موكبه، فهي مزخرفة منقوشة بالـذهب فيها صور تمثل الأيك والحمام، ولكن الحمام المعروف الذي يدعى هـديلا وهـي مبالغـة طريفـة حملتهـا هـذه الصورة للرفع من شأن صاحبه الذي يسمو بمظلته حتى مواقع الأفلاك .

كما شغلت بال شعرائنا موضوعات الأسلحة فوصفوها وأكثروا فيها القول، ولا غرابة في ذلك لأن أرض المغرب كانت مسرحا للجهاد في سبيل نشر الإسـلام والـتمكين لـه والـدفاع عـن حمـاه، ورد هجمـات العــدو وكانت حروبا لا تهدأ، بالإضافة إلى بعض الفتن التي كانت تثـور بـين الفينـة والأخـرى بسـبب المناصـب أو بسبب العصبيات أو بعض الاختلاف المذهبي كالذي تطرقنا له بين الفاطميين وغيرهم .

ولا شك أنه من بين الأعمال الكبيرة التي قام به المعـز الفـاطمي إنشـاء أسـطول عظـيم قهـر بـه الـروم وسلطه على دار الأمويين بالأندلس، واستعمله لإمداد قائده جوهر بالعساكر والمؤن عندما غزا مصـر، وتوزعـت السفن الفاطمية في عرض البحر المتوسط ثم في البحر الأحمر، وفي جزيرة صقلية وغيرها، ولابن هـانئ أوصـاف بديعة لهذا الأسطول وهي تعتبر من أروع أشعاره وأكثرها طرافة لقلة اهتمام الشعراء قبله بوصف السفن [3] .

* **أيكية الذهب** : فيها نقوش بالذهب تمثل الأيك والحمام .

([1]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 146.

([2]) **أحمـــد خالـــــد** : ابن هانئ ، ق1 ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1976 ، ص142 .

([3]) **ينظر** : **المرجع نفسه** : ص 137 .

فيقول ابن هانئ في وصف هذا الأسطول : (الطويل)

أَمَا والجَوارِي المنشآتُ التِّي سَرَتْ ... لقد ظاهرَتْهَا عُدَّةٌ وعَدِيـــــدُ

قِبَابٌ كما تُزْجَى* القِبابُ على المَهَا* ... ولكن من ضمَّتْ عليه أُسُـودُ

عليْهَا غَمَامٌ مُكْفَهِـــرٌّ صَبيـرُهُ ... له بَارِقَاتٌ جَمَّةٌ ورُعُـــودُ

مَواخِرُ في طَامِي العُبَـــابِ كأنَّـهُ ... لِعزْمِكَ بَأْسٌ أو لِكَفِّكَ جُـــودُ

أنَافَتْ بها أعلامُهَا وسَـمَا لَـهَا ... بِنَاءٌ على غيرِ العَراءِ مَشِيـــدُ

من الرَّاسِياتِ الشمِّ لولا انتِقالُهَـا ... فمنْهَا فِنَانٌ شُمَّخٌ و رُيُـــودُ [1]

يصف الشاعر أسطول المعز لدين الله الفاطمي الذي أعده لحوادث الدهر، وهو يتحرك في عرض البحر فترى في سفنه قباب كالهوادج، ولكن فيها أبطال كالأسود، وتشق هذه السفن عباب البحر بكل عزم وبأس وشدة كشدة وجود صاحبه، كما شبه شراعها بالجبال الشاهقة، وجعل لها بناء مرفوعا على وجه الماء، فتتحرك مسرعة كالطير الجارح الذي يبحث عن صيد، وقال ابن هانئ يصف سيفا :

وأبْيَضَ مِن مَاء الحَديدِ كأنَّما ... يبيتُ عليهِ من خُشُونتِهِ طَلُّ (الطويل)

ألا ثَكِلَتْ أمُّ امْـــرِئٍ هـو بَزُّهُ* ... إذا لم يُفارِقْ عِزَّ أيَّامِه الذُلُّ [2]

يصف السيف فيجعل سطحه خشنا لأنه مصنوع من الحديد ثم يدعو على من حمله وجعله سلاحا إذا لم ينل به عِزّا أو شرفا، لأن السيف في نظر الشاعر يأتي بالفتح، وهو من أعظم أسباب زوال الذل وحصول العز فإذا لم يكن هذا الهدف منه فلا فائدة من حمله .

ثالثا: الرثـــاء:

الرثاء بكاء على الميت وعدّ لمحاسنه، وهو فن الموت ولغة الحزن، ومجال اليأس، ومعرض الوفاء وهو أحد الأغراض الشعرية الأكثر التصاقا بالوجدان البشري، لذا فهو ينمو ويزدهر حيث يصاب هذا الوجدان ويكلم وما أكثر المصائب التي تنتاب الإنسان ! وسبيل الرثاء كما يقول صاحب العمدة أن يكون ظاهر التفجع والتحسر والتلهف [3] بمعنى أن يكون دالا على معان مؤلمة حزينة كالفجيعة والكارثة والجزع والبكاء، وتكون صوره من خانة الموت فيها لوعة وكآبة ودموع وخواطر مشققة .

---

* **تزجى** : تساق .
* **المها** : بقر الوحش .
(1) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 77،78 .
* **البزُّ** : السلاح .
(2) **المصدر نفسه** : ص 469 .
(3) **ينظر: ابن رشيق** : العمدة ، ج2، ص 147 .

ويهدف غرض الرثاء أساسا إلى«تمجيد خصال الميت في مقابل المديح الذي هو تمجيد لخصال الحي»[1] ويعلق الدكتور عبد العزيز نبوي على قول قدامة بن جعفر في تعريفه للمرثية عندما يقول : «ليس بين المرثية و المدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل أنه لهالك» [2] فيرى الدكتور نبوي أن بكاء الميت أو التعبير عن مشاعر الحزن والأسى هو الجانب المهم في الرثاء، فقد يستقيم الرثاء دون عد المحاسن، ولكنه لا يستقيم دون عواطف الحزن والأسى[3] ولهذا قال ابن رشيق «على الجزع يبنى الرثاء» [4] والرثاء أنواع منها :

الندب:

هو بكاء الأهل والأقارب والأصحاب عندما تلمّ بهم مصيبة الموت وبعبارة أدق هو«النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة »[5]

التأبين :

ويقصد به « الثناء على الشخص حيا أو ميتا، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبه ويعددوا فضائله ...» [6] وقد شاع عندهم هذا اللون من الرثاء، وأصبحوا يقفون على قبور موتاهم و على أطلال الذين ارتحلوا و كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكراهم على مر السنين .

العزاء :

ويقصد به الصبر والتصبر، ويستعمل في الصبر على مصيبة الموت، و هو أن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه القدر ويصبر، وكان الشعراء قديما يعبرون على ذلك تعبيرا قويا، ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول :

ولولاَ كثْرةُ البَاكِينَ حَوْلِي   على إخْوانِهِم لقتلتُ نَفْسِي [7]

ولكل أمة من الأمم مراثيها، وأمتنا العربية و الإسلامية تحتفظ بتراث ضخم من المراثي ظهر عبر العصور الأدبية ففي العصر الجاهلي كان الرثاء في معظمه رثاء أفراد فتناول رثاء الأقارب تفجعا عليهم، ورثاء الأبطال اعترافا بفضلهم كما تناول رثاء الأشراف اعتزازا بمناقبهم، ورثاء الأفراد يقول فيه النقاد أنه أصدق رثاء وأقرب إلى الفطرة والطبع، كما ظهر في هذا العصر ما يسمى بالرثاء القبلي نظرا لارتباط الشاعر بالقبيلة، فهو في السلم لسانها الناطق بالمفاخر، وفي الحرب شعلتها التي تضرم الغضب في النفوس.

([1]) **د/مصطفى هدارة** : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف ، مصر ،1963، ص 437.
([2]) **قدامة بن جعفر** : نقد الشعر ، ص 118 .
([3]) **ينظر: د/عبد العزيز نبوي** : دراسات في الأدب الجاهلي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،القاهرة ، ط2 ، 2003، ص148.
([4]) **ابن رشيق** : العمدة ، ج2، ص 153 .
([5]) **د/شوقي ضيف** : الرثاء ، ص 12.
([6]) **لجنة من أدباء الأقطار العربية** :الرثاء، دار المعارف ، مصر، د ط ، د ت ، ص 54 .
([7]) **لجنة من أدباء الأقطار العربية** : الرثاء ، ص 54 .

وبعد الحرب نادبها الباكي على القتلى [1] ولما كانت حياة العرب في الجاهلية حياة موصولة بالحروب فقد كثر في شعرهم الرثاء واتخذ بعضه طابع الرثاء القبلي، كما أن هناك من ذكر من الشعراء الديار في الأزمنة الغابرة قبل امرئ القيس، وبكى عليها، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحِيلِ لأنَّنا نبكي الدِّيَارَ كمَا بَكَىَ ابْنُ حِذَامِ [2]

وفي عصر صدر الإسلام استمر الشعراء في تنظيم مراثيهم على طريقة الجاهليين غير أنه ظهرت في مراثي المسلمين قيم دينية جديدة وهي وليدة الإسلام، فقد ظهرت نزعة جديدة في الرثاء الإسلامي تقوم على التسليم بقضاء الله وقدره، والصبر على المصيبة مع الاحتساب وطلب الثواب من الله تعالى ملتزمين بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [3] .

وأما في العصر الأموي، استمر الشعراء متأثرين بفحول الرثاء من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، وفي العصر العباسي تطور الرثاء وبرز شعراء في هذا الغرض وتميزت قصائدهم برثاء الخلفاء والأبطال، كما تضمنت مرثيتهم الحماسة والقوة والتمجيد التي تشعل الحمية في نفوس الشباب فتسوقه للدفاع عن الأمة، كما ظهرت أنواع جديدة من الرثاء لم تكن معروفة من قبل مثل: رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق، كما بكوا المدن التي تعرضت للتخريب وفي الأندلس بكى الشعراء المدن التي سلبها منهم الإسبان، تلك نبذة عن تطور هذا الغرض الذي يعد أبرز فنون الشعر العربي لالتصاقه بحياة الإنسان .

أما الحديث عن الرثاء في الأدب المغربي القديم فيقرب لنا الدكتور العربي دحو الصورة عنه عندما يقول: «كانت المنطقة تسير ثقافيا في ركاب قطار الثقافة المشرقي موضوعا وشكلا أو بناء ومحتوى، بيد أن هذا الركاب نفسها لهذا العهد ما يزال مشدودا بسلاسل قوية جدا إلى عربات قطار الشعر الجاهلي»[4] وما يفهم من هذا أن النص الرثائي المغربي يقتفي آثار العرب القدامى وينسجم مع قصيدة الشعر العربي بكاء وتألما وتفجعا .

وبرز غرض الرثاء في الشعر المغربي نظرا لتوفر أسبابه، كما يؤكد الدارسون بوصفهم « هذا غرض آخر من الأغراض التي كثرت في الشعر المغربي القديم لتوفر الأسباب المساعدة على المنطقة تعج بالصراعات والحروب » [5] فكان من الطبيعي بروز هذا الغرض لوجود دواعيه التي هي الحروب والصراعات التي طبعت حياة المغرب الإسلامي .

([1]) **ينظر : د/غازي طليمات عرفان الأشقر** : الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه ، ص 253 .
([2]) **امرؤ القيس:** الديوان ، تحقيق ابن أبي شنب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1974، ص 250 .
([3]) **سورة البقرة** : الآية 155 ، 156.
([4]) **د/ العربي دحو** : مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، د ط ، د ت ، ص 81 .
([5]) **د/العربي دحو** : الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية الرستمية والإدريسية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ، ص 62 .

وكانت نصوص الرثاء في تلك المرحلة تتحدث عن الحكام والأبطال والعلماء والزهاد الذين رفضوا الدنيا وأقبلوا على الآخرة، واستمر فن الرثاء على هذه الصورة خلال الفترات المتعاقبة على المغرب من العهد الرستمي والفاطمي وحتى العهد الصنهاجي، وبقيت الصورة الرثائية في شكل رثاء الأفراد من أبناء وزوجات وأقارب وأعزاء لهم مكانة في المجتمع، كما كانت في رثاء مدن خربت وأحرقت، ويمكن القول أن غرض الرثاء واكب حياة الإنسان المغربي إبّان هاته الفترات، سواء كانت على شكل مصائب أو فتن أو أحداث داخلية أو تقلبات خارجية شهدت زوال دولة وقيام أخرى .

وللإلمام بالمرثية عند شعرائنا الذين هم محل البحث نحاول ومن خلال شعرهم التعرف على ملامحها وأهم ظواهرها المعنوية والفنية، ومن خلال ما عثرنا عليه من شعرهم وجدنا أن الرثاء عند هؤلاء الشعراء لا يخرج عن النمط القديم للقصيدة العربية، ويمكن تقسيمه إلى نوعين من الرثاء :رثاء الأفراد ورثاء المدن .

رثـــاء الأفـــــراد :

ويتمثل في رثاء الأهل والأقربين كالأبناء والوالدين والزوجة ورثاء الأصحاب وذوي المكانة السياسية والاجتماعية، ورثاء أهل العلم والفضل كالقضاة ورثاء الأفراد اتخذ من قديم الألوان الثلاثة:الندب والتأبين والعزاء ويعد رثاء الأبناء من أكثر موضوعات الرثاء وفاء وصدقا في العاطفة وحرارة في المشاعر، ولعل الشاعر بكر بن حماد من أبرز الشعراء في هذا المجال، فهو الذي فقد ابنه عبد الرحمن عندما كان راجعا من القيروان على يد جماعة من قطاع الطرق سنة 295هـ فأثّر ذلك فيه مما جعله يتفجع تفجعا عميقا، ويندبه ندبا ويبكيه بدموع مذرفة قائلا : (الوافر)

بكيتُ على الأحبَّةِ إذْ تولَّوا ولَوْ أنِّي هلَكْتُ بَكَوا عَليًّا
فيَا نَسْلي بَقاؤُك كَان ذُخْرًا وفَقْدُكَ قد كَوَى الأكْبَادَ كيًّا
كفَى حُزْنًا بأنَّني مِنكَ خلْوٌ وأنَّك ميِّتٌ و بَقيتُ حَيًّا
ولمْ أكُ آيسًا فيئِسْتُ لمَّا رميتُ التُّرْبَ فوقك منْ يَديًّا
فليتَ الخلْق إذا خُلِقُوا أطاعُوا وليتَكَ لمْ تَكُ يَا بَكْرُ شَيًّا
تُسَرُّ بأشهرٍ تمضِي سراعًا وتُطْوى في ليَالِيهِنَ طيًّا
فلا تفرحْ بدُنيَا ليسَ تبقَى ولا تأسَفْ عليهَا يا بُنيًّا
فقد قَطعَ البَقَاءَ غُرُوبُ شَمْسٍ ومَطلعُهَا عليَّ يَا أُخيًّا
وليس الهمّ يَجْلُوه نهارٌ تدورُ له الفراقدُ و الثُريًّا [1]

---

[1] **محمد بن رمضان شاوش :** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 87،88 .

لقد تحطمت آمال الشاعر وانهدّت بموت ولده، وفقد صبره لهول هذه الفجيعة، فالشاعر لا يملك إفصاحا عن الحرارة التي في أحشائه إلا هذه الكلمات الملتاعة لأن المرثي لم يكن شخصا عاديا إنما هو بعضه، فلقد كانت آمال الشاعر كبيرة في أن يطول عمر الابن ولكن هيهات، فهاهو يرمي التراب عليه بيده والدنيا مظلمة في عينيه ولم يعد يطيق الحياة فنزع إلى التمني المستحيل الذي ولدته العاطفة القوية، وبدأ الشاعر من خلال هذه الأبيات كئيبا تتمزق نفسه حسرات، ومما زاد في همه أن ابنه عبد الرحمن كان يرافقه في سائر تنقلاته فكان خير أنيس له، ويبدو أنه كان ابنه الوحيد فبفقده أصبحت الحياة لا تمثل له شيئا .

ولعل أهم ما في هذه المراثي التي بين أيدينا زيادة على المعاني المشتركة، نلمس تأملات الشاعر في الوجود وموقفه من الموت، فإذا الحياة قصيرة والدهر قاس والنعم زائلة والموت حتم على النفوس، وأكثر ما تكون هذه المعاني في مراثي الأبناء الذين ماتوا صغارا ولم يخلفوا مآثر تذكر لهم ولا فضائل يمجدون بها ولذلك يلجأ الشعراء إلى الأساليب الحكمية على نحو ما هو موجود في هذه المرثية، وقد أكثر الشاعر من التعابير الحكمية ما يخفف به وقع المصاب ويدفع إلى الاعتبار .

كما أبدى الشاعر عناية ببعض ألوان الصنعة كمطابقته بين (بقاؤك وفقدك)، و(ميت وحي)،و وظف الشاعر الاستعارة في (قطع البقاء غروب شمس) و (وليس الهم يجلوه نهار) توضيحا لشدة ما يعاني من هذه المصيبة التي ألمت به .

ولا تقلُّ مقطوعة الشاعر الثانية التي اختار لها روي اللام جودة عن السابقة بل تعد من روائع شعره فبعد البكاء والندب، هاهو بكر بن حماد يعزي نفسه وفيها يقول :   (الطويل)

وهوَّنَ وجْدِي أنَّنِي بك لاحِقٌ ... وأنَّ بقَائِي في الحيَاةِ قليلُ
وأنْ ليسَ يبْقى للحَبيبِ حَبيبُهُ ... وليسَ ببَاقٍ للخليلِ خَليلُ
ولوْ أنَّ طُولَ الحُزْنِ ممَّا يَرُدّهُ ... للاَزَمَنِي حُزْنٌ عليهِ طَويلُ [1]

فالقصيدة نفثة حزينة لقلب عامر بالإيمان، يدرك أن لا خير من الصبر ما دامت النهاية أن ليس يبقى للحبيب حبيب، وأن متاع الدنيا قليل، وأن الدنيا دار فراق لا دار بقاء، وأن كل نفس ذائقة الموت وليس أمام الإنسان إلا التسليم بقضاء الله تعالى، فالبكاء لا يرد هالك، و المقطوعة عبارة عن نظرة تأملية في حقيقة الموت والحياة .

وعلى غرار ذكر التأملات في الموت والحياة، نجد واحدا من شعرائنا يحاول استخلاص العظة والحكمة عند نزول المنية على صديق من الأصدقاء، فهاهو الشاعر عبد الكريم النهشلي وقد فجع بصديق تناول دواء يلتمس فيه شفاء لكن قضاء الله شاء له الموت .

([1]) **المصدر السابق** : ص 89.

فراح الشاعر يرثيه قائلا :   (الطويل)

مَنَايَا سَدَّدْتَ الطرقَ عنها ولم تَدَعْ   لهَا من ثَنايَا شَاهق مُتَطَلِّــــعَا

فلمَا رأتْ سُورَ المَهَابَة دُونَهَــــاعليكَ ولَّما لمْ تجدْ فيكَ مَطْعمَا

ترقَّتْ بأسْبابٍ لطافٍ ولم تَكـــدْ   تُواجهُ موْفُورَ الجَلالةِ أرْوعَــــا

فجاءتكَ في سرِّ الدواءِ خُفُــــيةًعلى حينِ لم تَحذرْ لداءٍ تَوَقُّعَا

فلمْ أرَ ما لا يُتَّقي مــثلَ سهــمٍ   ولا مثلَهَا لم تخشَ كيدًا فترْجعَا [1]

فالشاعر لا يندب صديقا ولا يثني على خصاله وفضائله على طريقة الشعر القديم في الرثاء، ولكن يحاول أن يعطي نظرة تأملية حول الموت الذي يدرك الإنسان بمشيئة الله تعالى وإن تعددت واختلفت الأسباب، وفي ذلك يقول ربنا عز وجل : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [2] فالموت حق والموت واحد وإن تباينت أسبابه، ومن خلال قراءة شعر ابن رشيق يبدو للمتلقي أن أكثر أشعاره صدقا ما اتصل بالرثاء وخاصة رثاء قاضي المحمدية ورثاء مدينة القيروان التي سنتعرض لها في نوع رثاء المدن .

فيقول ابن رشيق يرثي قاضي المحمدية طاهر بن عبد الله* وقد بلغته وفاته بالقيروان ومنها :

العفْرُ في فمِ ذاكَ الصَّارخِ النَّاعِي ولا أُجِيبَتْ بِخيْرٍ دعْوةُ الدَّاعِي   (البسيط)

فقدْ نَعَى مِلءَ أفْواهٍ وأفئـــــدةٍ وقد نعَى ملءَ أبصارٍ وأسمَــاعِ

أمَا لئِنْ صَحَّ ما جاء البريــدُ بــهِ ليَكْثُرَنَّ من البَاكينَ أشْيَاعِـــي

ما زلتُ أفزعُ من يأسٍ إلى طمــعٍ   حتَّى تربَّعَ يأسِي فوقَ أطْمَاعِي

فاليومَ أُنْفِقُ كنزَ العُمرِ أجْمعَـــهُ لَّما مَضَى واحدُ الدُنيَا بإجمَاعِ

تُوفِّـي الطاهرُ القاضي فوا أسَــفَا   إنْ لمْ يوفِّ تبَاريحي وأوْجَاعِي

فللدِّيانةِ فيهِ لُبْسُ ثَاكِـــــــلةٍ   وللقضَاءِ عليهِ قلْـــبُ مُلتَــاعِ [3]

يستهل الشاعر قصيدته بشيء من الذهول وعدم تصديق أن من كان يحب قد مات، وذلك لإبراز منزلته وأهميته ومكانته في قلوب الناس، ومشاعر الشاعر واضحة تشكو مرارة الخطب وجلله، ويبدو وفاؤه وتأبينه في نغمة حزينة وإيقاع باك عكسته ألفاظ جرت على القافية العينية الدامعة، وبادراك تام لهذه الفجيعة تراه يرثي عالما معترفا بتقدمه في العلم والفضيلة والتدين، آسفا على نكبة القضاء في فقده لما يعرف عنه بالاستقامة والتحري والعدل في الحكم، ولعل هذا القاضي كان أحد أساتذة ابن رشيق الذين تلقى عنهم العلم والأدب في

([1]) **رشيد بورويبة** : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ص 168،169.

([2]) **سورة النساء** : الآية 78 .

* هو طاهر بن عبد الله قاضي بلدة المحمدية (المسيلة) .

([3]) **ابــن رشيـــق** : الديوان ، ص 98 .

صباه بالمسيلة(المحمدية)، وكان من أحسنهم تأثيرا في نفسه، فرثاؤه بهذا الصدق برّا به و إكراما لفضله وعلمه ، وتحسر الشاعر على الفقيد يظهر جليا في أبياته عندما يتأسف على رحيله لكونه وحيد زمانه بإجماع الناس حتى أنه يقول فيه: إن الشريعة ثكلت بموته فلبست ثوب الحداد، والقضاء نكب بموته فاحترق شاعرنا لهذا الفقد وصور لنا كل هذه المعاني في استعارة (تربّع يأسى) و (للديانة لبس ثاكلة) مبينا بذلك إحساسه العميق تجاه مصابه الجلل، واستطاع أن يخلق حدثا عاطفيا وعقليا بقدر عمق المأساة التي أحس بها .

فالميت لا يمثل نفسه بقدر ما يمثل جملة من المبادئ والقيم من علم وتدين وطهارة وعدالة، والمرثي ليس شخصا عاديا وإنما هو أيضا رمز من رموز الحق والنور، وجميع هذه المراثي تتسم بسمات الصدق والتفاني والإخلاص للميت لأنها نابعة من وجدان يقدر العلم، ويعرف قدر العلماء، ولذلك فلا عجب إن كثر البكاء على الأموات في مثل هذه المراثي .

وفي الجانب الشكلي نسجل تكرارا في البيت الثاني (فقد نعى، وقد نعى) فقد وافق نغمة حزينة وذلك لانتشار النفي على كل الجوانب من الأفواه والأفئدة إلى الأسماع والأبصار و هو توكيد على الحزن و الاغتمام، كما جانس بين (الناعي) و (الداعي) وطابق بين (يأس) و (طمع)، كل هذا زاد في تشكيل نصه حسنا وجذبا، وشتان بين عاطفة ابن رشيق في هذه الأبيات وبين عاطفته وهو يرثي الحاكم الصنهاجي المعز بن باديس والذي يقول في رثائه: (البسيط)

لكلِّ حيٍّ وإنْ طالَ المَدَى هُـلُكُ   لا عزُّ مملكةٍ يبقــى ولا مَـلِكُ
أودَى المُعزُّ الذّي كانت بمَوضِعهِ   وباسْمِهِ جَنَبَاتُ الأرض تَمْتَسِكُ
ولّى المعزُّ على أعْقابِهِ فَرَمَـى   أوْ كادَ يَنْهَدُّ من أركـانِهِ الفَـلَكُ
ما كان إلاّ حُسَامًا سَلَّهُ قَـدَرٌعلى الذّين بَغَوْا في الأرضِ وانْهَمَكُوا
روحُ المعزِّ وروحُ الشَّمسِ قدْ قُبِضَا   فانْظُرْ بأيِّ ضِيـاءٍ يصْعَـدُ الفَلَكُ
فهلْ يزُولُ حِدادُ اللَّيلِ عنْ أفُـقٍ   وهلْ يكونُ لصُبحٍ بعْـدهُ ضحِكُ [1]

فبمقارنة بسيطة بين المقطوعتين يبدو الشاعر في رثائه للمعز خاليا من العواطف الحزينة، ويرى الدكتور عبد العزيز نبوي: «أن رثاءه هذا إنما كان من قبيل المجاملة، وبحكم أن ابن رشيق كان يعمل في ديوانه، وكان يأمل أن يوليه ابنه تميم بن المعز ولاية يرجوها، ولذا استعاض الشاعر عن قصور عاطفته وضعف تجربته الشعورية بالمجاملات المقوتة» [2] .

([1]) **المصدر السابق:** ص 116،117 .
([2]) **مجلة الثقافة** : السنة التاسعة ، العدد 49 ، الجزائر ، فبراير 1979 ، ص60 .

والملاحظ في هذه المرثية هو الاعتماد على المعاني المعروفة والمشتركة في رثاء الحكام والأبطال من تمجيد لخصال الميت التي لا تخلو منها مرثية كالشجاعة والقوة والعزة والعدل والكرم والعفة ونصرة المظلوم، كما استهل شاعرنا فجيعته بوقفة تأملية مؤكدا أن كل حي وإن طال عمره سيموت، ولن تبقى الممالك ولن يخلد الملوك، وبكى على رحيل سيده وحزن عليه القوم حتى كاد الفلك ينهدّ من شدة الأسى، كما صور لنا الحياة الحزينة بتشابيه تجعل من فقيده كوكبا مضيئا، وقد أظلم الكون وتلاشى ضياءه بموته.

فالمصاب جلل في نفس الشاعر والحدث عظيم، فلا الزمان زمان ولا الكون كون، ظلام دامس لا ينجلي يلف الأرض ويلغي أنوارها، وهذا ما استوقف عنده الشاعر مستفهما (هل يزول حداد الليل عن أفق ؟) والسبب في كل هذا هو فقدان سيد عزيز ترك فراغا رهيبا في حياة الشاعر الذي كان واحدا من نزلاء بلاطه.

ويقول الشاعر ابن الربيب * يرثي المنصور بن محمد بن أبي العرب:

يا قبرُ لا تَظلِمْ عليْــــهِ فطَـالمَا   جَلَّى بغُرَّتِهِ دُجَى الإظْلاَمِ (الكامل)

أعْجِبْ بقبرٍ قَيْسَ شِبرٍ قدْ حَوى   ليثًا وبحرَ ندًى وبدرَ تَمَامِ [1]

من خلال هذه الأبيات يكون الشاعر لم يبتعد عن صفة المراثي القديمة التي حددها النقاد حين ذكروا أن ليس بين المرثية و المدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل أنه لهالك، فبصورة حزينة يصور لنا ظلمة القبر و وحشته الضيقة، ويستجدي القبر بألا يظلم على فقيده ثم يؤبنه فيذكر أنه مشرق الوجه وماجد كريم وأنه جريء شجاع موضحا عن تلك الفضائل بتشبيهات تكبر وتعظم صاحبه، فتجعله ليثا وبحرا وبدرا مكتملا .

وبقيت المرثية خلال العهد الفاطمي على نفس النمط الذي رسمه النقاد القدامى، فهذا شاعر الفاطميين ابن هانئ يرثي والدة جعفر ابن علي بن حمدون فيقول : (المتقارب)

ألا كلُّ آتٍ قَرِيبُ المدَى   وكلُّ حيــــَـاةٍ إلى مُنْتَهَـــى

ما غرَّ نفسًا سِوى نَفْسِهَا   وعُمْرُ الفتَى من أمَانِي الفَتىَ [2]

فزيادة عن المعاني التي ترد عادة في الرثاء يضفي الشاعر في هذه القصيدة تأملات في الموت والحياة، فإذا الحياة قصيرة، ولكل أمر نهاية، ولكل عيش زوال، والمرء مهما عمر فهو يصعد ويسمو ثم ينحدر فجأة إلى حفرة الموت تلك سنة الله في خلقه، فتلك أساليب حكمية عزى بها الشاعر هذا الأسرة الحزينة .

---

* هو أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي، أصله من تيهرت ولد نحو سنة 380 هـ هاجر إلى القيروان طلبا للعلم على يد علماء كبار كأبي عبد الله محمد بن جعفر النحوي وغيرهم، كان خبيرا باللغة شاعرا مقدما،عاصر عبد الكريم النهشلي، وتولى القضاء في تيهرت حينا فصار يعرف بالقاضي التيهرتي أيضا، سئل النهشلي يوما عن أشعر أهل بلده فقال: أنا ثم ابن الربيب، توفي بالقيروان سنة 430هـ .

([1]) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 114 .

([2]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 419 .

ثم يظهر الشاعر في موقف ندب لهذه المرأة، فيبدي لوعته وأساه تجاه من فقد فيقول :

هَلمُّوا فَذَا مصْرَعُ العالمينَ ... فمنْ كُلِّ قلبٍ عليهِ أَسَى (المتقارب)

وإنَّ التِّي أنْجَبَتْ للوَرَى ... كآلِ عليٍّ لَأُمُّ الــــوَرَى

فلوْ عزَّةٌ أنْطقتْ مُلــحَدًا ... لأنطقَ مُلحَدَهَا مَا يَرَى [1]

يندب الشاعر هذه المرأة ويصف موتها بموت العالمين، وكأن كل العالم يعيش حسرة وأسى، وهي كناية على علو شأنها، فهذه المرأة قد أنجبت أبطالا كجعفر ويحي، فحري أن يحزن الجميع لها لأنها أم الناس أجمعين، فالكل يذكر فضلها ومجدها حتى لو أن القبر نطق لأقر بمجدها وعزتها، كما تظهر العبارات الحارة صدق عاطفة الشاعر نحو هذه الأسرة الكريمة التي عاش في كنفها بمدينة المسيلة أياما سعيدة، لذلك فهو يمضي في عدّ مناقب أسرة الفقيدة وتمجيد خصالها التي تميزت بها من كرم وشرف انتماء، وطهارة وشجاعة، ولقد أحسن تأبينها فقال :

وإنّ حَصَانًا نَمَتْ جَعْفَــــرا ... ويحـَي لعَاديّةُ المُنْتَمَـــــى (المتقارب)

فجاءتْ بهذا كشمسِ النَّهارِ ... وجاءتْ بهذا كبدْرِ الدُجَى

ألَمْ تَكُ من قومهَا في الصَّميمِ ... ومن مجْدهَا في أشَـمِّ الذُّرَى

فمنْ قومِكَ الصِّيدُ صِيدُ المُلوكِ ... ومن قومها الأُسدُ أُسد الشَّرَى [2]

فالإشادة واضحة بأم الأبطال كما يشيد بما يحمله أفراد هذه الأسرة من نقاء وصفاء في السريرة وحميد الخصال ورثاء شاعرنا يدخل في باب التأبين الذي لم يكتف فيه الشعراء بتصوير الأحزان وتأسفهم على الفقد بل يشيدون بالميت فيذكرون مناقبه ويعددون فضائله ويشهرون محامده، فيبكون فيه الشجاعة والمروءة والسيادة والفضيلة والشرف وتلك مضامين المرثية العربية .

رثـــــاء المـــدن :

هو لون قديم من الشعر العربي، عرفه شعراء المشرق إلا أنهم لم يبلغوا فيه شأن المغاربة والأندلسيين الذين كانوا فيه أكثر روعة، ولعل ذلك يعود لكون خراب المدائن وزوال الدول تباعا، وإنما وقع بكثرة في المغرب العربي ولا سيما في الأندلس [3] فبكى الشعراء قرطبة و طليطلة و بلنسية وكل مدن الأندلس التي سقطت في أيدي الفرنجة، ورثاء المدن عند المغاربة نمط يختلف عن نمط بكاء المدن عند الأندلس الذي هو أبعد شهرة لأنه ارتبط بأحداث جسام وانطوى على نهايات فاجعة حيث لم تعد تلك الحواضر والمدن تذهب من

---

(1) **المصدر السابق** : ص 422،423 .

(2) **المصدر نفســه**: ص 424،425 .

(3) **ينظر : سعد بوفلاقة** : النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى،وحدة بن بولعيد، الجزائر، ط1، 1994 ، ص 30 .

أيدي المسلمين إلى المسلمين بل خرجت إلى الأبد من أيدي المسلمين، لتعود إلى الأعداء وعليه فالنمط الذي سنعرض له في رثائنا أقرب أن يدعى انقلاب الدول منه إلى أن يسمى زوال الممالك [1] .

رثـــاء تيهـــرت :

قد سبق وإن تعرفنا على مدينة تاهرت في الفصل الأول ضمن الحياة الثقافية، وعرفنا كيف ازدهرت هذه الحاضرة وتمتعت بالاستقلال السياسي تحت لواء الرستميين وعاشت زمنا تنعم بالحرية والرخاء والأمن رغم ما كان ينتابها من اضطرابات سياسية فيعكر صفو حياتها الآمنة، ولكن الكارثة التي داهمتها كانت سنة 296هـ لما هاجمها الفاطميون الشيعة وقوّضوا أركانها، وبوقوع تلك النازلة الأليمة طويت صفحة مجدها وأفل نجم تاهرت الساطع في سماء المغرب، وأخذت تسير نحو الزوال والاندثار بعدما تحولت إلى خراب وزالت معالمها من الوجود وصارت أطلالا يرثيها الشعراء .

والشاعر بكر بن حماد أحد أبنائها البررة الذين احترقوا بحبها وتفجعوا بالكارثة التي ألمت بها عندما خربها العبيديون، وهي نفس السنة التي مات فيها الشاعر بعد أن فقد ابنه في السنة الماضية 295هـ وقد شاهد بأم عينه خراب ملاعب صباه و مدارج شبابه، ولما كان الشعر المؤثر في النفس الإنسانية هو الشعر الذي ينبعث عن عاطفة صادقة ومتدفقة من وجدان سليم يصور ما يجول بخاطر صاحبه، فذلك ما طبع به بكر بن حماد مرثيته في تاهرت فقال يرثيها بعد خرابها:

زُرنَا مَنازِلَ قَومٍ لمْ يزُورُونَـــا إنَّا لفِي غَفْلَةٍ عمَّا يُقاسُونَـــا (البسيط)
لوْ ينطِقُونَ لقالُوا :الزَّادَ ويْحَكُمْ حَلَّ الرَّحيلُ فمَا يَرجُو المُقِيمُونَا [2]

إنه يتحدث إلى أولئك النائمين بلا حراك، الراحلين عن هذه الحياة الدنيا والهامدين في قبورهم، هؤلاء الذين بالأمس فقط شيّدوا المدينة، وأقاموا صرحها، ولكن نائبات الدهر لم تترك لهم مجالا للتمتع بزينة الحياة، فمضوا إلى عالم الغيب .

ولقد شاءت الأقدار أن تخرب مدينة الشاعر في السنة التي سيودع فيها الحياة وربما تكون آخر نفثة التاع بها وهو يشاهد خراب مرابع الصبا، وقد سلك الشاعر في المرثية سبيل الوعظ والتحذير من دنيا الغرور حين استنطق تلك القبور لمعرفة وإدراك سر الحياة والموت، ويعرض الشاعر كل هذا في أسلوب حكمي، فتراه يحاور ويستشف من أحاديثهم الندامة على زمن التفريط (قالوا: الزاد ويحكم).

وبنظرة فيها كثيرا من معاني الزهد والتبصر لعواقب الأمور، ومن المفيد أن نذكر أن شاعرنا قد كابد آلام الحياة وتأثر من أوجاعها، وقد استفاد من تجاربه الشخصية إلى ما يرشده إلى نور الحكمة .

ويواصل تأملاته ونظراته في الموت والحياة فيقول : (البسيط)

([1]) **ينظر : مجلة الفكر التونسية :** السنة 20 ، العدد 8 ، 1975، ص 37 .
([2]) **محمد بن رمضان شاوش :** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 90 .

الموتُ أجحفَ* بالدُّنيا فخــربَّهَا   وفِعْلُنَا فِعْلَ قَومٍ لا يَمُوتُــونَا
فالآنَ فابْكُوا فقدْ حقَّ البُكاءُ لكمْ   فالحَاملونَ لعرشِ اللهِ بَاكُونَا
ماذا عسَى تَنْفَعُ الدُّنيَا مَجْمَعَـهَا   لوْ كانَ جُمِعَ فيهَا كنزُ قَارُونَا [1]

الشاعر يقف موقف الناصح والواعظ والمدرك لخفايا الأمور وتقلبات الزمن، فقد رأى خراب مدينة شارك في صناعتها وعاش أحداثها، وظاهرة التأمل في ثنائية (الموت والحياة) ظاهرة قديمة قدم العصور الأدبية العربية وما أكثر النظرات التأملية في الحياة والموت وفي الأحياء في شعرنا العربي منذ زمن الجاهلية .

كما نلمس كذلك في هذه الأبيات أنها من نتاج شاعر له حظ من التفقه في الدين وله حس وعظي يذكر بالموت في كل حين ويحذر من غرور الدنيا يثبت ذلك التضمين القرآني (كنز قارون)، هذا الرجل الذي يضرب به المثل في الغنى وورد ذكره في القرآن قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [2] .

رثــاء الــزاب :

وهذه المنطقة كان لها الأثر البعيد أيام بني الأغلب ثم أيام العهد الفاطمي والصنهاجي، وحظيت المنطقة باهتمام كبير في العهد الفاطمي حيث كانت المسيلة عاصمة للزاب، والزاب كانت تعتبر ولاية جزائرية تمتد من الحدود التونسية الحالية حتى بجاية شمالا، وتتوغل حتى الصحراء فتشمل بسكرة وتقترب من الجزائر شمالا وتوزر وما اتصل بها من تونس.

وازدهرت مدينة المسيلة في ولاية جعفر بن علي بن حمدون، وقد أقام عنده الشاعر ابن هانئ الأندلسي سنوات عديدة، فسحر بجمالها وبطبيعتها، وطاب له المقام بها، ونال ما نال من الحظوة والعطاء من سيدها وقد شهد شعره على ازدهار المدينة حتى رآها شبيهة ببغداد فقال فيها :

لمْ تُدْنِنِي أرضٌ إليكَ وإنَّمَــا   جِئْتُ السَّماءَ ففُتِّحَتْ أبْوابَا   (الكامل)
ورأيتُ حولِي وَفْدَ كلِّ قبيـلةٍ   حتَّى تَوهَّمْتُ العِراقَ الزَّابَـا
أرضاً وطئتُ الدُّرَ رضْراضًا بها   والِمسكَ تُربًا والرِّياضَ جِنابَا [3]

* **أجحـــف** : أهلك .
([1]) **المصدر السابق** : ص 90 .
([2]) **سورة القصص** : الآية 76 .
([3]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 235 .

وقد نعم شاعرنا بالعيش وسعد بالحياة الهادئة الآمنة في ظل آل جعفر، لكن الخليفة الفاطمي المعز أرسل في طلبه من واليه جعفر، فتوجه ابن هانئ إلى المهدية حيث عاصمة الخلافة الفاطمية، وأحس حينما ترك المسيلة والزاب كأنما فارق جنة الفردوس فقال متحسرا : (الطويل)

خَلِيلِيَّ أينَ الزَّابُ عنَّا وجعفرُ وجَنَّةُ خُلدٍ بِنْتُ عنهَا وكَوْثَـرُ

فقبلِي نَأَى عَن جَنَّةِ الخُلْدِ آدَمٌ فمَا رَاقَهُ في سَاحَةِ الأرضِ مَنْظَرُ [1]

هذان البيتان من مطلع قصيدة مطولة يمدح فيها الشاعر جعفر بن علي وقد استعملها متشوقا إلى تلك الربوع التي أحبها كثيرا وعشق تربتها، وظهر ذلك التعلق الوجداني بها عندما شبهها بجنات عدن، ويظهر كذلك توجّعاته وإحساسه بآلام الفراق لما برع في التوظيف الديني حينما قارب بين جنته المحمدية (المسيلة) وجنة آدم عليه السلام ونهرها الكوثر، ولكن لم ينفعه ندم ولا أسف ولا حسرة وما راقه بعدها مشهد في الأرض ولا منظر، فبهذين البيتين خلّد الشاعر مدينة المسيلة التي فارقها وهو يتألم بعبارة (خليليّ)التي كثيرا ما نعثر عليها في القصيدة العربية، وتأسى لبعده عن الوطن، وحاول التخفيف من أثر الصدمة عندما استدعت ذاته تجربة آدم عليه السلام الذي تجرع مرارتها .

رثـــاء القيـــروان :

مدينة القيروان هي أقدم مركز بأرض المغرب الإسلامية، أسسها عقبة بن نافع سنة 50 هـ وكانت عاصمة للولاة والأمراء وهي قاعدة الإسلام والمسلمين، وعدت وقتذاك رابعة الحواضر الإسلامية بعد البصرة والكوفة و دمشق، كما وصفت بالقلعة الشامخة للمذهب المالكي وقبلة أهل العلم والورع والصلاح، كما كانت مدينة للشعر والشعراء في عهد الصنهاجيين، وكتاب ابن رشيق الموسوم بأنموذج الزمان في شعراء القيروان الذي يضم مئة شاعر وشاعرة دليل عن ثراء الشعر في بلاط الصنهاجيين بالقيروان .

والشاعر ابن رشيق كان يقيم بهذه المدينة، وما هي إلا أيام حتى أظلم جوها وانهارت أركان الدولة الصنهاجية أمام حملات بني هلال التي حولت القيروان خرابا ودمارا، فكان إحساسه بالكارثة كبير ولوعته بالمصيبة أكبر، فبكى وتحسر وتأسى لما أصاب كعبته على أيدي الأعراب، ورثاها ووصف كيف كانت القيروان في أيام عزها، يغشاها الأمن والأمان والعيش الرغيد، وكيف استحالت إلى موضع خوف وذعر وهوان، كما يشير إلى اغتمام جميع المسلمين من الخليج إلى الأندلس بهذه النكبة التي ألمت بوطنه .

([1]) **المصدر السابق :** ص 475 .

قال ابن رشيق : (الكامل)

كمْ كانَ فيهَا من كِرامٍ سادةٍ بيضِ الوُجوهِ شَوَامِخِ الإيمَانِ
متعاونينَ علَى الدِّيانةِ و التُّقَى للهِ في الإسْرارِ و الِإعْـــلاَنِ
وأئِمَّةٍ جَمَعُوا العُلومَ و هذّبُوا سُنَنَ الحَديثِ ومُشْكلَ القُرْآنِ
عُلماء إنْ سَاءَلْتهُمْ كشَفُوا العَمَى بفَقَاهَةٍ وفصَـــاحةٍ وبيَـــانِ
وإذَا دجَا اللَّيْلُ البَهيمُ رأيتَهُمْ مُتَبَتِّلِينَ تَبَتُّـــلَ الرُهبَـــانِ [1]

يبدأ الشاعر رثائيته بذكر من كان بالقيروان من أهل العلم والإيمان من علماء أجلاء ورجال إصلاح، هؤلاء العلماء كانوا كالمنارات يهدون الناس إلى طريق الحق والصواب بفهمهم الصحيح لمنهج الإسلام، وبعلمهم وحسن بيانهم، ويمضي الشاعر ونفسه تذهب عليهم حسرات، فهم صفوة القيروان الذين جمعوا العلوم وشرحوا الأحاديث النبوية كما هذبوا مختلف الروايات وبينوا للناس ما غمض عليهم من آيات .

حَلُّوا غَوامضَ كلِّ أمْرٍ مُشْكِـــلٍ بدليلِ حقٍّ واضحِ البُرهَـــانِ (الكامل)
هَجرُوا المضَاجعَ قَانتينَ لربِّهـمْ طَلَبًا لخيرِ مُعَرَّسٍ و مَغَـــانِ
خافوا الإلهَ فَخَافَهُم كـلُّ الوَرَى حتَّى ضِرَاءُ الأُسْد في الغِيلاَنِ
تُنْسيكَ هيبتهُم شماخةَ كلِّ ذِي مُلك وهَيْبَةَ كُلِّ ذِي سُلْطَـــانِ [2]

ومن صفاتهم يهجرون النوم، عبادة لله تعالى وطلبا لما أعده للطائعين من منازل في الجنة ولشدة خوفهم من الله خافهم كل الناس وخشيت من بأسهم الأسود المفترسة، ولهم مهابة من الوقار فإذا رأيتهم تنسيك هيبتهم علّو كل مكان، ومخافة كل حاكم جبار، ويواصل بكاؤه قائلا :

كانتْ تُعدُّ القيروانُ بهـــم إذاعُدَّ المنابرُ زَهـــرةَ البُلْـدَانِ (الكامل)
وزهتْ على مِصر وحَقَّ لها كَـمَا تَزْهُو بهم وغَدَتْ على بَغْدانِ
حَسُنَتْ فلما أنْ تكاملَ حُسْنُهَا وسَمَا إليْهَا كُلُّ طَرْفٍ رَانِ
وتَجمَّعتْ فيهَا الفضائلُ كُلُّـهَا وغَدَتْ مَحَلَّ الأَمْنِ والإيمَـانِ
نظرتْ لهَا الأيَّامُ نَظْـرَةَ كَاشِـحٍ تَرْنُو بنَظرةِ كاشحٍ مِعْـــيَانِ
حتَّى إذَا الأَقْدَارُ حُـمَّ وُقُوعُـــهَا وَدنَا القَضَـــاءُ لـــدَّةٍ و أوَانِ
أهدتْ لهَا فِتنًا كلَيْـلٍ مُظْلِـــمٍ وَ أَرَادَهَا كالنَّاطِـحِ العِيدَانِ [3]

([1]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 156، 157 .
([2]) **المصدر نفسه** : ص 158، 159 .
([3]) **المصدر نفسه** : ص 160، 161 .

يصور الشاعر جمال القيروان وحسنها ومكانتها بين البلدان لكنه تصوير ينبئ عن حلول الفاجعة، فيبين أنه لما تكامل حسنها وأدامت العيون النظر إليها، وما إن تجمعت فيها مكارم الأخلاق وغدت بلاد أمن وأمان حتى نظرت إليها الأيام نظرة عداء ماحق فقضى الله ما قضى فأهدت لها الأيام فتنا سوداء كقطع الليل المظلم

ثم انتقل الشاعر وهو في حسرة يذكر المصائب والأحداث الأليمة التي ألمت بالقيروان على أيدي بني هلال وبني سليم وسائر الأعراب فيقول :

فتَكُوا بأمَّـــةِ أحْمـــدٍ أتَرَاهُـمْ ... أَمِنُوا عِقابَ اللّهِ في رَمَضَـــانِ (الكامل)
نقضُوا العُهُودَ المُبْرمَاتِ و أخْفَرُوا ... ذِمَمَ الإلَهِ و لمْ يَفُوا بضَمَـــانِ
فاسْتحسنُوا غَدْرَ الجوارِ و آثَـرُوا ... سَبْيَ الحَريمِ و كَشْفَةَ النِّسْوانِ
سامُوهُمْ سُوءَ العَذابِ و أظهَرُوا ... مُتَعَسِّفِينَ كَوَامِنَ الأضْغَـــانِ
والمسلمونَ مُقَسَّـمونَ تَنالهُـــم ... أيْدي العُصَاةِ بذِلَّةٍ و هَـــوَانِ
ما بينَ مُضـطرٍّ و بين معـــذَّبٍ ... ومُقَتَّلٍ ظُلْمًا و آخرَ عَـــانِ
يستصْرِخُونَ فلاَ يُغَاثُ صريخُهمْ ... حتَّى إذا سَئِمُوا من الإرْنَـانِ
خرجُوا حُفاةً عائذِينَ بربِّهـــمْ ... منْ خَوفهِمْ و مَصائِبِ الأَلْـوَانِ
هَربُوا بكلِّ وليـــدَةٍ و فطيـــمةٍ ... وبكلِّ أرملةٍ و كلِّ حَصَـــانِ
وبكلِّ بكرٍ كالمَــهَاةِ عَزيـــزَةٍ ... تَسْبِي العُقولَ بطَرفِهَا الفَتَّانِ (1)

فهاهو يصور الفاجعة بألم شديد وهو يتأمل أحوال المسلمين وكيف آلت إلى الحضيض، فالمسلم يسحق أخاه المسلم فلا يرحم ضعفه ولا يؤمّن نساءه، فتراهم يخرجون مذعورين إلى الطرقات بكل وليدة و فطيمة وأرملة حفاة عراة ملتمسين سبيلا للنجاة، وتمتد يد الإثم والعدوان إلى المقدسات فيقول :

والمسجدُ المَعمُورُ جامعُ عُقبةٍ ... خَرِبُ المَعاطنِ مُظْلِمُ الأركَانِ (الكامل)
قفرٌ فمَا تغشَاهُ بعدُ جماعـةٌ ... لصلاةِ خمـسٍ لاَ و لاَ لأَذَانِ
بيتٌ به عُبِدَ الإلهُ و بُطِّلـتْ ... بعدَ الغُلوِّ عبـادةُ الأوثَـــانِ
بيتٌ بوحْيِ اللّهِ كانَ بنـاؤُهُ ... نِعْمَ البِنَا والمُـبْتَنَى و البَـانِي (2)

ولعل أهم ما يلفت النظر في هذه المرثية التي يصور فيها الشاعر انقلاب الأحوال، أنه كان يصدر عن شعور ديني عارم، فهذا أمر طبيعي، فلم يكن من هم الأعراب أن يخربوا المساجد أو يدنسوا المقدسات ما داموا يدينون بالإسلام، ومهما يكن فمرثية ابن رشيق تشير إلى ما حدث في القيروان على يد قبائل بني هلال من استباحة للحرمات وتعرض للمقدسات، إنما كان مشابها لما ارتكبه الفرنجة من هول في ممالك المسلمين .

---

(1) **المصدر السابق** : ص 161،162،163 .
(2) **المصدر نفسه** : ص 164 .

ثم يتنهد الشاعر ملتاعا متمنيا لو عادت القيروان كما كانت في سالف عهدها فيقول :

أَتَرَى اللّيَالِي بعدمَا صَنَعَتْ بنَـا ... تقضي لنا بتواصُلٍ وتَـدَانِ (الكامل)

وتعيـدُ أرضَ القيروانِ كعَهْـدِهَا ... فيمَا مَضَى من سَالفِ الأَزْمَانِ

من بعِد ما سَلَبَتْ نضَائرَ حُسْنِهَا الـ ... أيَّـامُ واختلفـتْ بها فِئتَـانِ

وغدَتْ كَأنْ لَمَ تَغْنَ قَـطُّ ولمْ تكـنْ ... حرمًا عَزيزَ النَّصْرِ غيرَ مُهَـانِ

أمستْ وقدْ لعِبَ الزَّمَانُ بأهلـهَا ... وتقطَّعتْ بهم عُرَا الأَقْـرَانِ [1]

ويختم الشاعر قصيدته بالتساؤل عما إذا كان في الإمكان أن تعود القيروان إلى سابق مجدها وعزها، ترفل في ثياب الحسن والأمان، فيعود إليها ولكن كيف السبيل إلى ذلك بعدما لعب الزمان بأهلها وسلبتها الأيام حسنها وجمالها ولكن الله يقضي أمرا كان مفعولا، ويتبدد أمل الشاعر ويتقطع حينما ساقه القدر إلى ديار الغربة بجزيرة صقلية حيث توفي هناك .

رابعا: **الزهـــد:**

الزهد نزعة قديمة في الأمة منذ العصر الإسلامي، وزاهد الأمة الأول هو محمد رسول اللهﷺ وكان كثيرون في أيامه يتأسّون بزهده و تقشفه، فيقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة، ويرفضون الدنيا، ويذكرون الموت دائما وإنه مقبل لا محالة، وأنه من واجب الإنسان أن يتدبر يومه وغده، وأنه عما قريب محمول على آلة حدباء وسيلقى ربّه، وعلى الإنسان أن يعمل لآخرته قبل أن يخطفه الموت، «والزهد مذهب في الحياة له قواعده ورسومه الخاصة وله ملابسه وفرائضه، ويفترض في متتبعي المذهب أن يتجردوا لله ويعكفوا على صلواتهم في خلوة من البشر متجردين من الترف وزخرف الدنيا لا يبتغون غرضا من أغراضها ولا مطلبا من مطالب الحياة المادية»[2] .

ودعوة الإسلام للزهد لم تأت في آيات صريحة ومع ذلك ففي ثناياها دعوة إلى عدم الارتماء في أحضان الملذات، فكانت بذلك هذه الآيات بيانا لحقيقة الدنيا، وأنها حطام فانٍ ومتاع زائل، كما توضح ما عند الله من نعيم وثواب، فهي تتضمن دعوة إلى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الاموال والاولاد ﴾[3] .

---

(1) **المصدر السابق** : ص 166 .

(2) **د/ محمد مصطفى هدارة** : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص 448 .

(3) **سورة الحديد** : الآية 20 .

ويقول عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (1) ويقول أيضا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(2) .

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله دُلّني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال: أزهد في الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس » (3) ويوضح لنا هذا الحديث أن الزهد في الدنيا طريق إلى الله ومحبه، والعفة والعزة طريق إلى محبة الناس، فمن أحب الدنيا أبغضه الله والناس لأنها مفتاح كل شر وطلب الكفاية من الدنيا واجب والزهد هو ترك الزائد منها (4) .

ونزعة الزهد نزعة إسلامية خالصة، لكنها بعد الفتوحات واختلاط المسلمين بأمم وحضارات أخرى كالحضارة الفارسية، والهندية ،و الرومانية، اختلطت بما عند هذه الأمم من زهد هو جزء من عقائدها ودياناتها، فظهرت آثار ذلك في طرق الزهد خاصة في العصر الأموي، كإطالة العبادة، أو العزوف عن الدنيا و مجاهدة النفس إلى حد تعذيبها، كل ذلك أملا في الغفران ورضا الله (5) .

ويرى الدكتور مصطفى هدّارة: «أن حركة الزهد في المجتمع الإسلامي نشأت بدوافع إسلامية محضة تحت ظروف موجودة بالفعل في ذلك المجتمع إلا أننا لا نستبعد وجود تأثيرات مختلفة في حركة الزهد مسيحية أو بوذية، تسربت مع حركة التقاء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المتباينة » (6) .

وقد لعب تطور الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي وانتشار اللهو والمجون دورا بارزا في إذكاء فن الزهد، فكثرة الحروب وما تجره من آثار، وكثرة المظالم، ومع الظلم يشعر الناس بضرورة اللجوء إلى الله قصد النجاة مما هم فيه، وإلى الدين يستمدون منه الصبر وقوة الاحتمال، وكان التطور الاجتماعي الذي شهده القرن الثاني للهجرة يعد أكبر عامل في نمو تيار الزهد وتطوره، فبشيوع تيار اللهو والمجون والزندقة ووجود فوارق واضحة بين الطبقات الاجتماعية في ذلك العصر كان لا بد أن توجد حركة مضادة تعكف على تقوى الله وتقصر نفسها على العبادة، وتحتقر المال وزخرف الدنيا وزينتها .

---

(1) **سورة آل عمران** : الآية 14 .
(2) **سورة الأعلى** : الآيات 14،15،16،17.
(3) **يحيى بن شرف الدين النووي** : شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ،1982، ط2 ، ص 105 .
(4) **ينظر : المصدر نفسه** : ص 107 .
(5) **ينظر: علي عالية** : شعر الفلاسفة في الأندلس ، ص 178 .
(6) **د/مصطفى هدارة** : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص 285 .

كل ذلك أهّلها لأن تكون محورا لأحاديث الوعاظ في المساجد، تلك الأحاديث التي يدور أغلبها حول التذكير بالله واليوم الآخر وأن الناس معروضون على ربهم يوم القيامة، فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم، فكان الحسن البصري «يتخذ مجلسه في مسجد البصرة، ويلقي مواعظه وحكمه وقصص الصالحين من عباد الله، فتنعطف حوله القلوب المؤمنة، حتى لربّما استحال مجلسه إلى مجلس يتردد فيه ذكر الله في إيمان صادق وحرارة ويقين » (1) والزهد إحدى الظواهر التي أنبتتها عوامل عديدة شهدتها العصور الإسلامية في الأمصار المختلفة، منها ما يتصل بالمغرب الإسلامي الذي عرف هو بدوره هذه النزعة .

أسباب ظهور الزهد بالمغرب :

هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى انتشار هذا التوجه الديني الذي يسلكه الأفراد منذ عهد رسول الله ﷺ ثم أخذت حركته تتسع مع مرور الزمن ومن هذه الأسباب نذكر ما يلي :

1) الدين الإسلامي والإعجاب بالسلوك العملي للرسول ﷺ وحياة الصحابة والتابعين الذين قدموا إلى الشمال الإفريقي منذ الفتح الإسلامي للمغرب من «مثل عقبة بن نافع الفهري وأبي ذر الغفاري وعبد الله بن الزبير وغيرهم ...ولا نشك أن سيرة بعض هؤلاء الصحابة والتابعين قد انتشرت بين الناس في مجالسهم يتداولونها في إعجاب يدعو إلى التأسي بما كانوا يفعلون » (2) .

2) دعوة الإسلام إلى الزهد دون الابتعاد عن الناس ومشاغلهم، فيعيش الإنسان بين مخافة الله ورجائه، فقد احتشدت السور بآيات الوعيد والنذير كما تقابلها آيات تشيع في النفس الاطمئنان والرجاء قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (3) وقال أيضا: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (4) . وقال أيضا: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (5) .

3) الحروب الطاحنة وكثرة الفتن والاضطرابات التي شهدها المغرب طوال تاريخه، على غرار ما حدث في المشرق من حروب أهلية واختلافات حزبية، إضافة إلى ما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين، كلها عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها، وحولت أنظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها (6) فالحروب لاتخلف وراءها إلا المآسي،و كثيرا ما وقف المسلم في وجه أخيه المسلم شاهرا سيفه وهو أمر روّع الصالحين وأورثهم القلق على دينهم ودنياهم مما جعلهم ينظرون إلى الدنيا وكأنها ملئت شرورا وجورا (7) .

(1) **المرجع السابق** : ص 286 .
(2) **د/عبد العزيز نبوي** : الشعر المغربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1983، ص 91 .
(3) **سورة آل عمران** : الآية 175 .
(4) **سورة الرحمن** : الآية 46 .
(5) **سورة النساء** : الآية 77 .
(6) **ينظر** : **عاطف جودت نصر** : شعر عمر بن الفارض ، دراسة في فن الشعر الصوفي ، دار الأندلس للطباعة ، ص13.
(7) **ينظر** : **د/عبد العزيز نبوي** : الشعر المغربي القديم ، ص 91 .

4) الصلة بين المشرق والمغرب، فلقد كان الاتصال دائما بين المشرق والمغرب بعد الفتح الإسلامي لهذه المنطقة، وقدمت مجموعات مهاجرة من شبه الجزيرة العربية، وأخرى من مصر واتخذوا من المدن الساحلية مقرا لهم، كما انتشر بعضهم في المناطق الداخلية، مما مهّد لانتقال الاتجاهات الدينية والفكرية المختلفة إلى المغرب الإسلامي .

5) الميل الفطري لدى أهل المغرب إلى الترفع عن الانغماس في المجون أو الاستجابة للنزوات، وهي شهادة ابن حوقل الذي زار المغرب في القرن الرابع الهجري إذ يقول: «...وليس في بالهم من الفواحش الظاهرة وتعاطي الأمور المنكرة كالعيدان والطنابير والمعازف والقيان ، والفسق الشنيع ما بكثير من المواضع» [1] .

6) الرباطات التي ظهرت بالمغرب أدت إلى انتشار الزهد، فقد ساعد على بنائها الحكام والولاة، و كان المغرب قبلة للمرابطين الزهاد الذين ألزموا نفوسهم على الطاعة وأقاموا في الثغور وعلى تخوم الدولة مدافعين عن الإسلام والمسلمين من هجمات الروم، فهم يجمعون بين الدين والدنيا، ليليهم هجود وتسبيح وأيامهم يقظة وجهاد، وفي ذلك يقول ابن الأحوص في زهاد أهل المغرب :

أَبَوْا أنْ يَرقُدُوا الليلَ   فَهُـمْ للهِ قـُوَّامْ
أَبَوْا أنْ يَخْدُمُوا الدُّنيَا   فهُـمْ للهِ خُـدَّامْ [2]

فالأربطة من أكثر المناطق تدينا وقبلة للزهاد، وكانت تعد بمثابة المدارس الروحية تبث الحماسة الدينية في نفوس الناس، فهذه العوامل وغيرها أدت إلى اتجاه كثير من الناس في المغرب الإسلامي إلى الزهد، وقد انقسموا فريقين فريق فضل الاعتكاف والعزلة بعيدا عن الناس ينتظر الموت الذي يخلصه من شرور الدنيا والأحياء وهو اتجاه سلبي لا يتفق وجوهر الدين الإسلامي الذي يدعوا إلى العمل بالدنيا كمن يعيش أبدا وللآخرة كمن يموت غدا، فضلا على أن هذا الفريق يعطل ركن المعاملات في الإسلام، وفريق كان ايجابيا في زهده كمجموعة الزهاد الذين سكنوا الرباطات وكانوا يتعبدون ويجاهدون في سبيل الله دفاعا عن الأمة [3].

وتأثر الشعر العربي عموما بنزول القرآن، فتهذبت ألفاظه واستقامت معانيه ونهلت من قيمه النبيلة وبرز ما يسمى بالشعر الديني الذي يرتكز على الوعظ والتذكير والحكمة الدينية، فالوعظ كان يتناول فكرة الموت التي تعقبها فترة الحساب فعلى كل ذي عقل الاستعداد لهذا اليوم بالعمل الصالح، إذن فالزهد هو موضوع شعري نشأ في الشعر العربي مع الشعراء وتطور بتطوره وجاء على لسان الشعراء الزهاد في صور

(1) **ينظر : د/عبد العزيز نبوي** : الشعر المغربي القديم ، ص 92 .
(2) **ليلى قجوج:النزعة الزهدية في الشعر المغربي** حتى نهاية القرن الثالث الهجري،مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الأدب العربي المغربي القديم ، جامعة باتنة ، 2006، ص 16 .
(3) **ينظر : د/عبد العزيز نبوي** : الشعر المغربي القديم ، ص 93 .

حكمية تدعو إلى التقشف وفعل الخير، ووجد هذا الفن مكانه في الشعر العربي المغربي بتأثير حركة الزهد التي أتينا على ذكر أهم مراحل نشأتها وتطورها .

وقصيدة الزهد تعتبر من طلائع الشعر الديني باشتمالها على كثير من الآداب الدينية فضلا عن التذكير بالموت والآخرة من مثل إتّقاء الشبهات، والدعوة إلى القناعة، وإيثار الصمت، والصبر على المكاره، و غيرها من الآداب، والشعراء المغاربة قالوا في هذا الموضوع وأفاضوا فيه بحكم الثقافة الدينية الإسلامية، وبحكم كثرة الفقهاء وتأثيرهم في نفوس الناس وبخاصة العامة، وكذلك الحروب المتتالية التي شهدها المغرب كل ذلك ولّد حافزا دينيا قويا شدّ الإنسان إلى آخرته .

أما إذا نظرنا إلى شعر النازحين إلى القيروان قبل خرابها وجدنا أبرز من اهتم بهذا الموضوع هو الشاعر بكر بن حماد التاهرتي الذي نقرأ في شعره أحاديث ومعاني كثيرة عن الموت والآخرة وتذكير الإنسان بنهايته المحتومة، وتقلبات الأحوال في الدنيا، كما دعا الإنسان إلى الإنابة إلى الله قبل فوات الأوان والتزود للآخرة وما إلى ذلك من المسائل التي تحدث عنها الزهاد .

ومن أهم قصائده قصيدة يدعوا فيها إلى الوقوف أمام القبور لإدراك حقيقة الإنسان و مصيره المحتوم، وما آل إليه هؤلاء الناس بعد أن سقاهم الدهر كأس الحمام، فوسدوا التراب وابتعدوا عن عالم الأحياء، كما راح الشاعر يذكّر بالموت ويعظّم الآخرة، ويدعوا إلى التقوى والصلاح والابتعاد عن المعاصي والإسراع إلى التوبة قبل فوات الأوان، وهي معان دأب عليها الشعراء الزهاد من قبل وتضمنتها قصائدهم الزهدية .

وفي هذه المضامين يقول بكر بن حماد : (البسيط)

قِفْ بالقُبُورِ فَنَادِ الهَامِدينَ بهَا ... مِنْ أعْظُمٍ بُلِيَتْ فِيهَا و أجْسَادِ
قومٌ تقطَّعتِ الأسْبابُ بينَهُمْ ... من الوِصَالِ وصَارُوا تَحت أطْوادِ
راحُوا جميعًا على الأقدامِ وابْتَكَرُوا ... فلنْ يرُوحُوا ولنْ يَغْدُو لهم غادِ
واللّهِ لو رُدّوا ولو نَطقُوا ... إذًا لقالُوا :التُّقَى من أفضل الزَّادِ
فبرَزَ القومُ و امتدَّتْ عساكرُهم ... كمَا يوافُوا لِميقات ومِيعادِ
ما بالقلُوبِ حياةٌ بعد غفلتِهَا ... واللّهُ سبحانهُ منهَا بمِرْصَادِ
أين البقاءُ وهذا الموتُ يطلبُنا ... هيهاتَ هيهاتَ يا بكرَ بْنَ حَمَّادِ
بيْنَا نرى المرءَ في لَهْوٍ وفي لعبٍ ... حتَّى نراهُ على نَعْشٍ وأعْوَادِ [1]

([1]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 80،81 .

في هذه الأبيات وقف الشاعر يتأمل أهل القبور الذين أبادهم الزمان وهو أمر يبعث على الاعتبار والاتعاظ، والمتأمل لهذه الأبيات يلاحظ بيسر أن فكرة الموت أو الانتقال من الحياة إلى الدار الآخرة فكرة تسيطر على نفس الشاعر، وقلّ ما نجد قصيدة زهدية لا تبدأ أو لا تنتهي أولا تشير إلى أن الموت مطية للدار الآخرة والدعوة إلى العبرة ومن ثم التزود بالتقوى، لأن بصلاح الأولى تصلح الثانية وبفسادها تسوء العاقبة في الآخرة ولذلك يفضل الزهاد الآخرة على الدنيا وصغرت الدنيا في أعينهم وأقبلوا على الموت وأكثروا من ذكرها كحتمية لا مفر منها .

كما احتوت القصيدة على عدة صور كالتشبيه في البيت الخامس الذي يشبه فيه الشاعر كثرة العساكر عند الاستعراض باجتماع الناس يوم البعث والنشور، كما تشهد كثرة الإحالات الدينية، فلجأ شاعرنا إلى الاقتباس من القرآن الكريم، وتضمنت أبياته معان كثيرة من آيات القرآن الكريم ونجد ذلك في البيت الرابع ما اقتبسه من قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [1] وفي البيت السادس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[2] كما كرر كلمة هيهات هيهات التي تتضمن الآية الكريمة: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [3] وكثرة الاقتباس تعتبر من الظواهر الفنية التي تظهر في شعر الزهد عند شعراء المغرب .

وللشاعر بكر بن حماد أيضا أبيات يقول فيها : (الطويل)

لقد جَمحَتْ نفسي فصدَّتْ وأعرضتْ ... وقدْ مَرقَتْ نفسي فطال مُروقُــهَا
تجهَّمْتُ خَمْسًا بعد سبعينَ حِجَّــةً ... ودَامَ غُروبُ الشِّمسِ لي وطُلوعُهَا
وأيدي المَنَايَا كلُّ يــومٍ وليــــلةٍ ... إذا فُتِقَتْ لا يُستطَاعُ رُتوقُــهَا
يصبِّحُ أقوامًا على حــــينِ غفـلةٍ ... ويأتيكَ في حينِ البياتِ طُروقُـهَا [4]

ففي الأبيات تحذير للنفس من غوايتها وعصيانها، وتذكير لها، بما ستلاقيه يوم القضاء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، كما يظهر الشاعر محاسبته لنفسه في وقت أحس بدنو الأجل، والزهدية في أبياتها تضمنت ذكر الزمان والموت الذي يأتي فجأة، ويُصبّح أقواما على حين غفلتها، إلا أن شاعرنا بعدما عاش خمسا وسبعين عاما أحس بقرب الموت و طروقها، وفلسفة الزمان عند الشاعر قريبة من مفهوم الدهر عند الجاهليين، فالدهر مخيف يتربص بالإنسان الدوائر، و لا شيء يصمد في وجهه، والشاعر الزاهد يعلم أن الزمان مبتليه في جسده وليس أمامه إلا الخضوع لمشيئته لأنه مقترن عنده بمفهوم الابتلاء، وأنه لا يأتي على الإنسان إلا ليقربه إلى الله وينقله من دار الفَنَاء إلى دار البقاء .

([1]) **سورة البقرة** : الآية 197 .
([2]) **سورة الفجر** : الآية 14 .
([3]) **سورة المؤمنون** : الآية 36 .
([4]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 78،79 .

كما لجأ الشاعر إلى المطابقة في البيت الثاني بين (غروب وطلوع)، وفي البيت الثالث بين (فتق و رتوق)

وللشاعر أيضا أبيات في هذا الموضوع يقول فيها : (الطويل)

لقد جفّتِ الأقلامُ بالخَـلقِ كلِّهِم فمنهُم شقيٌّ خائبٌ وسعيـدُ

تمرُّ الليالي بالنُّفوسِ سريـــعةً ويُبدئُ ربِّي خَلقهُ و يُعيـدُ

أرى الخيرَ في الدُّنيا يَقِلُّ بكثرةٍ ينقُصُ نَقْصًا والحديثُ يَزيدُ

فلو كانَ خيرًا قَلَّ كالخيرِ كُـلِّهِ وأحْسِبُ أنَّ الخيرَ منه بَعيدُ [1]

ينصح الشاعر الإنسان بعدم الاطمئنان كثيرا إلى الدنيا، لأن نعيمها إلى زوال مثل ما هي إلى فناء، كما يعظ الناس الذين يقدمون على الدنيا ويراهنون على خيرها ونعيمها الزائلين، مما شغلهم زخرفها وخضرتها عن التفكير في حقيقتها وأن لا يخدعهم غرورها، فينبههم من غفلتهم ويدعوهم إلى التخلي عنها، وأن يشغلوا قلوبهم بحب الله عز وجل الذي له الخلق والأمر أولا و آخرا وعنده الثواب والجزاء، كما لا يخلو النص الشعري من محسنات معنوية كالمطابقة بين (شقي وسعيد) وبين(ينقص ويزيد)، وبهذه التقابلات الدلالية يخلق الشاعر عالمين عالم الشهادة الفاني وعالم الغيب الباقي .

ولبكر بن حماد قصيدة يقول فيها : (الوافر)

نَهَارٌ مُشْرِقٌ وظلامُ ليـــــلٍ ألحَّا بالبياضِ و بالسوادِ

همَا هَدَمَا دَعائمَ عُمْرِ نُـــوحٍ ولُقمان وشدّاد وعَـــادِ

فيا بكر بْنَ حمَّاد تعجَّـــبْ لقومٍ سافرُوا من غيرِ زادِ

تبيتُ على فراشكَ مطمـــئنًّا كأنَّكَ قد أَمِنْتَ مِنَ المِعادِ

فيا سُبحانَ من أرْسَى الرَّواسِي و أوتَدَهَا معَ السَّبْعِ الشِّدادِ [2]

وإنّ من يستقرئ شعر الزهاد وهذه الزهدية لبكر بن حماد يرى بوضوح كيف يقلب الشاعر صفحات التاريخ العربي والإنساني، ويثبت بأن كل من عليها فان، ثم يلجأ فيخاطب ذاته علها تتعظ، ويذكر الزمان والموت في زهديته، فكل الزهاد يجمعون على أن الموت ينغص على الإنسان حياته ويقهر كبرياءه ويجعل فرحه مشوبا بالحزن والبؤس، وأن لا أمان في هذه الأولى مهما عمّر الإنسان، كما لم تخل هذه الأبيات من التوظيف التاريخي إشارة من الشاعر إلى التأسي بالأقوام التي عمّرت طويلا، ثم صغرت الدنيا في أعينهم وكانت الموت كنهاية ومصير محتوم لهم .

([1]) **المصدر السابق** : ص 75 .

([2]) **المصدر نفسه** : ص 76 .

كما نلاحظ كذلك في هذه الزهدية عدة ظواهر فنية تنسجم مع فكرة الزهد كالمطابقات، فقد طابق الشاعر بين (نهار وليل) و(البياض والسواد)، وكذلك التأثير بأسلوب القرآن الكريم في الوعظ والتذكيرلا باليوم الآخر مما جعله يستعمل خطابا يحمل اللوم والعتاب ويظهر ذلك جليا في البيت الرابع، كما ينبهنا النص إلى ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم في البيت الخامس، فالشطر الأول مستوحي من قوله تعالى: ﴿وهُوَ الذّي مَدّ الارْضَ وجَعَلَ فيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾[1] أما الشطر الثاني فهو يتضمن قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[2].

وجدير بالملاحظة أن نرى في الشعر الزهدي، استعمال اللغة السهلة الواضحة، ويرجع ذلك إلى ما تقتضيه طبيعة هذا اللون الشعري وصبغته التعليمية التهذيبية، فالزهد الذي يتضمن المواعظ وذكر الموت وذكر الأمم السالفة هي مفاهيم قريبة من نفوس الناس، ولذلك لا بد أن تكون لغة شعره قريبة من حياة الناس ليفهمها المتلقي أين كان ويتأثر بمعانيها، كل ذلك تردد في شعر بكر بن حماد التاهرتي في ألفاظ معروفة عند العام والخاص كالدنيا والتقى والزاد والموت والميعاد والخير وغيرها، فالزهد عند شعراء المغرب زهد تعليمي سلك فيه شاعرنا طريق الوعظ والتذكير كما اتجه إلى التذكير بالموت وتعظيم الآخرة ودعوة الناس إلى الاستعداد والتزود لذلك اليوم العظيم، وتلك مواضيع من صميم القصيدة الزهدية، ويغلب على هذه الزهديات مباشرة الخطاب لأنها تسعى إلى التعليم والتذكير والتقرير ملتفعة بالخطاب القرآني شاهدا ومبشرا ونذيرا.

خامسا: الغـــزل:

يعد الغزل من أهم الموضوعات التي شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث، وهو غرض شعري يشغل مكانا واسعا في مساحة الأدب، فلا يخلو شعر الشاعر منه، بل كان مطلعا لقصائدهم ومفتاحا لرحلاتهم الشعرية، ومن قديم تغنّى الشعراء بعاطفة الحب الخالدة، وصوروا مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة، فكان قيس مع ليلى وجميل مع بثينة و ابن زيدون مع ولادة، و ما يكون بينهم من لقاء ووداع، و وصال وهجران، وهم تارة سعداء بوصالها وتارة أشقياء، فتراهم يشكون الهجران والحرمان، ويتمنون ولو نظرة من بعيد، ومهما يكن فإن الغزل أدب وجداني يعبر عن الذات الداخلية، لا أدب وصفي يرسم المظاهر الخارجية و « لعل ذاتية وفردية الشعر العربي وغنائيته برهان على أن هذا الشعر شعر وجداني عاطفي يغلب عليه التعبير عن النفس وعواطفها الخاصة» [3] .

([1]) **سورة الرعد** : الآية 3 .
([2]) **سورة النبأ** : الآية 12 .
([3]) **د/شكري فيصل** : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، دار العلم للملايين ، ط2، 1983 ، ص 27 .

إن هذا التعبير عن الذات عاطفيا أطلق عليه في الشعر العربي الغزل، ويحمل هذا الموضوع في التراث النقدي العربي مصطلحات عدة منها الغزل والنسيب والتشبيب، ومن علمائنا الأقدمين من ذهب إلى أن الكلمات الثلاث مترادفة كلها وتعني إبداء الشاعر عواطفه لامرأة ما أو التغني بجمالها، فيقول ابن منظور: «شبّب المرأة قال فيها الغزل والنسيب، وهو يشيب بها أي ينسب بها» [1] .

وهو الرأي الذي يذهب إليه ابن رشيق القيرواني الذي يرى أن الغزل والنسيب والتشبيب بمعنى واحد [2] ومنهم من أشار إلى الاختلاف بين هذه الألفاظ وميز بعضها عن بعض، فقيل إن الغزل هو الشعور بحب امرأة بعينها، وأما ذكر هذا الشعور وذكر الصفات والأحوال يسمى تغزلا ونسيبا، و التشبيب هو الإشادة بذكر المحبوب وصفاته [3] .

ومهما اتفقت هذه الألفاظ أو اختلفت، فالغزل هو موضوع شعري يتضمن الأقوال والأفعال الجارية بين المحب والمحبوب ومن قديم هو نوعان نوع مادي يصور فيه الشاعر المرأة تصويرا حسيا، ونوع عذري طاهر يسمو فيه الشاعر بإظهار الوجد الذي يحترق بناره، فيتغنى بمحبوبته وهو متعطش لرؤيتها، وكأنها في عالم غير عالمه الذي يعيش، فيترك هذا الاشتياق في نفسه لوعة وفي عينه دمعة وفي قلبه لهفة ...

وقد تطور هذا اللون الشعري تطورا ملحوظا عبر الأزمنة والأمكنة وعلى ألسنة الشعراء، فالغزل بنوعيه قد عرفه العصر الجاهلي، وأكثر ما وصلنا في هذا العصر مقدمات لقصائد أو أبيات معدودة في قصائد ذات موضوعات أخرى « وقلما استقل هذا الغزل بقصائد على حدى في العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام» [4] وفي العصر الإسلامي انشغل المسلمون بالدعوة الجديدة وانصرفوا إلى الجهاد و مدارسة القرآن، وظهور النقد الأخلاقي المواكب للدعوة الإسلامية الذي يجتهد على أن يكون الشعر ملتزما بالقيم الجديدة، وما وجد في هذا العصر من غزل كان مقدمات غلب عليها طابع التقليد الفني أو كان وصفا لأحاسيس هذبها الإسلام، ومن ذلك لامية كعب بن زهير التي امتدح فيها رسول الإسلام .

وفي العصر الأموي ازدهر الغزل واستقل عن الموضوعات الأخرى في قصائد ومقطوعات، ويرجع ذلك إلى عوامل اقتصادية كالثراء الفاحش الذي ظهر في بعض المدن كمكة والمدينة، فمالت إليه الحياة المنعمة اللاهية وعوامل اجتماعية تمثلت في قيم جديدة بعد الاستقرار الذي نشأ في المدن، وظهور الترف، فكثرت الجواري والعبيد وانتشر الغناء، ونشأ جيل جديد في ظل هذا المجتمع، وعوامل سياسية ساهمت في ذلك منها انتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق وتمركز المعارضة في العراق وعزل الحجاز عن المشاركة في الحياة السياسية .

---

(1) **ابن منظور** : لسان العرب ، مج4 ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1992 ، ،ص 4 .
(2) **ينظر** : العمدة ، ج2 ، ص 117 .
(3) **ينظر : د/عبد العزيز نبوي** : دراسات في الأدب الجاهلي ، ص 109 .
(4) **محمد غنيمي هلال** : النقد الأدبي الحديث ، ص 188 .

هذه العوامل كانت وراء تطور موضوع الغزل واستقلاله، قال محمد غنيمي هلال: «ومنذ العصر الأموي أصبح الغزل جنسا أدبيا مستقلا، وتنوعت فنون القول فيه متأثرة بالبيئة الاجتماعية وما كان لها من صدى في الحياة العاطفية »[1] وفي المرحلة اللاحقة وبالتحديد في العصر العباسي وتحت تأثير ظروف حضارية معقدة يطول الحديث في تفاصيلها، نشأ ما يسمى بالغزل الشاذ .

وأما موضوع الغزل عند شعرائنا المهاجرين إلى القيروان وضمن الفترة التي يعالجها البحث، فيبدو أنه حافظ على كثير من سمات الغزل القديم سواء ما تعلق بمنهجية القصيدة أو معانيها أو لغتها أو أسلوبها وبوجه عام يمكن أن نعتبر أن المعاني التي أفاض فيها القول شعراؤنا هي معاني شعر الغزل الكلاسيكي

واتصف الغزل في عموم المقطّعات الشعرية التي أثْرت هذا الغرض بالحسية ووصف المرأة ووصفا حسيا كما صور عواطف الشاعر ولذته، واتصف عند بعضهم بالحب السامي النبيل .

الغزل الحسي :

وقف الشعراء كثيرا عند حدود الوصف المادي الحسي لما يعشقه الشاعر من أعضاء المرأة الحبيبة فوصفوا القد والخصر، والردف والقوام، والخدود والعيون والوجه والمتعة التي كثيرا ما تكون في نهاية الوصف الحسي .

يقول الشاعر ابن هانئ في مطلع قصيدة يمدح بها المعز : (الكامل)

قامتْ تميسُ كمَا تَدَافعَ جَــــدولٌ ... وانْسابَ أيمٌ في نقًا يتهــــــيَّلُ

وأتتْ تُزَجِي رِدْفَهَا بقَوامِـــــهَا ... فتأطَّر الأعلَى ومَاجَ الأسْفـــــلُ

صنمٌ تردَّى الحُسْنَ منهُ مُقرطـقٌ ... ومشَى على البردِيِّ منهُ مُخلخَلُ

قُلْ للتِّي أصْمَتْ فُؤادِي خَفِّضِـــي ... وَقْعَ السِّهامِ فَقدْ أُصِيبَ المَقْتَـــلُ [2]

يصور الشاعر محبوبته وهي تمشي متمايلة كمياه تتدافع متدفقة، أو كحية تنساب على مساحة رمل، أتت وقوامها الخفيف يسوق ردفها أي أعلاها يتحكم في سير أسفلها، مرتدية ما حسن من اللباس خاصة ما يلبس على قوامها ومشت على ساق كالنبات النضر في نعومتها وصفاء لونها، وهذه أوصاف حسية أظهرت مكابدة وتألم الشاعر، في البيت الأخير حيث أصمت فؤاده برشقات سهامها وهي صفة تكشف التمنع والهجر الذي يحس بها العاشق الذي قد يؤدي إلى القتل .

([1]) **المرجع** السابق : ص 188 .

([2]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 166،167 .

ويقول في مطلع أخرى : (الطويل)

أَرَيَّاكِ أمْ رَدْعٌ من المسكِ صائِـــكُ ولحظُكِ أمْ حَدٌّ من السَّيف بَاتِكُ

وأعْطَافُ نشْوَى أم قَوامٌ مُهفْهَــفٌ تأوَّدَ غُصنٌ فيه ، وارْتَــجَّ عَانِـكُ

وما شَقَّ جيبَ الحُسْنِ إلاَّ شَقائقٌ بخدَّيكِ مَفْتُـوكٌ بِهـنَّ فَواتِـــكُ (1)

يصف الشاعر في المرأة دقة الخصر وضمور البطن و اختصر ذلك في كلمة "مهفهف"، وهو وصف حسي وصورة نمطية موروثة، ويشبه قوامها وقدها الرشيق بامرأة سكرى تهزها سكرة الخمر حتى أن جمالها الباهر المتمثل في شقائق خديها فتك بالأبطال، كما أشار في البيت الأول إلى ريحها الطيب الذي يشبه أثر المسك اللاصق ولحظها الذي هو كالسيف القاطع، كل ذلك وصفٌ لمفاتن المرأة الذي يؤدي إلى اللذة بعيدا عن العواطف والأحاسيس التي لا نجد لها أثرا، وهو وصف مادي حسي يرسم الشاعر فيه صورة المرأة وكأنها ماثلة أمامك تتهادى بأعطافها النشوى، ويقول ابن رشيق في معشوق : (الكامل)

ومُهفْهفٍ يَحميهِ عن نَظَرِ الوَرَى غَيْرَانُ سُكْنَى المُلْكِ تَحْتَ قِبَابِهِ

أَوْمَا إليَّ أَنِ ائْتِنِي فأَتَيْـــتُهُ والفَجْرُ يَرمُقُ من خلال نِقَــابِهِ

وضَمَمْتُهُ للصَّدرِ حتَّى اسْتَوهَبتْ منِّي ثِيابي بعضَ طِيبِ ثيــابِهِ

فلثَمْتُ خدًّا منهُ ضَرّمَ لوعَتِي وجعَلتُ أُطْفي حَرَّهَا بِرُضَـابِهِ

فكأنَّ قلبِي من وراء ضُلوعِــهِ طربًا يُخبِّرُ قلبَهُ عَمَّا بِـــهِ (2)

وبنفس الصور التقليدية يصف محبُوبَته بأنها ضامرة البطن دقيقة الخصر، وقد أشار إليها وكان الفجر يطلع من بهاء وجهها ونور محياها، وكلمة الفجر هنا كناية عن نور وجه المرأة الذي يشع من خلال نقابها، كما نراه عندما يتقرب منها، ويطرب الشاعر لهذا حتى أن قلبه يخفق بين ضلوعه، فيخبر قلب محبوبته عما به من هيام وشوق وحنين، و في هذا النص يظهر التوجه الحسي بشكل بارز فيوظف المحسوسات التالية (الرضاب، الضلوع، القلب طيب الثياب)، ثم يصف ما حصل عليه من لذة ومتاع، وتغيب تماما لغة العواطف والأحاسيس، وحتى المعاناة التي يكابدها عند الهجر، والفرحة التي يحسها عند اللقاء وإنما يحكي مغامرة من مغامراته العاطفية على طريقة شعراء الغزل الحسي المادي .

الغــزل المعنــوي :

وإلى جانب هذا الوصف الحسي للمرأة كان هناك وصف معنوي روحي عبّر فيه الشعراء عن حرقة الحب ولوعة الفراق، فذرفوا الدموع، وشَقَوْا بالهجر وصــوروا الشوق والوجــد والهـــيام، ومن هــذا النــوع نجد

(1) **المصدر السابق** : ص 122 .
(2) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 46،47 .

الشاعر عبد الكريم النهشلي يذرف دموعه متشوقا : (الكامل)

يشكُو هَواكِ إلى الدُّموعِ مُتيَّـمٌ لمْ يبقَ فيه للعزاءِ نَسِيسُ
لولا الدُّموعُ تَحرَّقتْ من شَوقِـهِ يوم الوَداعِ قِبَابُكُمْ والعِيسُ [1]

البيتان فيهما وصف لمعاناة الشاعر العاشق الذي ألمت به تباريح الشوق والوجد عند وداع صاحبته، ويعترف أن الشوق اشتد عليه وطغى على وجدانه ولم يعد يستطيع أن يقدم شكواه إلا لدموعه وقد قتله الحب ولم يبق فيه إلا بقية من الروح ولولا الدموع المذرفة لاحترقت بنار حبه قبابها وهوادجها وحتى الإبل، والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حمائم وسمعها تترنم وتنوح فتأثر بها وأنشد : (الطويل)

أوَاجِدةٌ وجْدِي حَمائِمُ أيْكَـةٍ تميلُ بها مَيْلَ النَّزيفِ غُصونُهَا
نَشَاوَى وما مَالتْ بِخمرٍ رِقابُهَا بَواكٍ وما فاضَتْ بدمعٍ عُيُونُـهَا
أَعِيدِي حمَامَاتِ اللَّوى إنَّ عندنَا لشَجْوُكِ أمثالاً يعُودُ حنينُـهَا [2]

يفتتح النهشلي هذا النص بتساؤل حول ما إذا كان بداخل هذه الحمائم مواجد مثل مواجده، وأن غصون الشجرة تتمايل بها كما يتمايل السكران المنتشي، وأنّ الحمائم نفسها سكارى وما شربت خمرا، وأنّ عليها علامات البكاء وما بكت عيونها، ونجد الشاعر يلتمس منها أن تعيد بكاءها ونواحها فإنها تثير في نفسه لوعة الشوق وحرارة الوجد وتدفق الدمع وانفطار القلب، وهي صور حزينة تثير الشفقة وتبعث الحنين تجاه محبوب طال هجره وانقطع وصله وقد استهل ابن قاضي ميلة قصيدته الفائية: «بغزل حواري على طريقة عمر بن أبي ربيعة أبدع فيه كل الإبداع » [3] فيقول في هذه الأبيات : (الطويل)

ولَمَّا التقيْنَا مُحرمَينِ و سَيْرُنَا بلبَّيْكِ ربًّا والركائِبُ تَعسِفُ
نظرتُ إليهَا والمَطيُّ كَأنَّمَا غَوارِبُهَا منها مَعاطسُ رُعَّفُ
فقالتْ: أَمَا منكُنَّ من يَعرفُ الفَتَى فقدْ رَابنِي من طولِ ما يَتَشَوَّفُ
أراهُ إذا سِرْنَا يسيرُ حذاءَنَا ونُوقِفُ أخْفَافَ المَطيِّ فيُوقِفُ
فقلتُ لتِرْبَيْهَا : أبْلغاهَا بأنَّنِي بها مُسْتَهَامٌ قالتَا: نَتَلَطَّفُ
وقولاَ لهَا : يَا أَمَّ عَمْرُو أليْسَ ذَا منِّي والمُنَى في خَيْفِهِ ليس يَخْلِفُ
وفِي عَرَفَات ما يُخَبِّرُ أنَّنِي بعارفةٍ من عَطْفِ قلبكِ أسْعَفُ
فأوْصَلتَا ما قُلتُه فتبسَّمتْ وقالتْ أحَادِيثُ العِيافَةِ زُخْرَفُ
وقد أنذَرَ الإحْرَامُ أنَّ وصَالنَا حرامٌ وأنَّا عَنْ مَزارِكَ نَصْدفُ [4]

([1]) **حسن بن رشيق :** أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 176 .
([2]) **المصدر نفسه :** ص 176 .
([3]) **د/شوقي ضيف :** تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 172 .
([4]) **حسن بن رشيق :** أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 211،212 .

يذكر الشاعر التقاءه بصاحبته وهما في موسم الحج يلبيان ربهما قائلين: لبيك اللهم لبيك ويسير بجوارها وينظر إليها وكلما توقفت قال لمن معها أبلغاها بأنني مشتاق هائم بها، وقولا لها إننا سننزل منى وينبغي أن تحقق لي في منحدر منى اللقاء، وسنقف بعدها في عرفات، فهل تجود علي بملاقاة، وسمعت ما قال لها فابتسمت وقالت: تلك أحاديث عيافة وكهانة وتفاؤل مزخرف، وإنني في حالة إحرام والإحرام يحرم وصالنا وإني صادفة عنه ولن ألقاه، وتمتاز هذه المقدمة الغزلية بحوار قصصي طريف حرص فيه الشاعر على نقل أماكن مقدسة وذكرها بأسمائها (عرفات،منى) لكنه لم ينقل صورة الحبيبة بالتفصيل، وإنما ترك المتأمل يستنتج حزن الشاعر على عدم الوصال، لأن الإحرام حال دون ذلك، وبقي الشاعر يكابد ألم الشوق والهيام، ويقول الشاعر ابن أبي الرجال * متغزلا بفتاة : (الكامل)

غَرّاءُ واضِحةٌ يَنُوسُ بقُرطِـــــهاَ جِيدٌ حكَى جيدَ الغَزالِ الأعْنَقِ
صدَّتْ فأغْرَتْ بالسُّجومِ مدَامِعِي والعينُ تَذْرُفُ بالدُّموعِ السُّبُـــقِ
تشكُو البِعادَ إذا بَعُدْتُ تصَـبُّرًا وإنِ ارْتَجَعَتْ إلى الزِّيَارةِ تَفْرَقِ
ولقدْ يبيتُ أخُو المَودَّةِ لائِمِـــي في حُبِّهَا لومَ الشَّفيقِ المُشْـــفقِ (1)

يظهر جليا في هذه الأبيات أن الشاعر يمزج بين الغزل الحسي والمعنوي في تجربة واحدة، فتراه يصور بعض أعضاء المرأة تصويرا خفيفا ثم يعود إلى الأوصاف المعنوية، وتتمثل الأوصاف الحسية في كلمة "غرّاء" التي تعني حسن البشرة وبياضها ونضرتها، كما وصف عنقها الطويل وما يحمل من درر على شحمة أذنيها مما زاد في بهائها حتى قال إنه يحاكي جيد الغزال الأعنق، وأما الأوصاف المعنوية فتتمثل في البكاء من فرط الوجد وألم الصبابة، فقد ذرفت دموعه كثيرا لمّا صدّت عنه محبوبته تصبرا من بعدها كما يرسم الشاعر في البيت الأخير صورة العتاب واللوم ولكن لوم شفيق خائف على مصيره .

سادسا: الهجـــاء:

يعتبر الهجاء من الموضوعات القديمة التي وجدت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، وإذا كان العرب قديما يفخرون بالشجاعة والكرم، فقد كانوا يعيّرون بالجبن والبخل، وإذا كانوا يباهون بالوفاء والعزة وحماية الجار، فقد كانوا يرمون خصومهم بالغدر والذل والعجز عن الإجارة، ومن يمدح بالحلم والعلم وفرض السلطان على الناس فمن الطبيعي أن يهجو بالرعونة والجهل والخضوع لأولي الظلم الجور (2) .

---

* هو أبو الحسن علي بن أبي الرجال، ينسب إلى القيروان، ويرجع نسبه إلى أشراف مدينة تيهرت، هاجر إلى القيروان وعاش فيها مدة في بلاط المعز بن باديس الصنهاجي، وكان وزيرا عنده، ومنزلته لديه سامية، ونفوذه في البلاط عظيما ،فتقرب إليه الأدباء والعلماء وأهدى إليه ابن رشق كتابه العمدة، كما أهدى إليه ابن شرف كتابه رسائل الانتقاد، كان أديبا ناثرا وشاعرا يميل إلى العلوم الرياضية ، توفي سنة 425 هـ .

(1) **ابن رشيق** : العمدة ، ج2 ، ص 112 .

(2) **ينظر : د/غازي طليمات عرفان الأشقر** : الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ص 228 .

فالشاعر ينفع قومه بفخره كما ينفع قومه بهجاء خصومهم، فقد كان في قبيلته بمثابة الصحيفة واللسان الذي يشيد بمفاخرها ويهجو أعداءها ويرثي موتاها ويشيد بمكانتها بين القبائل الأخرى [1] .

وتدور معاني الهجاء على كل ما يناقض قيم المجتمع وفضائله ولذلك عرفه النقاد و الدارسون بأنه الشتم بالشعر، وهو خلاف المدح، فيتناول الشاعر في هذا الغرض عيوب خصمه بالذم والتشهير «فهو نقيض المدح لأن المدح يذكر الفضائل والهجاء يعدد الرذائل » [2] .

وموضوع الهجاء قديم في الشعر العربي يسير جنبا إلى جنب مع غرض المديح، وكان له شأن خطير في حياة العرب نظرا لآثاره السلبية على الأفراد والقبائل، وهو لعنة تلحق بالمهجو وكرب ينزل به، وخوفهم قد يكون نابعا من اعتقاداتهم بعلاقة الهجاء بلعنات الآلهة «فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يقرن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه و يتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا » [3] .

ومن ذلك أن الرجل إذا هُدّد بالهجاء فإنه يخاف لهذا التهديد ويسعى جاهدا لتجنب ذلك، يروى أن الحارث بن ورقاء الأسدي أغار على عشيرة زهير واستاق إبلا له وغلاما، فنظم زهير أبياتا يتوعده بالهجاء المقذع، ففزع الحارث وردّ عليه ما سلبه منه [4] وفي العصر الإسلامي الأول وبتأثير من الدعوة الإسلامية وُظّفت قيم دينية في هجاء المشركين وصار الهجاء سلاحا يدافع على خط الدعوة ويخيف الكفار، وأصبح يعاقب عنه لأنه يمس الأعراض، ويخلف الضغناء ويفرق بين المسلمين .

ويذكر ابن رشيق في عمدته أن النبي ﷺ قال: «من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر»، ولما أطلق عمر بن الخطاب ﷺ الحطيئة من حبسه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر قال له: «إياك والهجاء المقذع » [5]

وفي العصر الأموي استمال الهجاء على لسان الفرزدق وجرير إلى ما يشبه المناظرات الحادة في بيان فضائل ومساوئ عشيرتيهما [6] فقبيلة تميم كان يدافع عنها الشاعر الفرزدق و الشاعر جرير كان يدافع عن قبيلته قيس، وازدهر الهجاء في هذا العصر مما كان عليه في العصر الجاهلي، وذلك لعودة العصبيات القبلية وبروز الأحزاب السياسية وتدخل السياسة في تغذية الخلاف مما يوفر الجو للتهاجي، وكذا ظهور الشعوبية ونظرتها الحاقدة على العرب، فظهر الهجاء السياسي وازدهرت النقائض.

---

(1) **ينظر : أ د/حسنى عبد الجليل يوسف** :الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص،دار الوفاء،الإسكندرية،ط1،2007 ، ص 91 .
(2) **د/ غازي طليمات عرفان الأشقر** : الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه ، ص 224 .
(3) **د/شوقي ضيف** : العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، ط5، 1971، ص 197 .
(4) **ينظر : المرجع نفسه** : ص 197 .
(5) **ابن رشيق** : العمدة ، ج2 ،ص 170 .
(6) **ينظر: د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 156 .

وفي العصر العباسي أخذ الشعراء يتفننون في وصف المهجو بالدناءة والقذارة مع ما قد يذكره الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين [1] وينقسم الهجاء إلى أنواع :

فهناك الهجاء الشخصي، وفيه يعتمد الشاعر على مهاجمة الأفراد، وهو أقدم أنواع الشعر الهجائي وهو في معظم الأحيان يتأثر بالأهواء الشخصية بعيدا عن العدل والإنصاف [2] وهناك الهجاء الأخلاقي الذي «يعنى بالجرائم الأخلاقية أو الدينية والمفاسد الاجتماعية والعادات القبيحة » [3] وهناك الهجاء السياسي وهو أن يتبنى الشاعر حزبا من الأحزاب أو مذهبا من المذاهب، فتراه يعلن ثورة كلامية على سائر الأحزاب الأخرى وظهر هذا النوع من الهجاء في العصر الأموي خاصة، وإلى جانب هذه الأنواع هناك هجاء موجه إلى القبيلة وهو تصوير للشعر السياسي في طوره البدائي .

ويرى النقاد أن للهجاء أسلوبه الخاص، إذ يلجأ الشاعر إلى اختيار الألفاظ البسيطة الواضحة التي تساهم في ذيوع وانتشار الهجاء، كما يجنح الشاعر إلى الإيجاز وينأى عن المبالغة، ولم يخل الشعر المغربي القديم من غرض الهجاء فقد اقتفى المغاربة أثر المشارقة في هذا الفن أيضا مع اختلاف فيما بينهم من حيث طول الهجاء وقصره، فالهجاء في المشرق تكثر فيه القصائد الطوال وتقل فيه المقطعات، وهذا عكس ما نلاحظه في الهجاء عند شعرائنا حيث تكاد تنعدم القصائد الطوال والذي استطعنا جمعه يقتصر على المقطّعات .

ولا شك أن الشعراء نظموا قصائد في هذا الفن لكن إنتاجهم ضاع مع ما ضاع من التراث الأدبي ولم يصلنا من ذلك إلا القليل الذي ينضوي تحت نوع الهجاء السياسي أو المذهبي، ويبرز في هذا القسم عموما نقد الملوك والحكام والتعصب للمذهب الديني، فنجد الشاعر بكر بن حماد يهجو الشاعر عمران بن حطان الخارجي معارضا قصيدته التي مدح بها عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي كرم الله وجهه يقول فيها :

(البسيط)

قلْ لابْنِ مُلجَم والأقدارُ غَالبَـــــةٌ … هَدَمْتَ ويْلكَ للإسْـــلاَمِ أركَـــانَا
قتلتَ أفضَلَ منْ يمشِي على قَـدَمٍ … وأوَّلَ النَّـــاسِ إسْلامًـــا وإيمانَـــا
وأعلـمَ النَّاسِ بالقُرآنِ ثمَّ بمـَــــا … سَنَّ الرَّسُولُ لنَـا شـرْعًـا وتِبْيَانَـا
صِهْرُ النَّبيِّ ومـولاهُ وناصـِــــرُهُ … أضْحَـتْ مناقِبُـهُ نُورًا و بُرهَانَـــا
وكانَ منه علَى رغْمِ الحَسُودِ لَــهُ … مكان هَارونَ منْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَا
وكان في الحربِ سيفًا صارمًا ذكرًا … ليثًا إذا لقِيَ الأقْــرانُ أقْرانَـــا [4]

([1]) **ينظر : المرجع السابق** : ص 426 .
([2]) **ينظر : د/محمد محمد حسين** :الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، مكتبة الأدب ، الإسكندرية ، مصر ،1947 ، ص 19.
([3]) **المرجع نفسه** : ص 20 .
([4]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 62،63 .

تحدث الشاعر في بداية قصيدته عن الإمام علي، فأضفى عليه كل الفضائل من حسن إسلامه وإيمانه وعلمه بالقرآن والسنة، كما أثنى على شجاعته ورفع من شأنه عندما أشار إلى نسبه، ثم تكلم على ابن ملجم وقد سلبه كل الفضائل، فأشار إلى نسبه الوضيع، وضآلة شأنه وشأن القبيلة التي ينتمي إليها فقال :

إنِّي لأحْسِبُهُ ما كان من بشـــرٍ يخشَى المعادَ ولكن كان شيطَانَا (البسيط)

أشْقَى مُرَادَ إذا عُدَّتْ قبَائلُـــهاَ وأخْسَرُ النَّاسِ عند اللهِ مِيــزَانَا

كعاقرِ الناقةِ الأُولَى التِّي جلبتْ على ثمودَ بأرضِ الحِجْرِ خُسْرَانَا [1]

ثم يواصل هجاءه ملتفـــتا إلى الشاعـــــر بن حطـــــان معارضــــا مدحــــه لابن ملجـــم فيقول :

فلاَ عَفَا اللهُ عنهُ مَـا تَحَمَّــــلَهُ ولا سقَى قبْرَ عِمْرَانَ بن حِطَّانَـــا (البسيط)

لقوله في شقيٍّ ظَـلَّ مُجْتَـــرِمًا ونالَ مَا نالهُ ظُلْمًا وعُـــــــدْوانَا

يا ضَربةً من تَقيٍّ ما أراد بهَـــا إلاَّ ليَبْلُغَ من ذِي العرشِ رِضْوَانَا

بل ضربةً من غويٍّ أوْرَثَتْهُ لَظًى مُخَلَّدًا قد أتَى الرَّحمَنَ غضْبَـانَا

كأنَّهُ لمْ يرِدْ قصْدًا بضَرْبَـــــتِهِ إلاَّ ليَصْلَى عَذابَ الخُلْدِ نيرانَـــا [2]

وفي القصيدة تأثر واضح بالمعاني الدينية فقد رمى ابن ملجم بالغيِّ والضلال بل بفعلته هذه قد هدم ركنا من أركان الإسلام، كما لجأ الشاعر إلى الاقتباس من القرآن الكريم في أكثر من محطة وللشاعر نفسه في هذا النوع من الهجاء قصيدة أخرى يحرض فيها الخليفة المعتصم بالله العباسي على الشاعر دعبل بن علي الخزاعي يقول فيها :

أيهجُو أميرَ المُؤمنينَ ورَهْـــــــطَهُ ويمْشِي عَلَى الأرضِ العَرِيضَةِ دِعْبـلُ (الطويل)

أَمَا والذِّي أرْسَى ثَبيـــرًا مَكانَــــهُ لقد كانتْ الدُّنـيَا لذاكَ تُزلْـــــزَلُ

ولكنْ أميرَ المُؤمنيـنَ بفضــــــلِهِ يهُمُّ فيَعْفُـو أو يقُــــولُ فيَفْعَـــــلُ

وعاتَبنِي فيهِ حَبيـبٌ وقالَ لِــــي: لِسَانُـكَ محـذورٌ وسُمُّكَ يَقْــــتُلُ

وإنِّي وإنْ صَرَفْتُ فِي الشِّعرِ منْطِقِي لأُنْصِفُ ممَّا قلتُ فيـهِ و أعْـــــدِلُ [3]

تضمنت القصيدة مدحا وثناء للخليفة حيث راح الشاعر يعدد مآثره وفضائله، وللتعبير عن صوره ومعانيه لجأ الشاعر إلى المفارقة الفنية إذ جعل من الخليفة المعتصم أميرا عظيما، وفي المقابل جعل الشاعر دعبلا رمزا للذل و الهوان، فهما طرفان متناقضان، كما يبرز هنا بوضوح السموّ الفكري عند ابن حماد الذي ترفع عن التعصب المذهبي، فانتماؤه لهذا الاتجاه السياسي أو غيره لا يدفعه للنيل من رموز فكرية أو تاريخية في الحياة السياسية، ومن هذه الزاوية عارض دعبل الخزاعي الشيعي المتعصب كما عارض التيار الخارجي في القصيدة

(1) **المصدر السابق** : ص 64،65 .
(2) **المصدر نفسه** : ص 66 .
(3) **المصدر نفسه** : ص 70 .

السابقة، فهو لا يتحامل على أحد لذا لما قال له الشاعر حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام أنه قسا على دعبل في تحريض المعتصم عليه كانت إجابته واضحة في البيت الأخير، وإذا نظرنا إلى الهجاء في زمن الخلافة الفاطمية وشاعرها ابن هانئ الأندلسي يبدو ضعفه واضحا في الهجاء حسب الطريقة التقليدية المتمثلة في تعداد المثالب الخَلقية والخُلقية، فيما أنه ينجح في هجاء أعداء مذهبه وإمامه وهم بنو أمية وبنو العباس عندما يجادلهم في سياق مدح الخليفة الفاطمي الرابع فيقول:

أَبَنِي لُؤَيْ أينَ فَضْلُ قَدِيمِكُـــم بل أينَ حِلْمٌ كالجبَالِ رَصِيـــنُ (الكامل)

نازَعْتُمُ حَقَّ الوصِـيِّ ودُونَـــــهُ حَرَمٌ وحِجْرٌ مانِعٌ وحَجُـــونُ

حَرَّفْتُمُوهَا عنْ أبِي السِّبْطَيْنِ عنْ زَمَعٍ وليسَ من الهجانِ هَجِيــنُ

لو تتَّقونَ اللّهَ لمْ يطْمحْ لهَـــا طرفٌ ولمْ يَشْمَخْ لهَا عِرنِيـــنُ

لكنَّكُم كنتُمْ كأهلِ العِجْـــلِ لمْ يُحفظْ لمُوسَى فيهِـمُ هَـــــرُونُ

ماذا تُريدُ من الكِتابِ نَواصِـــبٌ ولهُ ظُهورٌ دُونُهَـا و بُطُـــــونُ [1]

وهذه مقاطع في الهجاء المذهبي منضوية تحت مدائح الشاعر ذات طابع جدلي يرد بها على خصوم الفواطم وينافح فيها عن إمامه المعز الفاطمي وعن عقيدته الإسماعيلية في أهم مسألة خلافية بين الشيعة والمذاهب الأخرى وهي الخلافة ويرى أنهم نازعوا إمامهم الأول علي بن أبي طالب أبا السبطين الحسن والحسين ﷺ وصرفوا عنه الخلافة ونسوا بأنه وصيٌّ بها، كما وصف خصومه من غير مذهبه بالنواصب لما ينصبون لعلي العداء ويحاربونه وشبههم بأهل العجل تلميحا بقصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل التي ذكرت في القرآن الكريم﴿واتَّخَذَ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾[2]وهذا النوع من الهجاء يدخل في إطار الهجاء المذهبي .

سابعا: موضوعات أخرى:

أ ـ الفخر :

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربي، فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء فيفخرون بأخلاقهم الرفيعة مثل: المروءة و الكرامة و الجود والشجاعة إلى غير ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة كما يفخرون بعصبياتهم ومشاعرهم القومية، ويرى الدارسون أن :« الفخر هو التمدح بالخصال، وعدّ القديم ونشر المناقب وذكر الكرام»[3] ويقول ابن رشيق في عمدته :«الافتخار هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه وكل ما يقال فيه ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار » [4] .

([1]) **ابن هانئ الأندلسي :** الديـــوان ، ص 210 .
([2]) **ســـــورة الأعــــــراف :** الآية 148 .
([3]) **د/غازي طليمات عرفان الأشقر :** الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه ، ص 168 .
([4]) **ابن رشيق :** العمدة ، ج2 ، ص 143 .

ويذهب حازم القرطاجني نفس المذهب في تعريفه للفخر في قوله : «فأما الفخر فجار مجرى المديح ولا يكاد يكون بينهما فرق، إلا أن الافتخار مدح يعيده المتكلم على نفسه أو قبيلته، وأن المادح يجوز له أن يصف ممدوحه بالحسن والجمال، ولا يسوغ للمفتخر أن يصف نفسه بذلك» [1] .

وفي العصر الجاهلي يعد موضوع الفخر من أهم الموضوعات التي شغلت الشاعر الجاهلي، فاعتز بذاته وبقبيلته مشيدا بمكرماتها وبطولاتها، فسجل الفخر بذلك تاريخهم ومناقبهم، ويظهر الشاعر في فخره الصفات الكريمة والخلال الحميدة إذا ما تغنى بذاته أو قبيلته، ويبرز الحقد والبطش والانتقام إذا ما أتى على ذكر الخصوم، وفي العصر الإسلامي انقلبت العصبيات القبلية إلى عصبية دينية بفضل قيم الدعوة الإسلامية وأصبح الفخر يعبر عن هذا الانتماء الجديد فكان الفخر بالإسلام أو بالصفات التي لا تتعارض مع الدين، وفي العصر الأموي يرى النقاد أن الفخر الجاهلي قد عاد لعودة العصبية القبلية، وظهور التقسيم على أساس العرق كدعوات الشعوبية، وبروز كذلك العصبية السياسية .

وحول هذا الغرض وفي حدود ما استطعنا جمعه لم نعثر على قصائد فخر إلا أبيات للشاعر ابن أبي الرجال وزير المعز بن باديس الصنهاجي الذي يفتخر فيها بقومه فيقول : (البسيط)

يَا آلَ شِيبَان لاَ غارَتْ نُجومُكُمْ ولا خَبَتْ نَارُكُمْ من بعدِ تَوقِيدِ

أنتُمْ دَعائِم هذا المُلكِ مُذْ ركضَتْ قبلُ الخُيولُ لإبرامٍ وتوكِيدِ

المُنعمُونَ إذَا ما أزمةٌ أُزِّمَتْ والوَاهبُونَ عَتِيقَاتِ المَزَاوِيدِ

سيُوفُكُم أفقدتْ كِسْرى مَرازِبَهُ في يومِ ذِي قَار إذْ جاءُوا لمَوعُودِ [2]

يفخر الشاعر بقومه آل شيبان وبسُؤددهم العلي وبمحاسنهم التي لا حصر لها، وهمتهم العالية ويدعو أن تظل نجومهم نورا في سماء الكون، وأن تظل نيرانهم متقدة لا تنطفئ أبدا، فهم نجوم السماء كلما اختفى نجم ظهر غيره أكثر إنارة، و هم في الحروب أشدّاء لا يقوى عليهم أحد، فاختار الشاعر هذه الكنايات (النجوم و النار)، ليؤكد في قومه منبت الجد والاعتزاز بهذا المجد الموروث والنسب المتفرد إذ هم دعائم الملك العربي منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لإبرام المعاهدات وعقد المواثيق كما جعل من قومه مثالا للكرم ،فهم ينعمون وقت الشدائد، ويهبون العطايا الجزيلة، ورفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذي قار الذي نكلوا فيه بالفرس تنكيلا شديدا، ويعتبر ذلك من مآثرهم العظيمة في الجاهلية التي خلدها التاريخ.

ولقد حافظت هذا الأبيات على نمط القصيدة العربية قديما في موضوع الفخر حيث تدرج هذه الأبيات ضمن الفخر القبلي الذي يعنى فيه الشاعر بالتشكيل البشري وبالقيم الاجتماعية التي تضمن للقبيلة القوة

(1) **د/ عبد العزيز نبوي** : دراسات في الأدب الجاهلي ، ص 135 .

(2) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 150 .

والتفوق والاستمرار [1] وهو فخر أقرب إلى المدح يفتقد إلى الموسيقى العالية المجلجلة في الكلمات، ولا يهدف إلى شحن العزائم ودفع القوم إلى الاستعداد للتصدي والهجوم، وبث الخوف في نفوس الأعداء، وإنما هو إشادة ببعض الصفات الكريمة في القبيلة و تغنّ بما يثبت السيادة والتفوق .

وعثرنا على أبيات أخرى في هذا الغرض لابن هانئ الأندلسي يفتخر بنفسه، ويملي الحِكم، جاء هذا في مقدمة لقصيدة يهجو فيها الوهراني كاتب الأمير جعفر بن علي بن حمدون في المسيلة بالزّاب يقول فيها :

طلبُ المجدِ منْ طَريقِ السُّيــوفِ ... شرفٌ مؤنسٌ لنفسِ الشَّريـفِ (الخفيف)
إنَّ ذُلَّ العَزيزِ أفْضَــــعُ مَرْأَى ... بينَ عَينَيْهِ من لقاءِ الحُتُوفِ
أنَا منْ صَارمٍ وطَـرْفٍ جَـــوادٍ ... لستُ من قبَّةٍ وقَصرٍ مَنِيــفِ
ليسَ للمجدِ من يبيتُ على المَجْـ ... ـدِ بسعيٍ وَانٍ ونَفْسٍ عَـزُوفِ
علَّمتنِي البَيْداءُ كيفَ ركوبُ اللَّيلِ ... واللَّيلُ كيفَ قَطْعُ التُنُــوفِ [2]

يتغنى الشاعر في هذه الأبيات بأخلاقه الرفيعة التي لا يملكها إلا أصحاب الهمم العالية كالمروءة والشجاعة والشرف، وينسب نفسه إلى أهل الحرب والعراك، الذين يدركون المجد من تحت السيوف، وليس من أهل القصور المنيعة المستسلمين للراحة والخمول، كما يثني على بيئة الصحراء التي علمته مكابدة الشدائد والأهوال وهذا الفخر فيه سمات الجاهلي الذي إذا قيل عنه الناس أنه فارس مقدام عدّ هذا شرفا وكرما يفتخر به [3] .

ب - الاعـتـــذار:

الاعتذار هو لون من ألوان المدح «يقصد به طلب الصفح والمغفرة، ولذا ففيه رجاء وأمل وكذلك مديح » [4] فالشاعر في هذا الغرض يعتذر عن إساءة بدرت منه إلى المدوح ويستعطفه، فإذا كان الوزراء والحجّاب وقادة الأقاليم عامة يعتذرون إلى أمرائهم دفاعا عن أنفسهم بسبب جناية أو خطأ سياسي، فإن من الشعراء أيضا من عني بالاعتذار خصوصا أولئك الذين ذهبوا ضحية مؤامرات، مما يضطر الأمراء إلى إبعادهم أو مقاطعتهم اتقاء لأذاهم، فيأخذ هؤلاء الشعراء يرسلون القصائد تلو الأخرى يطلبون فيها الصفح والعفو ويستعملون في ذلك كل ما أوتوا من قدرات فنية لجلب ودّ الأمير ورضاه، وتعود البدايات الأولى لهذا اللون من الشعر إلى العصر الجاهلي .

([1]) **ينظر : أ د /حسنى عبد الجليل يوسف** : الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص 76 .
([2]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 439 .
([3]) **ينظر :د/مختار عطية** : بحوث تطبيقية في الأدب العربي ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، مصر ، ط1، 2002 ، ص 55 .
([4]) **د/ عبد العزيز نبوي** : دراسات في الأدب الجاهلي ، ص 142 .

ومن أشهر شعراء الجاهلية في هذا الباب النابغة الذبياني الذي اعتذر للنعمان بن المنذر، وسبب هذا الاعتذار أن النابغة كان قد مدح الغساسنة متشفعا في بعض قومه الذين وقعوا أسرى في أيديهم، وهو ما أغضب النعمان بن المنذر، فأقبل النابغة ينظم مجموعة من الاعتذارات استرضاء للنعمان [1] .

يقول الدكتور شوقي ضيف متحدثا عن النابغة الذبياني: «تفوق الشاعر النابغة في الاعتذار إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحا في التلطف، محاولا أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه، وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني، والتدقيق فيها مدبجا في ذلك قصائد طوالا تعد أروع ما خلفه العصر الجاهلي لما فيها من صدق اللهجة، وسهولة اللفظ وحسن الديباجة، متخذا إليه ما يستطيع من البراهين ومن سبل الملاينة وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام » [2] وما يفيدنا في هذا البحث هو بيان بعض سمات هذا اللون من الشعر عند شعرائنا .

إلا أننا لم نعثر في حدود جهدنا على قصائد ومقطعات تثري هدا الغرض إلا عند شاعرنا بكر بن حماد الذي اعتذر إلى الأمير أبي حاتم الرستمي قائلا:

ومؤنسَةٍ لِي بالعِراقِ تركتُــــهَا ... وغُصْنُ شَبابِي في الغُصونِ نَضيرُ (الطويل)
فقالتْ كمَا قالَ النَواسيُّ قبْلــهَا ... عزيزٌ علينَا أن نَراكَ تَسِيـــرُ
فقلتُ جَفانِي يُوسفُ بنُ محمَّـدٍ ... فطالَ عليَّ اللَّيلُ وهوَ قَصِــيرُ
أبَا حَاتِمٍ ما كانَ ما كان بُغْضَـــةً ... ولكنْ أتَتْ بعد الأمُورِ أمُـــورُ
فأكْرَهني قومٌ خَشيتُ عقابَــهُم ... فدَارَيْتُهم والدَّائِــــراتُ تَـدُورُ
وأكْرَمُ عفوٍ يُؤْثِرُ النَّاسُ أمــــرَهُ ... إذا ما عَفَا الإنسَانُ و هو قَـديرُ [3]

تبدو في هذه القصيدة الصياغة التقليدية جلية من قراءة البيت الأول التي توحي بشكل ما مطلع قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ وبالإشارة إلى أبي نواس في البيت الثاني يكرس النمط التقليدي في أسلوب الخطاب الذي فيه اعتذار وندم وذلة يتجه من المحكوم إلى الحاكم في نقمة أسف ورجاء أملا في العفو من الأمير أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان حول اتهامه بالمشاركة في الفتنة التي أثارها عمه أبو يعقوب بن أفلح، كما أجاد الشاعر مخاطبة الحس الديني والإنساني في الحاكم سعيا للتأثير على المخاطب، ويظهر في القصيدة شيء من الصنعة كالمطابقة بين طول الليل وقصره في البيت الثالث، وهي مطابقة تصويرية، فقد صور حاله وهو بعيد عن دياره فالليل يطول عليه ويمتد بينما يقصر على غيره من الناس وذلك لما يساوره من أحزان وآلام، ونلاحظ أيضا في البيت الرابع تكرارا في العبارة (ما كان ما كان) وهو تكرار عبارة الغرض منها

---

(1) **ينظر : المرجع نفسه** : ص 143 .
(2) **د/شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، ص 286 .
(3) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 83،84 .

الالتفات إلى المعنى المكرر الذي يفيد نفي الشاعر الشديد لما حدث في الفتنة بالذي لم يكن ناشئا عن بغض تجاه الأمير، ولكن هي مداراة فقط خشية من عقاب القوم، ويبدو أن أبا حاتم يوسف عندما وصلته هذه الأبيات لان قلبُه وعفا عن بكر بن حماد، فأخذ شاعرنا ينظم قصيدة أخرى ضمنها مدحا للأمير وليس ذلك غريبا لأن بعض الباحثين قد استخلصوا من ذلك أن الاعتذار نشأ نشوء من المديح و في ظلاله مع تداخل عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء [1] .

وفي هذه القصيدة أيضا سجل الشاعر فرحته بعودة الأمير إلى منصبه والقضاء على رؤوس الفتنة ودحر معارضيه وفك خيوط المؤامرة التي حيكت ضده، فقال فيها : (الكامل)

ماذا يدبِّرُ رَبُّنا في أمــــرِهِ سُبحانهُ في أرضِهِ و سَمَائِــهِ
ردَّ المُلوكَ إلى مَحَلِّ قَرَارِهِــم مُسْتبشِرِينَ بفَضلِهِ وعَطَائِــهِ
فتبارَكَ اللهُ اللطيفُ بصُنعِــهِ ما أغْفَلَ الثَّقلين عنْ نَعْمَائِــهِ
رفعَ السَّماءَ بلاَ عِمَادٍ بَيِّــنٍ والبَّحرُ أمْسَكهُ على أرْجَــائِهِ
لولاَهُ فاضَ علَى العبادِ بمَوجِهِ وعلىَ الجِبَالِ الرَّاسياتِ بمَائِهِ
أخذَ البلادَ بسَيفِهِ فاسْتسْلَمَتْ وبعَدْلِهِ وبفضْلِهِ و سخَــائِهِ [2]

يحرص الشاعر على نقل القيم والفضائل التي كان يثني بها الأوائل على الممدوح في القصيدة العربية كالشجاعة والقوة والسخاء والعدل، كما نوه الشاعر بانتصار الأمير على أعدائه، وكان ذلك بعون الله الذي منّ عليه بالنصر المؤزّر على خصومه، وأخرج الأمة من الفتنة بسلام جاعلا ذلك كله بقوة الحاكم وما يتصف به من صفات الحكمة والعدل، وهناك شيء يلمس في هذه القصيدة وهو الاقتباس من القرآن الكريم فمثلا في البيت الرابع (رفع السماء بلا عماد) وهو اقتباس من قوله تعالى: ﴿اللهُ الذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾[3] وفي البيت الخامس عند قوله: (وعلى الجبال الراسيات) فهو اقتباس من الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الارْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾[4] كما نلاحظ أن الشاعر قد التزم التصريع في مطلع القصيدة الذي يحقق الرنة الموسيقية المنبهة، فصمت نهاية الشطر الأول يتساوى مع نهاية الشطر الثاني، وكثير ما وجدت قصائد فحول الشعراء تبدأ ببيت مصرع دون شعور أو تكلف .

(1) **ينظر : د/عبد العزيز نبوي** : دراسات في الأدب الجاهلي ، ص 142 .
(2) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 85،86 .
(3) **سورة الرعد** : الآية 2.
(4) **سورة الرعد** : الآية 3.

جـ - الخـمـريات:

يعتبر شرب الخمر جزء من اللهو، وقد كان في العصر الجاهلي من القيم المحمودة التي يتباهى بها أهل ذلك العصر وخاصة أشرافه وأثرياؤه وشعراؤه، ويرى الدكتور حسنى عبد الجليل يوسف موقفين متناقضين لشعراء العصر الجاهلي « فالأول ينظر إلى شرب الخمر بوصفه مفخرة، والآخر ينظر إليه على أنه مفسدة وخروج عن الجادة، ونوع من التحلل » [1] وقد افتخر الشعراء بشربها وتفننوا في وصفها ووصف آنيتها ومن الذين اشتهروا بموضوعها الأعشى الكبير أبو بصير ميمون بن قيس [2] .

وفي العصر الإسلامي ونظرا لدخول قيم جديدة تدعو إلى الطهر والاستقامة، أصبح شرب الخمر من المحرمات ولم يعد لهذا الموضوع ذكر، لكن مع تقدم الزمن وانتشار وسائل التحضر في المجتمع الإسلامي وساد الرخاء المدن الإسلامية كالمدينة ومكة ودمشق مركز الخلافة في العصر الأموي، ومع توفر أسباب اللهو عاد موضوع الخمر إلى الظهور من جديد، وأصبح «بعض الشعراء لا يتحرجون من الخوض فيه، بل أن هناك من بالغ وأسرف القول فيه مثل الأخطل ولعل ذلك يرجع إلى عقيدته النصرانية التي تبيح له ذلك » [3] .

وإذا كان الشعر الخمري هو: «شعر لهو وترف شاع في معظم العصور، وتلمّس النشوات فيه شعراء كثر بلغ به بعضهم حدّ المجون والإباحة، واتخذ بعضهم الآخر إثارة لقريحة أو هربا من واقع»[4] فإن شعراءنا في عمومهم لم ينظموا منه كثيرا وقد يرجع ذلك إلى عوامل منها الوازع الديني المتمكن في النفوس الذي لا يسمح بذلك عند بعض الشعراء، بالإضافة إلى سلطة الفقهاء والقضاة التي كانت قوية الجانب .

وقد يكون ما نظم في هذا الغرض قد ضاع، ولم تحفظه لنا الأيام، والذي بين أيدينا لا يزيد عن مقطّعات أو نُتف شعرية قد تكون جزءا من قصائد، و عند قراءتها يُفهم منها أن الشاعر يقصد بذلك طرح تجربته الشعرية مع الخمرة و وصفها وتلذذه بها، وفي القلة التي نظمها كان مقلدا لسابقيه من الشعراء الذين لم يتركوا له ما يبدعه في هذا الغرض، ومن الشعراء الذين وقفوا عند الخمرة في أكثر من محطة الشاعر ابن رشيق، وهو« الشاعر الجزائري الوحيد الذي نظم في المجون والخمريات، فإنه نحا في هذا الغرض نحو أبي نواس كان يشرب الخمر ويشربها صرفا» [5] .

---

(1) **أد/حسنى عبد الجليل يوسف** : الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، ص 209 .
(2) **ينظر : المرجع نفسه** : ص 211،212 .
(3) **علي عالية** : شعر الفلاسفة في الأندلس ، ص 198.
(4) **جورج غريب** : شعر اللهو والخمر تاريخه وأعلامه الأعشى الأخطل أبو نواس،دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983،ص 8 .
(5) **محمد الطمار** : تاريخ الأدب الجزائري ، ص 127 .

فقال في وصفها : (الطويل)

مُعتَّقةٌ يَعْلُو الحَبَــــــابُ مُتُونَــهَا فتَحْسِبُه فيها نَثيرَ جُمَانِ

رَأَتْ منْ لُجَيْنٍ* راحةً لُمديــــرِهَا فطافتْ لهُ منْ عَسْجَدٍ ببَنَانِ (1)

فخمرة شاعرنا عتيقة طيبة تطفو الفقاقيع على سطحها كأنها اللؤلؤ المنثور، و وظف الشاعر لوصفها وهي تطوف بين ساقيها كلمات مناسبة لها (نثير جمان، لجين، عسجد) مختارا لها هذه التشبيهات تعظيما لشأنها ولجعل وقعها حسنا في نفوس الشاربين، عند تداولها بين الندماء، وقال فيها أيضا :

(السريع)

قلتُ لمنْ ناولــنِي مُـــــــزَّةً ما بي حُبُّ الغِيدِ بلْ حُبُّهاَ

لا تسْقِنِي للرَّاحِ مَمْـزُوجَـــةً واشْرَبْ فمَا يُمْكِنُنِي شُرْبُهَـا

ما رَاحَتِي في الرَّاحِ إنْ غُيِّرَتْ دَعْهَا كَمَا جَاءَ بِهَا رَبُّهَــــا (2)

وهنا ابن رشيق يحبها ويفضلها على الحسان الناعمات فيجعل كل حبه لهذا النوع من الخمرة، ثم تراه يتأفف من شربها ممزوجة مخففة بالماء، بل يريدها كما صنعها صاحبها، ويصفها الشاعر ابن أبي الرجال فيقول :

ألاَ ليتَ أيَّامًا مَضَى لي نَعِيمُـــــــــهَا تُكَرُّ علينَا بالوِصَالِ و تَنْعَمُ (الطويل)

وصفراءُ تحكِي الشَّمسَ من عَهْدِ قيصر يَتُوقُ إليهَا كُلُّ مَنْ يَتكرَّمُ

إذا مُزِجَتْ في الكَأْسِ خِلْتَ لآلِــــــئًا في حَافَــاتِهَـــــا وتَنَظُّــمُ (3)

وللشاعر شوق نحوها وحنين فهي وحدها تذكره بأيام النعيم والابتهاج، والخمرة في نظر ابن أبي الرجال صفراء ذهبية مشرقة، نورها ساطع يخترق الحجب مثلما تخترق السراب، ويؤكد صاحب هذه الأبيات على صفة قدم الخمر، فهي تحاكي الشمس في صفرتها، وفي قدمها ومنذ عهد قيصر يتوق لها كل من أراد أن يتنعم بها ويتلذذ بشربها، كما يجسّم صورتها وهي في الكأس تزخرفها تلك اللآلئ التي هي على حافاتها وكلما كانت الخمرة عتيقة أحدثت في النفس هزا وطربا، ويقول الشاعر ابن هانئ الأندلسي : (الوافر)

وليلٍ بتُّ أُسقَـاهَا سُــــــــلافًا مُعَتَّقَةً كلَـونِ الجُلَّــــــنَارِ *

كأنَّ حَبَــابَهَا خَـــــــرَزَاتُ دُرٍّ عَلتْ ذهبًا بأقْدَاحِ النُّضَـارِ

أقَمْتُ لشُربِهَا عَبَثًا، و عِنـــدِي بَنَاتُ اللَّهْوِ تَعْبثُ بالعُقَارِ *

---

* **لــُجَيْن** : تصغير لــَجين : الفضَّة .

(1) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 154 .

(2) **المصدر نفسه** : ص 42 .

(3) **د/عمر فروخ**:تاريخ الأدب العربي ، تاريخ الأدب العربي،ج4، دار العلم للملايين ، بيروت ،لبنان، ط1 ،1981، ص 463 .

* **الجلّــنار** : زهر الرمان الأحمر .

* **العـُـــقار** : الخمر .

ونَجمُ اللَّيلِ يركضُ في الدَّيَاجِي كأنَّ الصُّبْحَ يَطلبُـهُ بثَـــارِ (4)

يصور لنا الشاعر في هذا النص مشهدا من مجالس اللهو التي عادة ما تعقد ليلا، فشرب الخمرة المعتقة ليلا و شبهها بزهر الرمان الأحمر، كما شبه فقاقيعها التي تعلو سطحها بحباب الدر التي تعلق بأقداح الذهب الخالص، وصفه للخمرة ليس بعيدا من وصف الشاعر ابن رشيق، فكلاهما وصفها بالذهب الخالص، وباللون الأصفر، و كل هذه الصور جاءت تقليدية لم تحد عن أوصاف الشعراء السابقين .

(4) **ابن هانئ الأندلسي :** الديوان ، ص 465،466 .

الفصـــل الثالـث

الدراســـــــةالفنـــــيَّة

أولا – الإحـــالــة .

أ– مفهوم الإحالة .

ب– الإحالة التاريخية .

جـ– الإحالة الدينية .

د – الإحالة الأدبية .

ثانيا – التشكيل الموسيقي .

أ– مفهوم التشكيل الموسيقي .

ب–التشكيل الموسيقي على مستوى الألفاظ المفردة .

جـ– التشكيل الموسيقي على مستوى الألفاظ المركبة .

ثالثا – الصورة الشعرية .

أ–الصورة الحسية .

ب–الصورة البيانية .

أولا : الإحـــــــالة

لقد تنبه النقاد إلى ظاهرة تداخل النصوص في الشعر العربي، وبدراستهم لذلك عثروا على مصطلحات عديدة في النص الشعري نذكر منها : التضمين، التلميح، المعارضات، السرقات الشعرية، الاقتباس، الإشارة الإعارة ...

ويرى ابن رشيق أن السرقات الأدبية لا تكون في المعاني المشتركة وإنما في البديع مدللا ذلك بقوله: «والسرق أيضا إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم » [1].

وأسهب النقاد العرب في تحليل ظاهرة تداخل النصوص، وسال فيها حبر كثير و بصورة واضحة ضمن ما أسموه بالسرقات الأدبية الذي هو «باب متسع جدا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه، وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة وأخرى فاضحة لا تُخفى عن الجاهل » [2] .

ويعرفها محمد بنيس بأنها «تداخل نصوص حاضرة مع نصوص غائبة، أي مجموعة من النصوص المضمرة في النص الحاضر » [3] .

وعموما فإن النقاد العرب قد أدركوا قضية الأخذ والسرقات أو تداخل النصوص منذ القدم، وازداد اهتمامهم بهذا الموضوع في العصر العباسي وربما كان الحرص أكثر في عهد أبي تمام، فاقتفوا آثارها وجعلوا لها حدودا، وقد خاض في هذا المجال نقاد كبار كالآمدي والجرجاني وغيرهم، ثم إن في الشعر العربي القديم نماذج تؤكد هذا الأخذ وتقرّه ، فهذا الشاعر عنترة بن شداد يقول متسائلا :

هَلْ غَادَرَ الشُعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمٍ   أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ [4]

وهو استفهام يتضمن معنى الإنكار، فالشعراء في نظره لم يتركوا شيئا يصاغ فيه شعر إلا وقد صاغوه فيه، ولم يترك الأولون للآخرين شيئا، ونجد الشاعر كعب بن زهير يؤكد فكرة النسج على المنوال السابق مع الاختلاف في الطريقة والأسلوب فيقول :

مَا أَرَانَا نَقُولُ إلاَّ رَجِيعًا   ومُعَادًا مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُورَا [5]

ومن هذا فالنقاد متفقون على ظاهرة تداخل النصوص عند الشعراء مع اختلاف الأحكام حول تلك الظاهرة .

---

(1) **ابن رشيق** : العمدة ، ج1 ، ص 454 .
(2) **المصدر نفسه** : ص 282 .
(3) **محمد بنيس** : ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1979 ، ص 251 .
(4) **الإمام الزوزني** : المعلقات السبع ، المكتبة العصرية ، بيروت ،2007 ، ص 197 .
(5) **كعب بن زهير** : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، 1998 ، ص 26 .

ومن منظور النقد المعاصر، فالنص ليس وحيا أو إلهاما، ولكنه نسيج لغوي مكتنز بشيء من الثقافات ومتشبع بخلفية نصية متعددة، والنص الشعري لا يأتي من فراغ ولا يكتفي بموهبة المبدع، وإنما يخرج إلى الحياة ويولد إبداعا انطلاقا من ثقافته العامة و الخاصة بفن الشعر وفهمه لإبداع سابقيه ومعاصريه وذلك لأن «المبدع لا يتم له النضج الحقيقي إلا باستيعاب الجهد السابق عليه في مجالات الإبداع المختلفة بالإضافة إلى أثر البيئة والعصر، فالنص لا ينفصل عن الواقع الخارجي للذات المبدعة ولا يكتفي بواقعها الداخلي المعزول»[1].

وعملية الإبداع الأدبي تتطلب جهودا وقدرات خاصة تقوم على أساس معرفة النصوص السابقة والمعاصرة وهضمها حتى يتم التمكن منها، و تساعد في إرساء وبناء ذاكرة أو مرجعية ذهنية تكون للمبدع سندا ترشده وتساعده على الإبداع، ومن ذلك جاء ما يسمى عند النقاد ببناء الذاكرة وفيها لخّص ابن خلدون آراء من سبقه من النقاد من أمثال ابن طباطبا والقاضي الجرجاني في شروط ما يتعلق بالعملية الإبداعية، فرأى أن الحفظ من الشعر ضروري حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ثم الإقبال على النظم ... [2] .

ومن هذا التصور يتضح جليّا كيف تتكون المرجعية الثقافية التي اختزنتها الذاكرة إضافة إلى حدوث تفاعل حي مع الموروث دون تقليد .

أما عن مصطلح الإحالة فقد ورد عند حازم القرطاجني في كتابه الشهير منهاج البلغاء وسراج الأدباء الذي يقول فيه: «والطريق الثاني الذي اقتباس المعاني منه بسبب زائد عن الخيال هو ما استند فيه بحث الفكر إلى كلام جرى في نظم أو نثر أو تاريخ أو حديث أو مثل، فيبحث الخاطر فيما يستند إليه من ذلك على الظفر بما يسوغ له مع إيراد ذلك الكلام أو بعضه بنوع من التصرف والتغيير أو التضمين فيحيل على ذلك أو يضمنه أو يدمج الإشارة إليه أو يورد معناه في عبارة أخرى» [3] .

وما يستشف من هذا النص أن الإحالة هي توظيف نص قديم ضمن نص جديد أو بعبارة أدق هي إعادة صياغة نص قديم بشكل جديد، ومفهوم الإحالة يقترب كثيرا من مفهوم التناص في إطار النقد الحديث فمحمد مفتاح يرى أن التناص « هو تعالق نصوص مع نص حديث بكيفيات مختلفة» [4] .

([1]) **علي عالية :** شعر الفلاسفة في الأندلس ، رسالة دكتوراه ، ص 250 .
([2]) **ينظر: عبد الرحمن بن خلدون :** المقدمة ، مج 1 ، دار الكتب اللبناني ، بيروت ، ط3 ، 1967 ، ص 1105 .
([3]) **حازم القرطاجني :** منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، ط2، 1982، ص39.
([4]) **د/محمد مفتاح :** تحليل الخطاب الشعري ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3 ، 1992 ، ص 121 .

فالتناص ينظر إلى أن النص ما هو إلا محصلة تفاعل نصوص سابقة تحاورت وتصارعت وتداخلت بعد أن تمثلها الأديب وتفاعلت في نفسه، وتظهر مهمة الدارس في فك خيوط بنية النص الجديد بمحاولة الرجوع إلى أصولها والوقوف على الطريقة التي تم بها الانصهار والتفاعل ثم عليه بناء النص الجديد .

ويجعل ذلك عملية الإبداع على هذا النحو تمثل العودة إلى النصوص القديمة في مضامينها وصور تراكيبها في شكل خفي حينا وجلي أحيانا أخرى [1] .

وتفرض الإحالة على الدارس معرفة وإطلاعا كبيرين على النصوص القديمة حتى يتسنى له فهم النص الجديد، ومن خلال النماذج الشعرية التي بين أيدينا يمكن تقسيم الإحالة إلى ثلاثة أنواع : التاريخية والدينية والأدبية .

([1]) **ينظر:محمد عزام:** النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات إتحاد كتاب العرب،دمشق،2001،ص40.

الإحالة التاريخية:

انطلاقا من قراءة الشاعر للتاريخ وحوادثه وهضمه لقضاياه تراه يوظف شخصيات تاريخية لها دور بارز في صناعة الأحداث التي كان لها صدى في الماضي، كما يوظف قضايا مشهورة في المسيرة الإنسانية والإحالة إلى كل ذلك هي إعادة ذلك الماضي بصورة جديدة تحلل تلك الأحداث ذات المرجعية التاريخية ثم تصاغ بأسلوب يجعله جزء من بنية النص الجديد يدخل في تركيبه اللغوي والفكري، وبذلك فالإحالة تستفيد من الماضي لتوظيف الحاضر لبناء المستقبل، و تتطلب هذه العملية وعيا بالتاريخ وتمكنا لغويا لنجاح عملية التوظيف، والإحالة التاريخية تشخص التجربة الإنسانية وتنوع الدلالة، ومن ذلك قول بكر بن حماد في مدح الأمير أحمد بن القاسم ابن ادريس :

وَإذَا تَفَاخَرَتِ القَبَائِلُ وانتَـمَتْ فَافْخَر بِفَضْلِ مُحمدٍ وَبِفَاطِــمِ

وَبِجَعفر الطَيّارِ فِي دَرَجِ العـُــلاَ وَعَلِيٍّ العَضْبِ الحُسَامِ الصَّارِمِ [1]

والإحالة التاريخية هنا واضحة في توظيف شخصيات من التاريخ الإسلامي وآل بيت رسول الله ﷺ الذين هم منبع عز و افتخار ومثل في الإيمان و الشجاعة والإقدام، ويجعل الشاعر نسب ممدوحه من هؤلاء المخلدين في التاريخ، كما أن هناك إحالة تاريخية في اسم جعفر الطيار الذي يقترب وصفه هنا بغزوة مؤتة والتي تعتبر أعظم معركة خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ في السنة الثامنة للهجرة بالشام، وفي هذه المعركة الكبيرة أخذ فيها الراية أولا زيد بن حارثة، ولما استشهد أخذها جعفر بن أبي طالب الذي أبلى البلاء الحسن فقاتل حتى قطّعت يمينه، فأخذ الراية بشماله ولم يزل بها حتى قطّعت شماله، فأحتضنها بعضديه إلى أن استشهد، وبهذا العمل أثابه الله بجناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء ولذلك سمي بجعفر الطيار [2] ودلالة هذه الإحالة هي إبراز النسب الطاهر للممدوح حتى يؤكد له الافتخار بذلك، كما يوظف الشاعر إحالة أخرى في قوله :

نَهَارٌ مُشرقٌ وظَلاَمُ لَيــلٍ أَلَحّا بالبَيَاضِ وبالسَّــوَادِ

هُمَا هَدَمَا دَعَائِمَ نُــوحٍ وَلُقمانَ وَشَـــدَّاد وَعَـــادِ [3]

فاستخلاص العبر والعظات على ما يبدو يحتاج إلى دلائل تاريخية، فقدم الشاعر حياة الأذكياء والحكماء في ذلك كله عبرة وعظة للناس، فالنبي نوح عليه السلام عاش زمنا طويلا وهو في صراع مع قومه ومع هذه المدة الطويلة ما آمن به إلا القليل منهم ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [4] .

([1]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 72،73 .

([2]) **ينظر : صفي الرحمن المباركفوري** :الرحيق المختوم ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط1، 2006 ، ص 384 .

([3]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 76 .

([4]) **سورة العنكبوت** : الآية 14 .

والحكيم لقمان الذي عاش حتى أدرك داود عليه السلام، وابن شداد وهما من قوم هود عليه السلام وعاد ابن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، فالشاعر لجأ إلى توظيف هذه الشخصيات البارزة في التاريخ والمعروفة بأنها عمرت في الحياة طويلا لكن الزمان في النهاية الذي كناه بالنهار والليل هدم دعائم كل هذه الأعمار، والإحالة هنا لأخذ الدرس و العبرة من هؤلاء، وليصرف الناس أكبر همهم إلى التزود للآخرة قبل أن يدركهم الأجل، فالزمان يأتي على الأنبياء والعلماء والملوك والأمم .

وقال ابن هانئ في مدح سيده المعز الفاطمي :

لَكَ كُلُّ يَومٍ لَو تَقَـدَّمَ عَصْـــرُهُ لَمْ يَلْهَجِ العَدَويُّ باليرمُـــوكِ
وَقَعَاتُ نَصْرٍ في الأعَادِي حَدَّثتْ عَن يومِ بدرٍ قَبْلَهَا وتبُـــوكِ [1]

والإحالة التاريخية هنا في استعمال الشاعر للغزوات والوقائع الإسلامية، فغزوة بدر الكبرى التي كانت أول لقاء بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصرا حاسما شهد له العرب والعجم وتركت استياءا عميقا في نفوس الأعداء من المشركين واليهود، وغزوة تبوك هي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم التي كانت في السنة التاسعة للهجرة [2] .

وموقعة اليرموك تمت في نهاية عهد أبي بكر الصديق وبداية خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في السنة 15 هـ وهي معركة بين المسلمين بقيادة أبي عبيدة الجراح وبين جيش الروم بقيادة "باهان وسقلان" وكان النصر فيها للمسلمين [3] فهذه المعلومات التاريخية المتمثلة في الغزوات التي غيرت تاريخ الأمة ليست مقصودة في حد ذاتها وإنما قد نقلها الشاعر إلى واقع جديد يتماشى مع انتصارات المعز لدين الله الفاطمي على الروم وعلى أعدائه المتربصين به في المغرب الإسلامي.

ويقول في نص آخر واصفا إحدى المعارك الداخلية التي أخمدها الفاطميون كادت أن تقضي على آمال الدولة الفاطمية وهذه المعارك التي تزعمها أبو زيد مخلد بن كيداد [4] الذي كان يبيح لجيشه نهب البلاد وسبي النساء وقتل الأطفال، وهذه من أعمال الخوارج المتطرفة كالصفرية والأزارقة فيعلي من شأن جيش الفاطميين قائلا:

وعَادَتْ بهم حَربُ الأزارقِ لاحقًا وإنْ لم يكُـنْ فيها المُهَـــلَّبُ والأزْدُ [5]

([1]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 299 .
([2]) **ينظر: صفي الرحمن المباركفوري** : الرحيق المختوم ، ص 424 .
([3]) **ينظر: محمد الخضري بك:** محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، مراجعة د/محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، 2005 ، ص172 .
([4]) **ينظر: الفصل الأول** : ص 33 .
([5]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 245 .

فالتوظيف لحوادث التاريخ يظهر في تطرق الشاعر للفرق التي عادت آل البيت والمتمثلة في فرق الخوارج وخاصة المتطرفة منها وهي فرقة الأزارقة وسميت نسبة إلى أبي راشد نافع بن الأزرق، والإحالة الثانية في هذا النص إلى شخصية المهلب وقبيلة الأزد، فالمهلب ابن أبي صفرة بقي في حرب الأزارقة تسع عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم في أيام الحجاج [1] وأصبح المهلب يضرب به المثل في كبح جماح الخوارج المتطرفة والإحالة إلى ذلك المشابهةُ بين الموقعتين، فالمهلب داحر الأزارقة بالمشرق، والفاطميون أخمدوا ثورة أبي يزيد الخارجي بالمغرب وقضوا عليه نهائيا ، ويقول ابن رشيق وهو يمدح المعز بن باديس وينوه بما بناه في صبرة :

زادتْ بُنَاهُ على الخَوَرْنَقِ بَسْطَةً وحَوَتْ أعزَّ حِمَى من النُّعمانِ

وغَدا ابْنُ ذِي يَزَنٍ بِسُفْلٍ دُونَـه هِمَمًا نَزلْنَ به على غُمْـــدانِ [2]

والإحالة التاريخية هنا تتمثل في الشخصية التاريخية وهي النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، وفي البيت الثاني في قوله " غمدان " ذلك البناء العظيم الذي خلده التاريخ بناحية صنعاء اليمن وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض اليمن، وقصر " غمدان " قصر مكين رائع البناء محكم الأركان جميل المنظر كامل الأوصاف [3] ومع هذا فالفرق كبير بين هذا البناء الشامخ وبين ما بناه المعز بن باديس فهو يعلي من شأن ما أبدعه صاحبه في هذا العمل، فضروري جدا أن نفهم التاريخ لنستعين به للدخول إلى دلالات النص الجديدة، وفي هذه الاستعمالات التاريخية ثراء للأفكار ومعرفة تاريخية اعتمد عليها الشاعر، وللشاعر كذلك إحالة تاريخية يوظفها في تأكيد النسب العريق لمدوحه فيقول :

يا ابْنَ الأعزَّةِ من أكابرِ حِمْـــيرٍ وسُلالةَ الأمـْلاكِ من قَحْـــطانِ

من كلِّ أبْلَجَ آَمرٍ بلســـــــانِهِ يضعُ السُّيوفَ مواضــعَ التِّيجَانِ [4]

والإحالة التاريخية تكمن في ذكر "حمير" و " قحطان" فالشعوب القحطانية مهدها بلاد اليمن، وتشعبت قبائلهم وبطونهم من سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان، فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة و السكاسك، ومنهم بطون كهلان وهمدان وطيء وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وأولاد جفنة ملوك الشام [5] هذه النصوص التي تضمنت إحالات تاريخية هي وثائق تاريخية صادقة، ربما استعان بها المؤرخ اليوم .

([1]) **ينظر : الشهرستاني** : الملل والنحل ، ص 97.
([2]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 156 .
([3]) **ينظر :الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي** : البداية والنهاية ،تحقيق علي شيري، ج2 ،دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان، ط1، 1988، ص222 .
([4]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 156 .
([5]) **ينظر : محمد الخضري بك** : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، ص 15 .

و وظف الشاعر هذه الإحالة ليجعل من الممدوح شخصا أصيل النسب عريق السلالة، و فيها تكثيف دلالي وعمق تاريخي . ويقول الشاعر عبد الله من محمد الجُراوي في وصف ديك :

على رأسِهِ التَّاجُ مُسْتَشْــــرِفًا كتــاجِ ابن هُرمُز في المِهْــــــرَجَانِ [1]

والإحالة التاريخية هنا تتمثل في" ابن هرمز" و " المِهرجان" فابن هرمز يقصد به كسرى بن هرمز بن أنو نشروان بن قباز وهو الذي غلب الروم في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِيٓ أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ [2]وهو ملك من ملوك فارس [3] والمقصود بالمهرجان بكسر الميم ، عيد من أعياد الفرس ومعناه محبة الروح وكان يحتفل به في دولة بني العباس حتى من غير الفرس [4] فالشاعر قد استفاد من الماضي في بلورة الحاضر، فجعل من هذه الموارد التاريخية وسيلة لتوسيع الخيال والتفنن في الوصف وتزيين الأسلوب، ويقول الشاعر الحسن بن أبي الرجال في وصف الخمرة :

وصفراءُ تحكِي الشَّمسَ من عهدِ قيصرٍ يَتُوقُ إليـــــــها كلُّ مَنْ يتكـــرَّمُ [5]

وظّف الشاعر اسم قيصر الذي يطلق على ملك بلاد الروم، والذي يقصده الشاعر قد يكون قيصر بولش بن عايش أول ملوك القياصرة عند الروم [6] ودلالة الإحالة أن هذه الخمرة قديمة جدا لأنها موجودة منذ العهود القديمة للبشرية وصفة القدم في الخمر محببة لأنها تجعلها معتقة .

والشعراء قد أكثروا من الإحالة إلى أسماء الشخصيات التاريخية لتشخيص تجاربهم وإثرائها وللاستفادة من الماضي في فهم الحاضر والنظر للمستقبل، ولعلهم وجدوا في هذه الأعلام و الحوادث التاريخية تجارب مفعمة بالحياة والتنوع، ومصدرا غنيا ينهلون منه ويعيدون صياغته بما يتطلب حاضرهم .

---

(1) **حسن بن رشيق:** أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 216 .
(2) **سورة الروم:** الآية 1،2،3 .
(3) **ينظر: ابن كثير:** البداية والنهاية، ج2 ، ص 226 .
(4) **ينظر: المصدر نفسه** : ج11 ، ص 55 .
(5) **ابن رشيق:** العمدة ، ج2 ، ص 110 .
(6) **ينظر:ابن كثير:** البداية والنهاية ، ج 2 ، 192 .

الإحالة الدينية:

وهي التي تسمى كذلك الصورة النموذجية لما تتضمن من معان سامية ومثل عليا، ويوظف فيها الشاعر آيات القرآن الكريم، وأحاديث نبوية شريفة تدخل في نصوصه الشعرية صياغة فتصبح من نسيج النص الشعري.

والإحالة في مثل هذه النصوص الدينية تثري النص وتضفي عليه هالة قدسية وتكثف دلالته وتجعل السامع متهيئا لتلقيه كما تزيد في النص جمالا وبيانا ومن ذلك قول بكر بن حماد :

صِهرُ النبيِّ ومولاهُ ونَاصــــرُهُ　　　أضْحَتْ مَناقبُهُ نُورًا وبُرهَـــــانَا

وكانَ منهُ على رغْمِ الحَسودِ لهُ　　　مكانَ هَارونَ من مُوسَى بن عِمرَانَا [1]

يجعل الشاعر في البيت الثاني الإمام علي –كرم الله وجهه– من محمد صلى الله عليه وسلم كهارون من موسى عليهما السلام وفي هذا قد أحال إلى الآيات الكريمة: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [2] .

كما أن هناك إشارة إلى الحديث الشريف الذي جاء في سيرة ابن هشام في غزوة تبوك أين خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب على أهله، فتكلم فيه المنافقون وقالوا: «ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه، فحمل علي سلاحه وخرج إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، فقال :كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي» [3] .

وهي إحالة كذلك إلى الحديث الشريف الذي جاء في صحيح الترمذي عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » [4] والشاعر بهذه الإحالات قد كثف الدلالة وزاد المعنى قوة وأكسبه قداسه عندما استند إلى آيات من كتاب الله وأحاديث صحيحة، وقال أيضا :

كعاقرِ النَّاقةِ الأُولَى التِّي جلبتْ　　　على ثمودَ بأرضِ الحِجْرِ خُسْرَانَا [5]

---

(1) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 63 .
(2) **سورة طه** : الآيات 30،31،32،29 .
(3) **أبو الفداء إسماعيل بن كثير**:السيرة النبوية،تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ج 4 ، دار المعرفة ، بيروت ، 1971 ، ص13 .
(4) **ابن العربي المالكي** : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، ج13 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص 165 .
(5) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 65 .

والآية الكريمة التي يحيل إليها قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[1] كما أن هناك إشارة إلى عاقر الناقة (سالف بن قدار) أشقى عادٍ، ويحيلنا نص الشاعر إلى أنه عندما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في غزوة تبوك الحجر عند بيوت ثمود، واستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذبوا وقال: « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »[2] .

وفي هذه الإحالة مفارقة فنية فهو يشبه قاتل _علي كرم الله وجهه_ وقبيلته بعاقر الناقة وثمود بأرض الحجر وعواقب ذلك كان كله خسرانا، وأراد أن يؤكد دناءة العمل الذي قام به ابن ملجم مقرنا ذلك بعقر الناقة الذي ذكر في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقد ورد في سورة هود والشعراء والنمل والقمر والشمس وهذا لخطورة الموقف، والإحالة الدينية في قوله :

وأكرَمُ عفْوٍ يُؤْثِرُ النّاسُ أمْـــرَه   إذا ما عَفَا الإنْسَانُ وهو قَديــــرُ[3]

والإحالة في الشطر الثاني إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[4] كما يحمل هذا البيت إشارة إلى كرم عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخوله مكة، وعفوه عن أهلها وهو قادر عليهم، فقد جاء في فقه السيرة لابن هشام أن النبي صلى الله عليه و سلم قرأ بعض الآيات ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا :خير، أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء »[5] .

وهذه الإحالة أثرى بها الشاعر نصه وعمق حجته ليؤكد لمدوحه اعتذاره هذا، ويبين أن أحسن العفو الذي يلقى صدى في نفوس الناس ويستحسنوه هو ما كان يملك القدرة على الانتقام من الخصم، فكانت الإحالة في محلها و لقت تجاوبا من الأمير الذي عفا عن الشاعر، والإحالة عموما لها جانبان: جانب فني جمالي وجانب يعمق الدلالة .

---

(1) **سورة الأعراف** : الآيتان 77،78 .
(2) **ابن كثير** : السيرة النبوية ، ج4 ، ص19 .
(3) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 84 .
(4) **سورة البقرة** : الآية 237 .
(5) **ابن كثير** : السيرة النبوية ، ج3 ، ص 3 .

قال ابن رشيق :

المَنَايَا حَتْمٌ فطُوبَى لنفـــــسٍ سلَّمتْ بالرِّضَا لحُكمِ القَضَـاءِ [1]

والآية الكريمة التي يحيل إليها قوله تعالى: ﴿الذّين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [2]

وكلمة طوبى من الألفاظ التي تفرّد بها القرآن الكريم، وذكر الرضا بالقضاء يعتبر من لوازم الإيمان ويحيل ذلك إلى حديث جبريل عليه السلام المشهور حين سأل جبريل محمدا عليه الصلاة والسلام فقال في آخره: «وبالقدر خيره وشره» [3]

وهذه الإحالة تشخص حالة الشاعر واقتناعه بحتمية الموت والتسليم بالرضا عند حكم القضاء، كما أثرت المعنى وداخلت بين عدة نصوص مما كثف ذلك الدلالة .

وقال أيضا :

سألتُ الأرضَ لِمَ كَانتْ مُصلّى؟ ولِمَ كانتْ لنَا طُهْرًا وطيـــبَا ؟

وقالتْ غيرَ ناطـــقةٍ لأنّـــي حويتُ لكلِّ إنسانٍ حَبِيـــبَا [4]

وفي البيت الأول إحالة إلى حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «وجُعلت لي الأرضُ طيبة طهورا ومسجدا » [5] ويقول الشاعر في موضع آخر :

خُذِ العَفْوَ وائْبَ الضَّيمَ واجْتَنِبْ الأذَى وأغْضِ تَسُدْ وأرفُقْ تنَلْ واسْخُ تُحْمَدِ [6]

فالشاعر يجمع في هذا البيت الكثير من الفضائل والمكارم التي عززها الإسلام ودعا إليها ويفهم من ذلك إحالته إلى الآية الكريمة: ﴿ خُذِ العَفْوَ وامُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ [7] .

ويقول في قصيدة أخرى :

إذا أتَى اللّهُ يومَ الحَشْرِ في ظُللٍ وجيءَ بالأُممِ المَاضِينَ والرُّسُـــلِ

ولمْ أجدْ في كتابي غيرَ سَيِّـــئةٍ تسوُءُنِي وعَسَى الإسْلامُ يَسْلِمُ لِي

رجوتُ رحمةَ ربِّي وهْيَ واسعَةٌ ورحمةُ اللّهِ أرجَى لي منَ العَمَـلِ [8]

فهذه الأبيات تحيل إلى نصوص كثيرة من القرآن ومن الحديث النبوي الشريف، فالشطر الأول من البيت الأول يحيل إلى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ أَنْ يَأتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأمْرُ وإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ

([1]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 36 .

([2]) **سورة الرعد** : الآية 29 .

([3]) **ابن العربي المالكي** : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، ج10، ص77 ، 78 .

([4]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 39 .

([5]) **صحيح مسلم**:شرح النووي، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة،مج2،دار إحياء التراث العربي،بيروت،لبنان،ط2،1982، ص154.

([6]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 65 .

([7]) **سورة الأعراف** : الآية 199 .

([8]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 128 .

الامُورُ﴾ [1] والبيت الثالث يحيل إلى رحمة الله ومغفرته التي تضمنتها آيات كثيرة في كتاب الله ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيمًا ﴾ [2] وفيها إخبار للآثمين بأن رحمة الله واسعة وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه [3] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [4] أي رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها كقوله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [5] .

ومعاني رحمة الله نجدها في الحديث النبوي الشريف ومنها قوله ﷺ: «لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال :ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة »[6]

وهذه الإحالة أكدت المعاني التي وظفها الشاعر حول معاني رحمة الله وقوّت النص وأضفت عليه لونا من القداسة تداخلت مع نسيج النص .

ويقول ابن هانئ :

ولمْ أجدِ الإنسانَ إلاَّ ابْنَ سعيِـهِ فمن كَانَ أَسْعىَ كَانَ بالَمجْدِ أجْدَرَا

وبالهمَّةِ العَلْيَاءِ يُرْقَى إلى العـُلا فمنْ كان أرْقَى همَّةً كان أظْهَـــرَا [7]

والإحالة الدينية في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ [8]

ويوظف الشاعر هذه الإحالة ليؤكد حقيقة كونية وهي أن الجهد والسعي وحده يكون وراء بلوغ المرامي والأهداف، بالإضافة إلى الهمة والطموح اللذين يساعدان كذلك على تحقيق الهدف المنشود، ويقول في بيت آخر مادحا سيده:

وأشهدُ أنَّ الدِّينَ أنْـتَ مَنَـارُه وعُرْوتُه الوُثقَى التِّي لم تُفَصَّـــم [9]

---

[1] **سورة البقرة** : الآية 210 .
[2] **سورة الفرقان** : الآية 6 .
[3] **ابن كثير** : تفسير القرآن ، تحقيق سامي بن محمد سلامة ، ج6 ، دار طيبة، دمشق ، ط2 ، 1999 ، ص 94 .
[4] **سورة النجم** : الآية 32 .
[5] **سورة الزمر** : الآية 53 .
[6] **صحيح مسلم** : شرح النووي، مج 3 ، ص 159 .
[7] **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 99 .
[8] **سورة النجم** : الآيات 39،40،41 .
[9] **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 190 .

وفي البيت إحالة إلى قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

فالعروة الوثقى في التفسير تعني الإيمان والإسلام، وتعني كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " وتعني القرآن وكل هذه الأقوال صحيحة لا تناقض بينها ولا انفصام لها أي لا انقطاع لها دون دخول الجنة والشاعر قد نقل هذه المعاني السامية من القرآن الكريم، وأنتج نصه الجديد ووظف ما يناسبه تأكيدا لإمامة سيده التي هي من أركان الدين على حسب معتقده، فالإحالة الدينية تضفي دائما على المعاني صدقية، وعلى المباني فنية تزيد في جمال النص .

([1]) **سورة البقرة** : الآية 256 .

الإحالة الأدبية:

وفيها تتداخل النصوص وتلتقي، ويتم بذلك الحوار الطريف بين نص الشاعر ونصوص الشعراء الآخرين في المعاني و الصور والأسلوب، فالشاعر يستوعب تلك النماذج ثم يعيد صياغتها من جديد وفق رؤية ذاتية تتخطى الماضي وتعبر عن واقع جديد له خصائصه ومعطياته، مما يجعل النص الجديد نصوصا تفاعلت وظهرت في ثوب جديد، وقد تتوارد الخواطر لشاعرين أو أكثر .

والإحالة بهذا المفهوم تكثف الدلالة وتثري النص بطاقات فكرية وعاطفية وتعبيرية، وتتجه نحو تطور الشعر من خلال التراكم النصي، ويظهر توظيف الإحالة لدى شعراء المغرب بصورة ملحوظة في نماذجهم الشعرية ومن ذلك قول بكر بن حماد في الرثاء :

وهوَّنَ وجْدِي أنَّني بك لاحقٌ وأنَّ بقائِي في الحَياةِ قَلِيلُ [1]

وكثيرا ما نجد في شعر الخنساء هذه العبارة "هون وجدي" في موضوع الرثاء عندما تقول :

هوَّنَ وجْدِي أنَّ منْ سَـــرَّهُ مَصْرعُهُ لاحقُه لا تُمَـــارِ [2]

ففي هذا الغرض سار الشاعر بكر بن حماد على منوال القدامى وحاول المحافظة على الخصائص الأسلوبية التي صنعها من سبقوه في هذا الفن وخاصة الشاعرة الخنساء، فغير مستبعد أن يكون شاعرنا قد قرأ ديوانها وتعامل مع نصوصه ، ويقول الشاعر بكر بن حماد في رثاء ابنه :

بكيتُ على الأحبَّةِ إذْ تولَّوا ولوْ أنِّي هلَكْتُ بكَوْا علـــيَّا [3]

إن توظيف صورة البكاء وخاصة الفعل (بكى) الذي لمسناه في مراثي الشاعر، وكثيرا ما تكرر هذا الفعل في شعر الخنساء وفي ذلك تقول :

ومالِي لا أبْكِي علَى منْ لوْ أنَّهُ تقدَّمَ يومِي قبْلَهُ لبَكَى لِـــيَا [4]

فيحيلنا إلى قصيدة الخنساء التي قالتها إثر هلاك أخيها وأدخلتها في مأساة دائمة كما دخلها شاعرنا عند فقدان ابنه عبد الرحمن، وكأن الخنساء الشاعرة رمزٌ للبكاء أو للرثاء العربي.

([1]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص 89 .
([2]) **الخنساء** : الديوان ، إعداد محمد عبد الرحيم ، دار الراتب الجامعية ، لبنان ، ط1 ، 2008 ، ص 85 .
([3]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 87 .
([4]) **الخنساء** : الديوان ، ص 139 .

وفي مجال المدح كثيرا ما يستوحي الشاعر بعض المعاني والصور من سابقيه ليوظف تجربته الذاتية فيقول في أحد قصائده :

وقائلةٍ زارَ الُملوكَ فلــــمْ يفـــدْ   فيَا ليتهُ زارَ بنَ سُفيانَ أحمَدَا (1)

فبهذه الصورة يقترب كثيرا من قول الشاعر أبي نواس في مدح الخصيب :

إذا لم تزرْ أرضَ الخصيبِ رِكَابُنَا   فأيّ فَتَّى بعد الخَصيبِ تَزُورُ (2)

فالشاعر بكر أعاد صياغة هذا المعنى وحاول أن يخرجه إخراجا ذاتيا بعيدا عن الصورة الأصلية عند أبي نواس لكن في النهاية المعنى واحد وإن اختلفت الصياغة حول إعلاء شأن الممدوح، وكثيرا ما استلهم الشاعر بكر من زهد أبي العتاهية في عديد من القضايا التي كانت تطغى على تأملاته، فيلهج بها لسانه كذكر الموت والفناء وتذكير الناس بالمصير المحتوم، وتقلب الأحوال ودعوة الخلق إلى خالقهم والتزود للآخرة قبل الرحيل وحديث القبور وأخذ العبرة من الأمم البائدة، وحتمية الموت .

فكثيرا ما نقرأ معاني وصور أبي العتاهية في شعر بكر ومن ذلك قوله :

قفْ بالقُبورِ فَنَادِ الهَامدينَ بهَا   مِنْ أعْظُمٍ بُليَـــــتْ وأجْسَـــادِ

قومٌ تقطَّعتْ الأسْبَابُ بينَهُـــم   مِنَ الوصالِ وصَارُوا تحتَ أطْوادِ (3)

فمناداة الشاعر للقبور صورة مستلهمة لفظا ومعنى من الشاعر أبي العتاهية في قوله :

إيْتِ القُبورَ فنادِهَا أصْواتًا   فإذا أجَبْنَ فسَائِلِ الأمْواتَا (4)

ويقـــــــــول :

ما للمقابرِ لا تُجيـــــبُ   إذا دعَاهُنَّ الكئِيـــــبُ (5)

فتوظيف الإحالة زاد في صورة التأمل لأهل القبور الذين أهلكهم الزمان، كما عزّز فكرة الموت والانتقال إلى الآخرة، وهي أفكار تسيطر على الشعر الزهدي، وبلا شك فيها إقناع تضمنه النص الجديد حول هذه الأفكار التي تقود إلى التأمل الاعتبار، وفي قضية التزود للآخرة والاعتبار يقول الشاعر بكر بن حماد :

نهارٌ مشرقٌ وظلامُ لـــيلٍ   ألحَّا بالبياضِ والسَّـــوادِ

همَا هَدَمَا دَعائِـم نُـــوحٍ   ولقْـــمانَ وشَدَّاد وعَـــادِ

تبيتُ على فراشِك مطمئنًّا   كأنَّك قد أَمِنْتَ من الميعَـادِ (6)

---

(1) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 71 .
(2) **أبو نواس** : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د ط ، 2008 ، ص 204 .
(3) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 80 .
(4) **أبو العتاهية** : الديوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 2004 ، ص 42 .
(5) **المصدر نفسه** : ص 25 .
(6) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 76 .

فنفس الصور تقريبا نجدها عند الشاعر أبي العتاهية الذي يقول :

أينَ القرونُ وأينَ المُبتنُونَ لـــنَا هَذِي المدَائِنُ فيها الماءُ والشَّجرُ
وأين كِسْرى أنُو شروان مالَ بهِ صِرفُ الزَّمانِ وأفْنَى مُلكَه الغِيَرُ [1]

ويقول في قصيدة أخـــــــرى :

المَنَايا تجُوسُ كلَّ البـــلادِ والمَنايــــا تُبيـــدُ كلَّ العِبادِ
لتَنَالنَّ مِنْ قُرونٍ أرَاهــــا مثلَ ما نِلْنَا مِنْ ثمُـــودٍ وعَادِ [2]

ويقـــول فــــي أخـــرى :

وعجبتُ أنَّ المرءَ في غفَلاتِه والحَادثاتُ لهنَّ فيه دَبيــبُ
ولقد عجبتُ لغَفْلَتِي ولغِرَّتي والموتُ يدعُونِي غدًا فأُجيـبُ [3]

فاهتمام الشاعر بكر بأخذ العبرة والعظة من الأمم الغابرة والقرون الخالية، وتذكير المرء بنهايته واستخلاص الدروس من الأنبياء والحكماء (نوح،لقمان،شداد،عاد) كل ذلك يؤكد أن شاعرنا قد استوحى ذلك من أبي العتاهية جاعلا منه مرجعا يقتدي به في كل القضايا التي تناولها إلا أن تجربة الشاعرين مختلفة تماما فأبو العتاهية كان يمثل الزهد الفعلي تحت تأثير العقيدتين المانوية والإسلامية، إضافة إلى ذلك تأثره بثقافات متعددة المصادر ومنها إطلاعه على الآداب الفارسية وعلى تراجم فلاسفة اليونان كل ذلك جعل زهديات أبي العتاهية تمثل أفكارا ومعاني ذات نزعة تأملية وفلسفية [4] .

أما شاعرنا بكر فجاء شعره الزهدي بسيطا في معانيه وأفكاره يعود إلى تجربته الحياتية خاصة عند موت ولده وما ترك له من صدمة شديدة إضافة إلى ذلك ما لاحظه من اختلال وتقلبات لوطنه بسبب كثرة الاضطرابات والحروب وسقوط دولة وقيام أخرى، وفي باب الاعتذار يقول بكر بن حماد :

ومؤنسةٍ لي بالعراقِ تركتُــــها وغُصنُ شبابي في الغُصونِ نضِيرُ
فقالتْ كما قال النواسيُّ قبلَــها عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيـــــرُ [5]

فيوظف الشاعر في الشطر الثاني من البيت الثاني الصياغة نفسها من شعر أبي نواس الذي يقول :

تقولُ التِّي من بيتِها خفَّ مَركبي عزيزٌ علينَا أنْ نراكَ تَسيـــــرُ [6]

([1]) **أبو العتاهية** : الديوان ، ص 91 .
([2]) **المصدر نفسه** : ص 67،68 .
([3]) **المصدر نفسه** : ص 20 .
([4]) **د/شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ، ص 242 ، 244 .
([5]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد ، ص 83 .
([6]) **أبو نواس** : الديوان ، ص 203.

ومن الطبيعي أن نرى الشاعر يستلهم صورا ومعاني من الشعر العباسي بحكم احتكاكه بأعلام الشعر هناك أثناء رحلته إلى المشرق، فتأثره واضح في سائر أغراضه الشعرية، وحاول الاقتباس منهم كلما ادَّعت الضرورة إلى ذلك، ومطلع البيت الأول دليل على ذلك، ومن الإحالة الأدبية ما نجده عند الشاعر ابن هانئ الأندلسي وما يلاحظ من توافق بينه وبين الشاعر المتنبي من حيث الصور والمعاني، ومن ذلك قول ابن هانئ في رثاء ولد لإبراهيم بن جعفر بن علي أمير المحمدية:

وهبَ الدَّهرُ نفيسًا فاسْتَــردْ　　　ربَّمَا جَـادَ لئـيمٌ فحـسدْ [1]

وفيه إحالة إلى قول المتنبي، حول ما تسترده الدنيا مما وهبته للبشر من نفائس، فهي لئيمة سخت مرة ثم حسدت الموهوب ففقد ما ناله منها، ويقول المتنبي :

أبدًا تستردُّ ما تهبُ الدُّنــيَا　　　فيا ليتَ جُودَها كان بُخْـلاَ [2]

فالمعنى واحد في البيتين، وكثيرا ما تتشابه الصور بين الشعراء وتتلاقى المعاني وحتى الأساليب .

وفي صورة أخرى يقول ابن هانئ في مدح سيده :

عكسُوا الزَّمانَ عواثنًا ودواخـنًا　فالصُّبحُ ليلٌ والظَّـلامُ نَهَارُ [3]

والصورة تصف ضراوة المعركة حتى استحال الصبح ليلا مبالغة عن الأخذ بالأعداء أخذا أليما، وكأن الشاعر استوحى هذه الصورة من شعر المتنبي الذي يقول :

ليلُهَا صُبحُهَا من النَّارِ والإصْـ　　　ـباحُ ليلٌ من الدخَّانِ تمـامُ [4]

فالمعنى واحد مع بروز الصورة في الماضي، وقد يكون ذلك بوعي من المبدع أو من غير وعي .

ويقول ابن هانئ :

ألمْ يُبدِ سرَّ الحبِّ أنَّ من الضَّنَى　　　رقيبًا وإنْ لمْ يهتكِ السِتْرَ هَاتِكُ [5]

وفي البيت إحالة إلى قول المتنبي، عندما يوظف الشاعر صورة العيون التي ترقب سر الحب وإن غير المتنبي صياغتها عندما يقول :

وإذا خامرَ الهَوى قلبَ حُـبٍّ　　　فعلـيهِ لكلِّ عينٍ دليـلُ [6]

فمن قول المتنبي نفهم الصورة الأولى، وهي أن كل عين ترقب قلب العاشق إذا خالط الهوى .

---

(1) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 403 .
(2) **المتنبي** : الديوان ، شرح علي العسيلي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، لبنان، ط1، 1997 ، ص320.
(3) **ابن هانئ الأندلسي** : ص 105 .
(4) **المتنبي** : الديوان ، ص 134 .
(5) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 123 .
(6) **المتنبي** : الديوان ، ص 336 .

ويقول ابن هانئ :

وكلُّ أناةٍ في مواطنِ سُؤْدَدٍ ولا كأنَاةٍ من قديرٍ مُحَكَّمِ [1]

وفيه إحالة إلى قول المتنبي في قوله :

كلُّ حِلمٍ أتَى بغيرِ اقْتِدارٍ حجَّةٌ لاجِيءٌ إليهَا اللِّئَامُ [2]

إن الصورة واحدة ويأتي التنوع في إعادة تشكيل الصورة وفق تجربة ذاتية أخرى تساهم في تجسيد المعاني وتبرزها بوضوح وتبعث فيها إيقاعا مطربا، فلا يوجد اختلاف في المعنى الذي يؤكد أن الحلم لا يكون إلا مع الاقتدار ويقول ابن هانئ :

ومَا الجُودُ جُودًا في سِواكَ حَقيقَةً ومَا هُو إلاَّ كَالحَدِيثِ المُرَجَّمِ [3]

وهي إحالة أدبية إلى قول الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ومَا الحَرْبُ إلاَّ مَا عَلِمْتُم وذُقْتُم ومَا هُو عَنْهَا بالحَديثِ المُرَجَّمِ [4]

فاطلاع ابن هانئ على شعر المعلقات وعلى شعر زهير بن أبي سلمى واضح في شطره الثاني أين استعمل تركيب الحديث المرجّم، واستعمله في مدح سيده ليؤكد حقيقة اتصافه بخلق الكرم بعيدا عن كل أحاديث الظنون، وتظهر الإحالة الأدبية أيضا في شعر ابن رشيق ومنه قوله في وصف الشيب :

وإنْ لمْ تُعجبي ببياضِ شَعْرٍ فلا تسْتغرِبي بَلَقَ الغُرَابِ

تعافِينَ المَشِيبَ وليسَ هَذَا ولكنْ هذه شِيَةُ الشَّبَابِ [5]

ومعنى البيتين: أيّ استغراب من الغراب إن لم تعجبي ببياض وسواد شعري، وهذه إنما هي علامة الشباب وإن كان غزا المشيب رأسي وليس ذلك بمستكره، وهذه الصورة إحالة إلى قول الشاعر البحتري :

عيَّرتْنِي بالشَّيبِ وهِيَ بَدَتْهُ في عُذارِي بالصدِّ والاجْتِنَابِ

لا تريْهِ عارًا فمَا هُو بالشَّيبِ ولكنَّه جَلاءُ الشَّبابِ

وبياضُ البَّازي أصدقُ حسْنًا إن تأمَّلتِ من سَواد الغُرابِ [6]

والشاعر إنما قصد هذه الإحالة ليجعل الصورة أكثر وضوحا وثراء وجعل المعاني والأحاسيس مجسدة، فبياض الطائر البازي أصدق حسنا و كما قد يكون في الشيوخ شباب .

([1]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 188 .
([2]) **المتنبي** : الديوان ، ص 133 .
([3]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 189 .
([4]) **الإمام الزوزني** : المعلقات السبع ، ص 116.
([5]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 45،46 .
([6]) **البحتري** : الديوان ، تحقيق حسن كامل الصوفي ، مج1 ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1972 ، ص 84 .

ويوظف الشاعر ابن رشيق الإحالة في حديثه عن اللذات في نص آخر قائلا :

باكرْ إلى اللذَّاتِ واركبْ لــــــهَا   نَجَائِبَ اللَّهوِ ذَواتَ المِـــراحْ

من قبلِ أنْ تَرْشُفَ شَمْسُ الضُّحَى   ريقَ الغَوادِي مِنْ ثُغُورِ الأقَاحْ [1]

فهو يعبر عن تجربته الذاتية وخصوصيته محيلا إلى الشاعر البحتري في قوله :

كأنَّما يضْحَـــــكُ عن لُؤلُــــــؤٍ   منَظَّـــمٍ أو بردٍ أو أقَـــاح [2]

فصورة البيت الثاني عند ابن رشيق واضحة الإحالة إلى الصورة القديمة في الشعر العربـي عنـد تشبيه الأسنان أو الثغر بنبات الأقاح جمع الأقحوان، الذي يعني الزهر الأبيض أو الأصفر، هذا التشبيه الـذي جعـل الثغـر مفعـم بالحسن والجمال، وقال ابن رشيق يرثي القيروان :

وبكلِّ بكـرٍ كالمـَـهَاةِ عزيـــزةٍ   تسْبي العُقُولَ بِطرْفِــــهَا الفتَّـانِ

خودٍ مبتلةِ الوشــــاحِ كأنـــَّها   قمرٌ يلوحُ عن قضِيـــــبِ البَـــانِ [3]

فعندما يشبه ابن رشيق المرأة العذراء القيروانية وهي تهرب من بطش الهلاليين إنما استلهم هذه الصورة مـن قـول الشاعر الأعشى :

مبتلَّةُ الخَلْقِ مثـــلُ المَــــــهَا ةِ لَمْ تَرَ شَمْــــسًا ولا زَمْهَرِيـــــرَا [4]

وكأنه لم يجد ما يصف به تلك الجميلة إلا ما اختزنته ذاكرته فشبهها بالمهاة في جمال عينيهـا، وبـالمرأة المبتلـة أي المنقطعة الخلق عن النساء أو التامة في خلقها وخُلقها، وهي نفس الصورة عند الشاعر الأعشى في وصـف تلـك المرأة، وإن تشابهت الصور فإن ذاكرة المبدع تختزن كثيرا من النصوص القديمـة وعنـد حضـور الإبـداع تمـده بمـا يحتاج إليه الموضوع وما يناسب التوظيف، فيشخص تجربته الشعرية الجديدة .

إن الشعراء أكثروا من الإحالة سواء كانت تاريخية وظفوا شخصيات تاريخية لإثراء نصوصهم بالاستفادة من الماضي لتحقيق الحاضر والنظر إلى المستقبل فكان ذلك ثـراء للمعـاني وتوسـعة للخيـال وتزيينـا للأسلوب، أو كانت إحالة دينية فنهلوا من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ لما فيهما من إعجاز و بلاغة ، فاعتمـدوا صيغهم التعبيرية في نسيج نصوصهم الجديدة، فزادت معانيهم قوة وسطوعا وكثفت من دلالاتهـم وأضـفت عليهـا نوعا من القداسة، لأنهم استندوا إلى نصوص لا يأتيها الباطل من بـين أيـديها ولا مـن خلفهـا، أو كانـت إحالـة أدبية فلامست نصوصا أخرى سابقة وحاورتها وتداخلت في ثناياها واتصلت بها في صـيغها وتراكيبهـا، ووافقـت انسجامها، كل ذلك لتوضيح صورهم الجديدة وإثراء معانيها وتكثيف دلالتها .

([1]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 58 .

([2]) **البحتري** : الديوان ، ص 435 .

([3]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 163،164 .

([4]) **الأعشى** : الديوان، دار بيروت للطباعة ، بيروت ، لبنان ، 1980 ، ص 86 .

وعموما فالشعراء النازحون إلى القيروان وظفوا الإحالة في نصوصهم الشعرية بشكل واضح وذلك لتشخيص الأفكار والأحاسيس وتكثيف الدلالة وتنويع الأسلوب وبهذا أصبحت نصوصهم مكونة من نصوص تداخلت فيما بينها لتشكل نصا جديدا له سيماته الخاصة .

ثانيا :التشكيل الموسيقي

يعتقد كثير من النقاد أن قول الشعر موهبة وطبع ثم تأتي الدربة والصقل، والشعر يختار مقاطعه الصوتية من ميدان فسيح الذي هو اللغة «والشاعر يعمد إلى هذه المقاطع بفطرة وإلهام، فيكوّن منها نظاما متجانسا يمتزج بإحساس الشاعر وعواطفه وأفكاره ليكون شعرا مؤثّرا » [1] وجودة الشعر العربي لا تكتمل إلا بجمال لغته وصورته وموسيقاه ، فالموسيقى مجموعة من الوحدات الزمنية المنتظمة التي يمكن من خلالها تحديد وزن معين تفرضه التجربة الشعرية والحالة النفسية للشاعر، وإذا كانت الموسيقى ترتكز على الحالة النفسية التي تغمر وجدان الشاعر فلا فصل بين الموسيقى والمشاعر فكل منهما من أساسيات التشكيل الشعري والشعوري، وعليه فلا يستقيم البناء الشعري إلا من خلال هذا النسيج الموسيقي الذي تتحول فيه الفكرة إلى لغة شعرية ثم أبيات منتظمة، وأخيرا إلى قصيدة كاملة البنيان، ويمكن تقسيم خصائص التشكيل الموسيقي في قصائد الشعراء المهاجرين إلى القيروان قبل خرابها إلى نمطين من التشكيل :

أولا-**التشكيل الموسيقي على مستوى الألفاظ المفردة :**

ويقصد بالتشكيل الموسيقي على مستوى الألفاظ المفردة كل علاقة صوتية تنشأ بين لفظين مفردين فأكثر داخل السياق الشعري من خلال ترتيب الألفاظ وتجانس الأصوات وترديدها، وتوافق حركاتها وسكناتها لإحداث إيقاعات تطرب لها الآذان والقلوب، ويمثل هذا التشكيل كلا من الجناس والتكرار والتصريع والقافية.

أ-الجناس:

يتحقق الجناس عندما يتشابه اللفظان في حروفهما مع اختلافهما في المعنى [2] وذلك بأن تتحد المفردتان المتجانستان في الحروف أو تتقاربا شرط أن يكون لكل كلمة منهما معنى يختلف عن معنى الكلمة الأخرى، ويعتبر الجناس من الحلى اللفظية والألوان البديعية التي لها تأثير كبير، تجذب السامع، وتحدث في نفسه ميلا إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة، فتجعل العبارة على الأذن سهلة، وتجد القبول من النفس وتقع من القلب أحسن موقع .

---

(1) **د/ عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق** : مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، دار الفكر للطباعة ، عمان ، الأردن ، ط3 ، 2000 ، ص 76 .

(2) **ينظر:د/عائشة حسن فريد**:وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية،دار قباء، القاهرة ،2000،ص 161 .

وفي قصائد شعرائنا ضروب كثيرة من الجناس يدل على اعتنائهم بالزخارف اللفظية لما لها من دور في العملية الإبلاغية، ولما تحتويه من تأثير ينطلق من ذلك التناغم والانسجام بين الأصوات، وهذا الجناس الذي نذك منه نماذج تكون فيه الكلمتان اسما وفعلا، ويسمى عند النقاد بالجناس المتغاير (1) وقد نال هذا النوع اهتمام شعرائنا كمثل قول ابن هانئ في مدح سيده المعز :

أم فيكَ تختلجُ الخلائقُ مريَـــةً كلاَّ وقدْ وضَحَ الصَّباحُ وُضوحَـــا

أوتيتَ فَضْلَ خِلافَةٍ كنُبُـــــوَّة ونَجيَّ إلهامٍ كوحْـــيٍ يُوحَـــى (2)

فالكلمتان (وضح ، وضوحا) و(وحي، يوحى) تمثلان الجناس المتغاير في هذين البيتين، كما يظهر ذلك أيضا عند الشاعر ابن أبي الرجال عندما يفتخر بقومه :

المْنعمُونَ إذا ما أزمةٌ أزِّمــــتْ والواهبُونَ عَتيــــقَاتِ المَزاويـــدِ (3)

فقد جانس بين (أزمة ،أزّمت) وأزمت فعل يرجع مصدره إلى الاسم أزمة، وفي نفس هذا النوع يقول ابن رشيق في وصف طول ليلة :

ما أحسنتْ جُمْلاً ولا أجْمَلَـتْ هذا وليسَ الحُسْـــنُ إلاَّ بِـــهَا (4)

فجانس الشاعر بين (جملا وأجملت) و (الحسن، أحسنت)، فوظف هذا التحسين اللفظي بنبرة حزينة مخاطبا الليلة التي هجره فيها المحبوب ، فلا هي أحسنت في جمع الشمل ولا فرقت، والحسن لها وحدها

ويوظف شعراؤنا ضرب آخر من الجناس يطلق عليه اسم جناس التصريف، وفيه تتفرد كل كلمة بين الكلمتين على الأحرف بحرف (5) ويظهر ذلك عند ابن هانئ عندما يقول مادحا :

فمدحُكَ مفروضٌ وحكمُك مُرتضى وهَديُك مَرغُوبٌ وسُخْطُك مَرهُوبُ (6)

---

(1) **ينظر: أسامة بن منقذ** : البديع في نقد الشعر، تحقيق احمد بدوي و حامد عبد المجيد ، الإدارة العامة للثقافة ،القاهرة،مصر، دط ، 1900، ص12.

(2) **ابن هانئ الاندلسي** : الديوان ، ص56.

(3) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الادب العربي ، ص150.

(4) **ابن رشيق** : الديوان ، ص122.

(5) **ينظر** : **أسامة بن منقذ** : البديع في نقد الشعر ، ص20.

(6) **ابن هانئ الاندلسي** : الديوان ، ص49.

ويقول في مناسبة أخرى :

أنتَ الذِّي كانتْ تبشِّرُنَا بـه   في كُتُبِها الأحْـبَارُ والأخْـبَارُ [1]

ففي البيت الأول يجانس بين (مرغوب، مرهوب)،فأبدل الغين بالهاء، وفي البيت الثاني جانس بين (الأحبار، الأخبار) وأبدل حرف الحاء بحرف الخاء، وعملية التبديل هذه غيرت المعنى فتغير معه الإيقاع الموسيقي وعلى هذا المنوال من الجناس يقول ابن رشيق متغزلا :

يجلُو نباتَ أقاحٍ من بناتِ فمٍ يُسقَى بمثلِ بُنيَّاتِ الزَّراجِـين [2]

فالجناس واضح بين الكلمتين (نبات، بنات) واستبدل حرف الباء بالنون .

وقال في موضع آخر :

مَا راحَتِي في الرَّاحِ إنْ غُيِّـرَتْ دعْـهَا كمَا جَاءَ بـهَا ربُّـهَا [3]

والكلمتان (الراحة، الراح) متجانستان لفظا ومختلفتان معنى فالراحة تعني الهدوء والاستقرار والرّاح تعني الخمرة .

وقال أيضا في وصف وادي المحمدية :

تحْكِي غَوارِبُـهُ غَـوارِبَ بُزَّلٍ   جاءتْ بغيـرِ قوادمٍ وهَـوادِي [4]

هناك جناس بين اللفظين (غواربه، غوارب)، فأراد بالأولى أمواج الوادي العالية، وبالثانية كواهل الإبل المسنة

ب-التكرار:

ويأتي التكرار على أساس أن يستعمل الشاعر اللفظة في البيت بمعنى من المعاني ثم يردها بعينها ويستعملها بمعنى آخر ليفجر طاقته المعنوية في سياقه الشعري، ويولّد التكرار إيقاعا موسيقيا من خلال ترديد أصوات الكلمات أو الحروف المكررة يواكب المعنى ويتجاوب معه [5] ويرى ابن رشيق في العمدة أن للتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني [6] .

وقد يكون التكرار تكرارا للحروف أو تكرارا للألفاظ والصيغ، واعتمد الشعراء الذين تناولهم البحث على التكرار الذي تنوعت مواقعه داخل الأبيات الشعرية .

([1]) **ابن هانئ الأندلسي** : ص 101 .

([2]) **إبراهيم مراد**:مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ط1،1986،ص190.

([3]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 42 .

([4]) **المصدر نفسه** : ص 67 .

([5]) **ينظر:د/أشرف محمود نجا**:قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف، دار الوفاء، ط1 ،2003، ص258.

([6]) **ابن رشيق** : العمدة ، ص 92 .

تكرار الحروف:

تتكرر الحروف كثيرا في القصيدة الواحدة، فيكون لهـذا التكـرار قيمـة نغمية داخـل البيـت الشـعري ويتكرر حرف الروي ويسيطر على البيت ويؤثر فيه بطابعه سـواء كـان مجهـورا أو مهموسـا، كمـا قـد تكـون السيطرة أيضا لحرف من وسط البيت غير حرف الروي المعتمد، وكل ذلك يحدث نغمـا موسـيقيا يعـم البيـت فالأصوات المجهورة عند حركتها تقـرع الأذن عنـد تكرارهـا وتـوقظ الأعصـاب بصـخبها، ومـن أمثلـة تكـرار الحروف ما نجده عند الشاعر بكر بن حماد في قصيدته التي يرثي فيها بلده والتي مطلعها :

زُرنَا منَازِلَ قَومٍ لم يَزُورُونَـــا إنَّا لفِي غَفْلَةٍ عمَّا يُقَاسُـــــونَا [1]

فيظهر الشاعر تكرار حرف النون في ستة عشر موضعا في الأبيات الخمس، وهذا الصوت بتكراره يكشـف عـن معاني الأسى والحزن التي ألمت بنفسيته وهو يرى انقلاب الأحوال بأم عينيه، ونلتقي مع تكرار حـرف الـراء في قصيدة لابن الربيب التي يقول فيها :

أَبَوْا أن يفرُّوا والقَنَا في نُحورهم وأنْ يرتقُوا منْ خَشْيَة الموْتِ سُلَّمَـا
ولو أنَّهُم فَرُّوا لفَرُّوا أعـــــزَّةً ولكنَّهُم رَأوْا صَبْرا على الموْتِ أسْلَمَا [2]

فحرف الراء المجهور طغى على كلمات البيتين وتوسطهما (يفروا، نحورهم، يرتقـوا، رأوا، صـبرا) وبذلك يكون حرف الراء قد تكرر كثيرا وهو صوت عال، فالشاعر لا يستطيع أن يكتم صوته فعبر عن اعتـزازه وافتخاره بهؤلاء الأبطال بصـوت جهـوري عـال مادحـا صـبرهم في المعركـة وشـجاعتهم في مواجهـة المـوت .

وعند الشاعر ابن هانئ نرصد تكرار حرف اللام في إحدى قصائده في قوله :

وما زِلْتُ تَرمينِي اللَّيَالِي بنَبْلِـــهَا وأرْمِـــي اللَّيالِي بالتَّجَلُّدِ والصَّـــبْرِ
فلا تسْألانِي عنْ زمَانِي الذي خَلاَ فَوَ العَصْرِ إنِّي قَبْلَ يَحْـي لَفِي خُـــسْرِ [3]

والملفت للانتباه أن حرف اللام قد كثر انتشاره في هذا النص، حيث جعل منه الشاعر بنيـة صـوتية مهمـة في هذين البيتين، وحقق به نوعا من الموسيقى وذلك بترديد الحرف في مواضع كثيرة داخـل البيـتين الشـعريين، ونجد ترديد حرف الميم في بيت آخر للشاعر ابن الربيب الذي يقول فيه :

ولَمَّا الْتَقَى الجَمْعَانِ واسْتَمْطَرَ الأَسَـى مَدامِـــعٌ مِنَّا تُمطِـــرُ المَوتَ والدَمَـــا [4]

---

(1) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 90 .
(2) **ابن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 114 .
(3) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 249 ، 250 .
(4) **ابن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 112 .

تردد حرف الميم في البيت الشعري متحركا وساكنا مما أضفى نوعا من الفخامة عندما وجد في القافية، وهذا الحرف الذي مخرجه من الشفتين ورجوعه من الخياشيم يعتبر من حروف الغنة التي تساهم في زيادة الرنة الموسيقية في آذان المتلقين .

تكرار الألفاظ:

وقد يأتي التكرار بإعادة الكلمة أو العبارة بغرض تنبيه القارئ للالتفات إلى المعنى المكرر، وكثيرا ما يوحي التكرار إلى سيطرة شعور توحي به العبارة أو اللفظة المكررة [1] واعتمد الشعراء التكرار وتنوعت مواضعه داخل البيت الشعري على مثل ما يوجد في رثاء بكر بن حماد الذي يقول :

وهوَّنَ وجْدِي أنَّني بكَ لاحــقٌ وأنَّ بقائِي في الحياة قليـــلُ

وأنْ ليسَ يبقَى للحبيبِ حبيبٌ وليسَ بباقٍ للخليلِ خليـــلُ [2]

فعاش بكر بن حماد الألم والمعاناة نتيجة لما كابده بعد موت ابنه عبد الرحمن، فالبيتان يعبران عن مساحة أسى تنبئ عن تفجع حقيقي مصدره فقدان وحيده، و فيه حسرة وعذاب فراق، حتى أنه أجزم وأبعد أي بقاء لحبيب أو خليل، ويأتي التكرار لكلمة البقاء الذي لن ينعم به أي كائن .

ونجد ظاهرة التكرار كذلك عند الشاعر النهشلي في قوله :

وبُلْقٌ تقاسمْنَ الدُجُنَّةَ والضُّحى فمِنْ هذه شَطرٌ ومن هذه شطـــرُ [3]

جاء التكرار في الشطر الثاني استرسالا وتفسيرا لما قد عرضه للوصف في الشطر الأول، كما حمل الشطر الثاني صنعة بديعية في الصيغتين المكررتين أظهرت توافقا في الألفاظ والأصوات مما نمت الجرس الموسيقى للبيت ومن التكرار أيضا ما سيق أحد طرفيه في الشطر الأول والطرف الثاني في الشطر الثاني نحو قول الشاعر ابن هانئ الأندلسي :

البيتُ بيتُ اللهِ وهـــو مُعظَّـــمٌ والنُّور نُورُ الله وهـــو مُبـــينُ

والسِّتْرُ سترُ الغيبِ وهو محجَّبٌ والسِرُّ سِرُّ الوحيِ وهو مَصُـــونُ [4]

فجاءت في البيتين كلمات كثيرة مكررة (البيت، النور، الستر، السر) إضافة إلى الضمير الغائب هو، هذه التكرارات فرضت هالة من الخشوع والإجلال وصنعت حولها موسيقى رسمت جوا مهيبا من خلال اختيار الألفاظ التي شكلت إضافات لقدسية الخالق .

---

(1) **ينظر :د/ عبد القادر أبو شريفة حسين ولافي قزق :** مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، ص 50 .
(2) **محمد بن رمضان شاوش :** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 89 .
(3) **ابن رشيق :** أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 173 .
(4) **ابن هانئ الأندلسي :** الديوان ، ص 211 .

ونحس في رثائية ابن رشيق لقاضي المحمدية بشاعرية مرهفة سيطرت على مختلف الحواس التي مُلئت نعيا في قوله :

فقدْ نَعَى مِلءَ أفواهٍ وأفئــــدةٍ وقدْ نَعَى مِلءَ أبْصارٍ وأسْمَــــاعِ [1]

فالتكرار المقصود لعبارة (قد نعى ملء) قد كسا البيت ثوبا قاتما هو في حاجة إليه لأنه في صميم الموضوع الذي يبعث على الحزن والاغتمام نتيجة لما سمعه الشاعر من أخبار مؤسفة، فقد وجد في ذلك عزاء لنفسه، إضافة إلى ما استحدثه التكرار من نغمة حزينة توافق السياق وتناسب ألم الإحساس بقيمة الإمام الفقيد، ويقول الشاعر نفسه في موضع آخر متغزلا بفتاة من مدينة صبرة :

يَا أهْلَ صَبْرة والأحْبَابُ عندَكُمْ إنْ كانَ عندكُم صَبْــرٌ فواسُونِي [2]

إن تكرار اللفظ الدال على ظرف المكان (عندكم) يسيطر على شعور جامح يتمثل في شدة وجده وتعلقه بأهل صبرة حيث دارُ الحبيب عندهم، و الشاعر كله أمل بأن تكون المواساة من عندهم لعلاج جراحه التي تنزف هياما وشوقا .

ويمكن أن نلاحظ مما سبق من الأمثلة أن تكرار الألفاظ أو الحروف قد أكسب النصوص إيقاعا متجاوبا مع المعاني التي طرقها الشاعر، والأمثلة كثيرة في قصائدهم، وفي مختلف الموضوعات، فقد ضمنوها فوائد دلالية وقيما صوتية أثْرت النغم الموسيقي وأنِست لها آذان السامعين .

جـ–التصريع:

يأتي التصريع في البيت الشعري على أساس استواء آخر جزء من الصدر، وآخر جزء مني العجز في الوزن والإعراب والتقفية [3] ينظر إليه ابن رشيق بأنه «ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه وتزيد بزيادته » [4]ويحقق التصريع رنة موسيقية منبّهة وذلك بتساوي نهاية الشطر الأول مع نهاية الشطر الثاني وكثيرا ما بدأ فحول الشعراء قصائدهم ببيت مصرع دون شعور أو تكلف [5]وشعراؤنا كذلك اهتموا بهذا الشكل التقليدي في مطالع قصائدهم لإثراء إيقاعها بالتجانس الصوتي الذي ينشأ بين المقاطع في نهاية كل شطر من البيت، ومن هذا النمط الإيقاعي نلتقي مع قول بكر بن حماد :

زُرْنَا مَنازلَ قَومٍ لمْ يَزُورونَــا إنَّا لفِي غَفْلَةٍ عمَّا يُقاسُــونَا [6]

([1]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 98 .
([2]) **إبراهيم بن مراد** : مختارات من الشعر المغربي والأندلسي ، ص 191 .
([3]) **ينظر : د/أشرف محمود نجا** :قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية ، ص 262 .
([4]) **ابن رشيق** : العمدة ، ج1 ، ص 156 .
([5]) **ينظر :د/عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق** : مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، ص 79 .
([6]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 90 .

فيشترك العروض والضرب في تفعيلة واحدة في مطلع هذه القصيدة، كما يشتركان في حرف روي واحد وهو حرف النون، والشاعر وفي حدود اطلاعنا لم يلتـزم التصـريع في مطلـع قصـائده أو في داخلـها إلا في هـذه القصيدة التي يرثي فيها مدينة تيهرت عند خرابها .

وندرة التصريع في شعره ترجع ربما إلى أن بعض شعره قد ضاع، وخاصـة الأجـزاء الأولى مـن قصـائده والأمر الذي تشير إليه بعض مقطعاته من مثل القصيدة التي يرثي فيها ابنه والتي أولها :

وهوَّنَ وجْدِي أنَّني بكَ لاحقٌ   وأنَّ بقائِي في الحَـــــيَاةِ قَلِيلُ [1]

فيبدو أن هذا البيـت معطـوف علـى بيـت سـابق [2] وهنـاك أمثلـة كـثيرة لـدى الشـعراء علـى هـذا الـنمط الإيقاعي، فمثلا عندما نتصفح ديوان ابن هانئ الأندلسي نجد كل قصائده الطويلة التي أغلبهـا جـاء في مـدح المعز لدين الله الفاطمي والتي سُميت بالمعزّيات تبدأ ببيت مصرّع ومنها على سبيل المثال قوله :

ألاَ طَرَقَتْنَا والنُّجــومُ رُكُـــودُ   وفي الحيِّ أيْقَاظٌ ونَحنُ هُجُـــودُ [3]

وقـــــال :

ألؤْلؤٌ دَمْعُ هذا الغيثِ أمْ نُقَطٌ؟   ما كان أحْسَنَهُ لو كان يُلتَـــقَطُ [4]

وقـــــال :

أريَّاكِ أمْ رَدْعٌ من المِسْكِ صَائِكُ   ولحْظُكِ أمْ حدٌّ من السَّيفِ بَاتِكُ [5]

وفي قـــوله :

يومٌ عريضٌ في الفَخَارِ طَوِيـــلُ   ما تنْقَضِــي غُرَرٌ له وحُجُـــولُ [6]

ومن قــوله :

طلبُ المَجْدِ من طَرِيقِ السُّيوفِ   شرفٌ مؤنـسٌ لنفسِ الشَّـــريفِ [7]

---

(1) **المصدر السابق** : ص 89 .
(2) **ينظر : د/عبد العزيز نبوي** : محاضرات في الشعر المغربي القديم ، ص 141 .
(3) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 74 .
(4) **المصدر نفسه** : ص 108 .
(5) **المصدر نفسه** : ص 122 .
(6) **المصدر نفسه** : ص 131 .
(7) **المصدر نفسه** : ص 439 .

وفي كل هذه الأمثلة المصرَّعة حملت الأبيات تجانسا بين مصراعي البيت الشعري زاد في تكثيف النغم ونوع من مصادر الإيقاع، ونفس الشيء نجده مع الشاعر ابن رشيق عندما يقول :

عنْ مثلِ فضْلكَ تنطِقُ الشُّـــعرَاءُ وبمثلِ فَخْرِكَ تَفْخَــــرُ الأمَرَاءُ [1]

وقــــــوله :

لكلِّ حيٍّ وإنْ طالَ المَدَى هُـلُكُ لاَ عِزُّ مَمْلكةٍ يبقَــــى ولا مَـلِكُ [2]

ويقــــــول الشاعر ابن أبي الرجال :

باكِرِ الرَّاحَ ودعْ عنكَ العَـــــذَل واسْعَ في الصِّحَةِ من قبلِ العَلَلْ [3]

ومن خلال هذه النماذج المعروضة، فالتصريع لما له من قيمة موسيقية مستحسنة في الشعر العربي منذ القديم حتى أن أكثرهم قد صرعوا البيت الأول من قصائدهم، وأغلب الظن أن الشعراء الذين تناولهم البحث مالوا إلى تصريع مطالع قصائدهم اقتداء بالشعر القديم أو ميلا إلى التأثير الموسيقي الذي يطرب المتلقي باعتبار التصريع وسيلة صوتية فعالة تثير التعبير بنغمات مؤثِّرة تشد السامع وتهز وجدانه وتبعثه على المشاركة، كما تدل هذه النماذج على اهتمام الشعراء بمطالع قصائدهم تحقيقا للمطالب الجمالية والمعنوية التي سبقهم بها القدماء .

د-القافـــــــية:

إن مصطلح القافية مصطلح قديم يرتبط بالشعر، واختلف القدماء في تحديد مفهومه، وأجمع النقاد على أن القافية هي تلك الأصوات التي تتكرر في نهاية أبيات القصيدة، وسميت القافية لكونها تأتي في آخر البيت فالقافية ليست إذن إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يشكل جزءا هاما من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع ترددها ويستمتع بهذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة وفق نظام خاص الذي هو الوزن [4] .

ومن التعاريف التي هي قريبة من مفهوم القافية ما أورده صاحب العمدة على لسان الخليل الذي يرى أن القافية هي «آخر حرف من البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن » [5].

(1) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 27 .
(2) **المصدر نفسه** : ص 116 .
(3) **ابن رشيق** : العمدة ، ج2 ، ص 110 .
(4) **ينظر:د/حسنى عبد الجليل يوسف**:موسيقى الشعر العربي،ج1،مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،1989،ص139 .
(5) **ابن رشيق** : العمدة ، ج1 ، ص 151 .

وتعد القافية من دعائم الإيقاع الشعري، فلا يتم التشكيل الإيقاعي للشعر إلا بالوقوف عندها بحروفها «فالقافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية »[1] ومع هذا فإن القافية جزء من الوزن الشعري للبيت، وهي تحدد نهاية البيت إيقاعا، كما تعتبر عاملا أساسيا في تقسيم القصيدة إلى أبيات .

ولا تزال القافية عند المحدثين تعد من الأركان الأساسية في بنية الشعر، ولم يهملوها وهي عندهم عبارة عن عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأسطر من القصيدة[2] ويرى محمد غنيمي هلال أن للقافية «قيمة موسيقية في مقطع البيت وتكرارها يزيد في وحدة النغم »[3]وما يستشف من هذا التقديم أن القافية في القديم و الحديث إنما يقصد بها ذلك المقطع الصوتي المتحد الذي يتكرر في أواخر الأبيات معطيا نغمة موسيقية تطرب السماع في فترات منتظمة .

حروف الروي:

قبل التطرق إلى أنواع القافية لابد أن ننظر إلى حروف الروي التي تناولها الشعراء في المدونة، باعتبار أن حرف الروي هو أحد حروف القافية وأهمها من حيث الجرس الموسيقي، وهذه الدراسة تشمل على كل ما تم جمعه واختياره من النماذج التي تعنى بالموضوعات الشعرية التي سبق أن تناولها البحث في الفصل السابق، وقد جمعنا حروف الروي في هذا الجدول كالآتي :

الحرف	الميم	الراء	اللام	الدال	النون	الهاء	الباء	الكاف	القاف	الهمزة
عدد الاستعمال	14	11	10	09	07	05	04	03	03	03
الحرف	السين	الجيم	الحاء	الفاء	العين	الطاء	التاء	الثاء	الياء	
عدد الاستعمال	02	02	02	02	02	01	01	01	01	

ومن خلال القراءة الأولية لهذا الجدول المستخلص من عينة لقصائد الشعراء يظهر أن بعض الحروف جاءت في قوافيهم أكثر من غيرها، وهي حروف (الميم،الراء،اللام،الدال،النون)، وأن حروفا قد توسّط استعمالها مثل (الهاء،الباء،الكاف)، وبعض الحروف كان استعمالها قليلا مثل (التاء،الثاء،الياء) .

(1) **المصدر السابق :** ص 135 .
(2) **ينظر : د/ إبراهيم أنيس :** موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، ط 6 ، 1988 ، ص 89 .
(3) **د/ محمد غنيمي هلال :** النقد الأدبي الحديث ، ص 469 .

وبمقارنة نسب هذه الحروف في المدونة مع نسب الحروف الشائعة في الشعر العربي كما قسمها الدكتور إبراهيم أنيس الذي يرى أن الحروف الشائعة هي: (الراء، اللام، الميم، النون، الباء، الدال، السين، العين) و الحروف المتوسطة الشيوع هي (القاف، الكاف، الهمزة، الحاء، الفاء، الياء، الجيم)، و الحروف القليلة الشيوع هي (الضاد، الطاء، الهاء التاء، الصاد، الثاء)، والنادرة الشيوع هي: (الذال، الغين، الخاء، الشين الزاي، الظاد، الواو) [1] .

نلاحظ توافقا نسبيا من حيث الاستعمال، فقد استعمل شعراؤنا من الحروف الشائعة (الراء، اللام، الميم النون، الباء، الدال)، واستعملوا بشكل متوسط الحروف: (القاف، الكاف، الهمزة، الفاء)، وقلّت قافيتهم من الحروف: (الطاء، التاء، الثاء) وكانت قافيتهم نادرة الاستعمال من الحروف (الذال، الغين، الخاء، الشين الزاي ، الضاد) .

وعلى العموم فالشعراء لم يخرجوا عند اختيارهم لحروف القافية التي تصلح رويا عن منهج القدامى في تفضيلهم لبعض الحروف لما تتّسم به من خصائص صوتية معينة تحقق مطالب فنية، ويدل ذلك على أن شعراء المغرب الأوسط المهاجرين قد وافقوا من سبقهم في استخدامهم للقوافي .

القوافي المطلقة والمقيدة:

يرى النقاد أن القوافي من حيث الإطلاق والتقييد قسمان :

قوافي مطلقة :وهي ما كان رويها متحركا، و الوصل لازم لها مدا أو هاء .

قوافي مقيدة :وهي ما كان رويها ساكنا، وتكون خالية من الوصل .

ومن خلال ملاحظة قوافي القصائد التي تم جمعها يظهر جليا حضور القافية المطلقة بشكل كثيف حيث طغى على معظم النصوص الشعرية ما عدا القليل الذي اختار القافية المقيدة، كما يظهر اتفاق الشعراء في الغالب على الإكثار من القوافي المطلقة المردوفة وخصوصا التي جاء منها بألف المد، والتي تحقق جمالية الانسجام والتأثير الموسيقي كما اعتمدوا كذلك القوافي المجردة التي تقع في المراتب الدنيا من حيث التأثير الموسيقي .

فمن حيث أنواع القافية لم يخرج الشعراء عن النمط القديم عندما أكثروا من القوافي المطلقة، وكانت نسبة تواتر قوافيهم المقيدة قليلة، كما أنهم التزموا وحدة القافية عملا بالرأي الذي لا يرى الجمال والكمال الموسيقي إلا في وحدة القافية .

---

(1) **ينظر : د/ إبراهيم أنيس** : موسيقى الشعر ، ص 248 .

ثانيا- التشكيل الموسيقي على مستوى الألفاظ المركبة

أ-الوزن:

يقصد به مجموعة التفعيلات التي يتألف منها البيت الشعري وهي مختلفة في الشعر كما وكيفا، ومن اختلاف هذه التفعيلات وعددها تتشكل البحور التي تشكل الوزن العام، فالبحر الطويل يختلف عن الرمل في عدد التفعيلات ونسجها، كما أن البحر البسيط يختلف عن الكامل، وقد استطاع الخليل بن أحمد الفراهيدي مبتكر هذا العلم أن يميز بين خمسة عشر بحرا، وتدارك تلميذه الأخفش البحر السادس عشر الذي هو الخبل ويسمى " المتدارك " .

ويمكن اعتبار الوزن هو الموسيقى المتكررة على مدى القصيدة، والإيقاع هو الذي يصنع إضافات موسيقية جديدة على نسق موسيقى الوزن لتخرج السامع من رتابة موسيقى الوزن، ويقول إبراهيم أنيس في ذلك : «الكلام الموزون والنغم الموسيقي يثير فينا انتباها عجيبا وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع لتتكون منها جميعا تلك السلسلة المتصلة الحلقات » [1] .

وإذا كان القدماء قد أعطوا أهمية كبيرة للوزن لما له من إيقاع، تطرب له الأسماع بتفعيلاته المتوالية في فترات زمنية منتظمة مشكلة بذلك إيقاعات مؤثّرة في النفس، فإن الأهمية نفسها توجد عند المحدثين عندما يقول أحدهم: «الوزن هو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت، وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية » [2] .

وفي نفس الموضوع يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: «وصورة البيت الشعري التقليدي تتكون من وحدتين موسيقيتين إحداهما تكرار للأخرى، أي أنها تساويها زمنيا في حركاتها وسكناتها، وإن اختلفت ثانيتها عن الأولى بتوقيع خاص في نهايتها هو ما يسمى بالقافية» [3]والبيت الشعري هو الوحدة الأساسية للقصيدة العمودية والذي من خلاله يعرف الوزن الذي يبني عليه الشاعر قصيدته، وعندما نظرنا إلى البحور الشعرية المستخدمة في عينة من تجارب شعراء المدونة لاحظنا أن الشعراء قد طرقوا كثيرا من البحور الشعرية المتداولة كالبحر الطويل والكامل والبسيط والسريع والمتقارب والوافر والرجز ...

---

(1) **المرجع السابق** : ص 13 .

(2) **محمد غنيمي هلال** : النقد الأدبي الحديث ، ص 462 .

(3) **د/ عز الدين إسماعيل** : التفسير النفسي للأدب ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، د ط ، 1962، ص 77،78 .

والشيء المهم هو تصدّر البحور الشعرية التالية : (الطويل، البسيط، الكامل)، وبمقارنة بسيطة بين نسب البحور الشعرية وعدد النماذج المجموعة في البحث تم الوصول إلى النتائج التالية :

شكل البحر الطويل نسبة 38.37 % وهذا شيء طبيعي لأن البحر الطويل جاء ما يقرب عن ثلث الشعر العربي القديم، وقد أحصى أحد الدارسين أوزان الشعر القديم فوجد هذا البحر يغلب على أوزان شعر المعلقات وعلى أوزان شعر الأعشى، وكذلك بالنسبة للأصمعيات والمفضليات [1] ويتميز هذا الإيقاع بالفخامة والرصانة حتى أن ثلاثا من المعلقات السبع اتخذت لها هذا الإيقاع .

وحتى من خلال استقراء نصوص الشعر العربي لاحظ العلماء أن البحر الطويل يتردد بكثرة في الشعر القديم [2]ثم يأتي البحر الكامل بنسبة 26.74% فالبحر البسيط بنسبة 17.44% ثم المتقارب بنسبة 8.13 % ثم الوافر والسريع بنسبتين متقاربتين والرجز والرمل والخفيف بدرجة أقل تواترا .

ويمكن القول أن هذه البحور التي كانت لها الصدارة في المدونة ظلت في كل العصور حاضرة بقوة يطرقها كل الشعراء ويكثرون النظم منها وألفتها آذان السامعين في بيئة العرب [3] .

وخلاصة لكل هذا تبين هذه النسب أن الشعراء ركزوا على الأوزان الطويلة بالدرجة الأولى مترسمين طريق القدماء ومعتبرين الشعر المشرقي مثالا يتبع، ورفضوا الخروج عن التقليد الموروث عن العصور الأولى، ويرجع التشبث بهذه الأوزان لأنها هي الأقدر على استيعاب المعاني، فموضوع المدح مثلا يناسب بحورا كثيرة المقاطع كالطويل والبسيط والكامل التي تتطلب استرجاع الانفعالات والذكريات في هدوء، والشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا يصب فيه من أشجانه ما ينفّس عن حزنه وجزعه، فإذا قيل الشعر في وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية. [4]

ومن مثل هذا الرثاء الذي ينظم ساعة الفزع لا يكون عادة إلا في صورة قصيرة كما رأينا ما حدث لبكر بن حماد قبل وفاته، عندما دخل عليه بعض أحبّائه فقال يرثي نفسه على وزن الرجز :

قد جاءني ما ليسَ لي فيهِ حِيَلُ   أحْبُو إلى الموتِ كمَا يَحْبُو الجَمَلُ [5]

وهو «تأثر نفسي عميق يتطلب بحرا قصيرا يوافق سرعة التنفس وازدياد نبضات القلب » [6] كما أكثر الشعراء من موضوع الوصف في الأوزان الطويلة كثيرة المقاطع لأنها الأنسب لهذا الغرض بوجه عام .

---

(1) **ينظر :أحمد النجار :** أساليب الصناعة في الشعر الجاهلي ، ص 333 .
(2) **ينظر: د/فوزي سعد عيسى:**العروض العربي ومحاولات التطور والتجديد فيه،دار المعرفة،الإسكندرية،مصر،1998،ص39.
(3) **ينظر : د/ إبراهيم أنيس :** موسيقى الشعر ، ص 191 .
(4) **ينظر : عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق :** مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، ص 78 .
(5) **محمد رمضان شاوش :** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 92 .
(6) **د/ إبراهيم أنيس :** موسيقى الشعر ، ص 177 .

ب-الطباق:

يرى البلاغيون أن الطباق هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام والجمع بين معنيين متقابلين في الجملة [1] و يرى ابن رشيق في كتابه العمدة أن المطابقة عند جميع الناس أن تجمع بين الضدين في الكلام أو في بيت الشعر [2] وقد اكتظت القصائد بالثنائيات الضدية ومن ذلك النماذج الآتية :

يقول بكر بن حماد :

نهارٌ مشـــرقٌ وظلامُ ليـــلٍ ألحَّـــا بالبيـــاضِ وبالسَّـــوادِ [3]

تم توظيف لون من التوازن بين طرفي الشطرين، فجعل الشاعر في الطرف الأول صورة مشرقة سعيدة للحياة وقابلها في الطرف الثاني بصورة حالكة السواد، فمحا إشراق الأولى بالثانية وفسح المجال للبؤس والشقاء، وفي الغرض نفسه يقول :

لقد جفَّتِ الأقْلامُ بالخَلْقِ كلِّهم فمنهم شقيٌّ خائبٌ وسعيـدُ
أرى الخيرَ في الدنيا يقلُّ بكثرةٍ ينقصُ نقصًا والحديثُ يزيـدُ [4]

وقال في رثائية أخرى :

فيا نَسْلي بقاؤُك كان ذُخـــرًا وفُقْدُكَ قد كوَى الأكبَادَ كيًّا [5]

وفي مدح الخليفة الفاطمي المعز يقول ابن هانئ :

وللجَدِيديْن من طُولٍ ومنْ قِصرٍ حبْلانِ مُنقبِضٌ عنًّا ومُنْبَسِطُ [6]

هناك في البيت الشعري مطابقة بين الكلمتين (طول، قصر) و(منقبض، منبسط)، فبهذه الثنائيات فسّر الشاعر الظاهرة الفلكية التي تتعلق بطول الليل وقصر النهار وقد يكون عكس ذلك عند الانقلاب الفصلي، كما نجد هذا التشكيل المعنوي كذلك عند ابن رشيق في بكائه القيروان :

مُتعَاوِنينَ علىَ الدِّيانَةِ والتُّقَى للهِ في الإسْـــرَارِ والإعْـــلاَنِ [7]

(1) **ينظر : د/عائشة حسين فريد :** وشي الربيع في ألوان البديع ، ص 18 .
(2) **ينظر : ابن رشيق :** العمدة ، ج2 ، ص 12 .
(3) **محمد رمضان شاوش :** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 76 .
(4) **المصدر نفسه :** ص 75 .
(5) **المصدر نفسه :** ص 87 .
(6) **ابن هانئ الأندلسي :** الديوان ، ص 109 .
(7) **ابن رشيق :** الديوان ، ص 156 .

ويقول في موضع آخر يصف الغيـد الحـــسان :

وقدْ أطفأُوا شَمسَ النَّهارِ و وأوْقَدُوا   نُجُومَ العَوالِي في سَماءِ عَجَاجِ [1]

وقال كذلك يرثي قاضـــي المحـــــمدية :

وما زلتُ أفْزَعُ من يأسٍ إلى طمـعٍ   حتَّى تَربَّعَ يَأسِي فَوقَ أطْمَاعِي [2]

كما نجد هذا اللون البديعـــي عند الشاعر النهشلي وهو يمدح المنصور بن بلكين الصنهاجي قائـــــلا :

فَمَنْ يُولِّهِ سَعْدًا يَنَلْهُ ومن يُــردْ   بهِ شِقْوةً تُخْلَعْ عليـــهِ ثِيابُـــهَا

يحلُّ بنَا مَا حَلَّهَا البِّرُ والتُّـقَى   ويخْضَرُّ من بعدِ اصْفِرارِ جِنابُـــهَا

ولوْ أنَّهَا عَاصَتْكَ غَيرَ مُجِيبــةٍ   أجابَتْكَ من تحتِ السُّيوفِ رِقَابُهَا [3]

كما نجد الشاعر ابن قاضـــي ميلة قد طابق في أكثـــر من موضع في مدحـــه ثـــقة الدولة ومنـــها :

سعَى وسعَى الأمْلاَكُ في طلبِ العُلاَ   ففَازَ وأكْدُوا إذا خفَّ واقْطَفُوا [4]

و في الغالب أكثر شعراؤنا من المطابقة واستعملوها كوسيلة فنية، وركزوا الاعتماد عليها في إقامة علاقات بين المفردات التي تعكس صور العلاقات القائمة في طبيعتهم، وتكشف النماذج المقدمة حسن المفارقة المعنوية في الأبيات حول إدراك الشعراء لجوهر الأشياء التي تحيط بهم في جمعهم لكثير من المتضادات والمتناقضات، كما عكست هذه النماذج في مجملها واقعا اجتماعيا تم وصفه بكل ما يحمل من ألوان ترجمت الصراع النفسي والاجتماعي مثل: السعادة والشقاء، البقاء والفقد، الانقباض والانبساط، الإعلان والإسرار، النور والظلام، الاخضرار والاصفرار،الطاعة والمعصية،الفوز والخيبة ...

وكل ذلك رسم إطارا للتعبير عن هموم الإنسان وآلامه وآماله ومختلف صراعاته .

---

(1) **المصدر السابق** : ص 55 .
(2) **المصدر نفسه** : ص 98 .
(3) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 132 .
(4) **المصدر نفسه** : ص 134 .

جـ-الترصيع:

الترصيع من المحسنات البديعية التي طبعت أشعار القدماء بصورة متفرقة، وينتج عن تقارب الألفاظ وتوافقها في النغم والجرس فهو: «توازن لألفاظ مع توافق الأعجاز وتقاربها »[1] هذا التوافق التام تتفق فيه الكلمات في الوزن والروي، فيسمى الترصيع المتوازي، أما الترصيع المتوازن فيراعى فيه الوزن فقط في مقاطع كلامه وهناك ضرب آخر يسمى بالترصيع المتطرف وهو الذي تتفق فيه الكلمات في الروي لا في الوزن .

والتوافق بين أوزان الكلمات يضفي نغما موسيقيا يجذب الأسماع، ويثير الأشجان، ويحض العقول على فهم المعاني من ناحية المهارة في النظم والبراعة في الترتيب والتنسيق، ومهما اختلفت أصنافه وتعددت طرقه فيجمعها أمر واحد وهو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ [2] .

وقد وردت الترصيعات بكثرة في قصائد الشعراء ومن ذلك قول بكر بن حماد :

فيا أسفِي من جُنَحِ ليلٍ يقُودُهَا وضُوءِ نهـــارٍ لا يزالُ يسُوقُـــهَا [3]

ويقول ابن هانئ :

فمدحُك مَفْروضٌ وحُكمُك مُرتَضى وهدْيُك مرغُوبٌ وسُخْطُك مَرهُوبُ [4]

ويقول الشاعر ابن قاضي ميلة :

يُسَايرُه جيـــشَان رأيٌ وفيلـقٌ ويصحبُهُ سيفَان عزمٌ ومرهــــفُ [5]

ويقول النهشلي :

رِماحُك أحْنَاءُ الضُلوعِ نِقَافُــهَا وخَيْلُكَ تَامُورُ النُّفوسِ شرَابُــــهَا [6]

عند النظر في هذه النماذج الأربعة يظهر تقسيم المقاطع في الأبيات الذي نوع الإيقاع باتفاق كثير من الكلمات في الوزن والروي التي جاءت في الأمثلة على الترتيب(يقودها/يسوقها)، (مرغوب/مرهوب)، (جيشان/ سيفان) (نقافها / شرابها)، وجاء الترصيع في هذه الثنائيات متوازيا، والنماذج الآتية تظهر الترصيع المتوازن .

---

(1) **أحمد الهاشمي :** جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ضبط وتحقيق يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ط1 ، 1999 ، ص 332 .
(2) **ينظر : د/إبراهيم أنيس :** موسيقى الشعر ، ص 45 .
(3) **محمد بن رمضان شاوش :** الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 78 .
(4) **ابن هانئ الأندلسي :** الديوان ، ص 49 .
(5) **د/ شوقي ضيف :** تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 134 .
(6) **المصدر نفسه :** ص 132 .

ونجد هذا اللون عند الشاعر بكر الذي يقول :

فلا تفرحْ بدُنْيَا ليـــسَ تبقَـــى ولا تأسَــفْ عليـــهَا يَـا بُنَـــيَّا [1]

وعند ابن هانئ الذي يقول :

وتَضِجُّ أيسَارٌ ويَصْـــدَحُ شَــــارِبٌ وتـــرنُّ سُمَّـــارٌ ويَـــهْدِرُ جَامِـــلُ [2]

ويقول ابن قاضي ميلة :

حُسامٌ على من ناصَب الدِّينَ مُصْلَتٌ وسِترٌ على من راقبَ اللهَ مُغْـَدفُ [3]

ويقول ابن رشيق :

عن مثلِ فَضْلكَ تَنْطـــقُ الشُّعـــراءُ وبمثلِ فَخرِك تفخـــرُ الأمــــراءُ [4]

واعتمد الشعراء في هذه الأبيات على الترصيع المتوازن لخلق نغمات متجددة في ثنائيات موزعة بين الشطرين أضفت على النصوص إيقاعا داخليا متنوعا، وهذا التحسين يراعى في مقاطع كلامه الوزن فقط، وتوزعت مقاطعه في الأبيات كالتالي :

(لا تفرح / لا تأسف)، (يصدح شارب / يهدر جامل)، (مصلت / مغدف)، (تنطق / تفخر) .

ولم تخلو أبيات الشعراء كذلك من الترصيع المتطرف و الذي تتفق فيه الكلمات في الروي لا في الوزن ومثل ذلك ما جاء في قول الشاعر النهشلي :

نشاوَى وما مالتْ بخمرٍ رقابُهَا بواكٍ وما فاضتْ بدمعٍ عُيونُهَا [5]

وعند ابن هانئ الذي يقول :

وأتتْ تُزجى رِدْفَهَا بقَوامِـــها فتأطَّرَ الأعلى وماجَ الأسْـــفلُ [6]

وواضح الترصيع المتطرف في الكلمات: (رقابها / عيونها) و (ردفها / قوامها) و كل هذه التوازنات اللفظية تزين الأبيات الشعرية و تعنى بحسن الجرس و تترك أثرا في نفس المتلقي.

([1]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 88 .
([2]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 301 .
([3]) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 134 .
([4]) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 27 .
([5]) **ابن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 175 .
([6]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 166 .

الصورة الشعرية :

كانت الصورة الشعرية محل اهتمام القدامى والمحدثين وذلك لما لها من أهمية في عالم الشعر، ولقد وردت كلمة الصورة في القرآن الكريم إلا أنها تعني الخلق في قوله تعالى: ﴿الذِّي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (1) وفي قوله : ﴿هُوَ الذِّي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (2) وقد اختلف النقاد منذ القديم في محاولاتهم الرامية إلى فهم الصورة الشعرية وتعريفها يسمح لهم بالوقوف على طبيعتها والإلمام بمكوناتها،وكيف يتم تشكيلها تشكيلا فنيا وتركيبها تركيبا وجدانيا من رؤية تجعل الحقائق أكثر حسية(3) .

والصورة الشعرية تركيب لغوي لتصور معنى عقلي متخيل، وفي المفهوم الغربي تعرف الصورة بأنها تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن أو هي تجسيد لفظي للفكر والشعور (4) ويرى بعض الدارسين أن المهم في أمر الصورة ليس المعنى كما يرى ابن قتيبة ولا المجاز كما ينظر إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني، ولكنه «التشكيل الفني في ذاته لأنه هو الخلق الفني الذي يعمد إلى الشعر » (5) .

ومن ذلك لم يعد مفهوم الصورة محصورا في الشكل المجازي المشحون بالعاطفة والإحساس فحسب بل تجاوزها ليشمل كل تشكيل لغوي يعقله خيال الفنان من معطيات الحواس والنفس والعقل (6) فالمفهوم القديم يقتصر الصورة على التشبيهات والاستعارات بخلاف المفهوم الجديد الذي وسع من إطارها، فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالصورة بل قد تخلو الصورة من المجاز أصلا، فتتكون من عبارات حقيقية الاستعمال ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب (7) .

وعموما فالصورة الشعرية تعد وسيلة من وسائل التعبير عن التجربة الشعرية، ينقل من خلالها المبدع أفكاره وأحاسيسه إلى المتلقي، ويستعمل في ذلك التشكيل اللغوي الذي يصور به المعنى تصويرا منطقيا محدود الألفاظ « ويكون ذلك في أسلوب أدبي يضم إلى جانب ذلك رعايته للمعنى جمال الأداء » (8)ولقد تأثرت الدراسات السيكولوجية التي فتح آفاقها " فريد " بمباحثه حول ما يسمى بالعقل الباطن، ومن ثم ظهر ما يسمى بالاتجاه السلوكي الذي يهتم بالصورة الذهنية من حيث هي نتيجة العمل الذهني الإنساني في تأثره بالعمل الفني وفهمه له (9) .

---

(1) **سورة الانفطار** : الآية 7، 8.
(2) **سورة آل عمران** : الآية 6 .
(3) **ينظر : د/جابر عصفور** : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 105 .
(4) **ينظر : د/أشرف محمود نجا** :قصيدة المديح في الأندلس ، ص 194 .
(5) **د/ علي البطل**:الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت، لبنان ، ط3،1983،ص25 .
(6) **ينظر: المرجع نفسه** : ص 30 .
(7) **ينظر: المرجع نفسه** ، ص 25 .
(8) **د/عبد الفتاح صالح نافع** : الصورة في شعر بشار بن برد ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، 1983 ، ص 52.
(9) **ينظر : د/ علي البطل** : الصورة في الشعر العربي ، ص 28 .

ويقسم هذا التعريف الصورة بحسب مادتها إلى صورة بصرية وسمعية وشمية وذوقية ولمسية وهي صفات مستمدة من الحواس الخمس، وحتى العرب كانوا قديما يُعيرون اهتماما للجانب الحسي في تذوق الفن والجمال فيعجبون بكل ما له علاقة بالحس فتنجذب أنفسهم نحوه، وتنفر من كل ما يخالف الحس وتبتعد عنه [1] وفي الحديث عن أنواع الصور يقول الدكتور علي البطل : «يتميز في تاريخ تطور مصطلح الصورة الفنية مفهومان قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز وحديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين هما الصورة الذهنية والصورة باعتبارها رمزا »[2] وانطلاقا من أن الصورة ما هي إلا وسيلة فنية يوظفها الشاعر للتعبير عن موضوعات معينة في شعره، وتكمن أهميتها في وظيفتها الدلالية .

وعلى الرغم من تعدد مفهومها عند الدارسين والنقاد، فإنه يبقى لكل شاعر صوره المتميزة تصوغها مرجعياته الفكرية وحظه من تملك اللغة، إضافة إلى دربته في مجال الشعر مما يكفل له التعبير عن تجربته الشعرية الخاصة، وهذا ما يكون عند الشعراء الذين تناولهم البحث بالدراسة، فنميز في خصائص صورهم نوعين : صور حسية ساهمت الحواس في صنعها، فالشعراء استعملوا حواسهم لإيصال أفكارهم إلى المتلقين الذين يتفاعلون معها على أساس معارفهم الحسية، واعتمد الشعراء على مختلف الحواس في تشكيل صورهم الحقيقية، والنوع الثاني يتعلق بالصور البيانية التي أضفت جمالا لصورهم الشعرية والصورتان الحسية والبلاغية تتكاملان لتحقيق الإطار الجمالي الذوقي لإبداع الشعراء .

-الصور الحسية:

يقصد بها الصياغة الحسية التي من خلالها يشخص الشاعر معانيه الفكرية أو أحاسيسه الداخلية، أو يرسم منظرا خارجيا ويجعله أمام المتلقي الذي بدوره يتخيله ويحس به، وفي هذا النوع من الصور تشترك كل الحواس لبنائها بإحكام، فالصورة هنا هي التعبير الحسي عن الأفكار والعواطف والمناظر والحياة ووسيلتها الأولى اللغة، وقد توظف في ذلك كذلك الصور البيانية [3] وهي جزء من الصورة الفنية، ويمكن تقسيم الصور الحسية حسب الحواس التي اعتمد عليها الشعراء في بناء صورهم الحسية من بصر وسمع وذوق ولمس وشم .

أ- الصورة البصرية:

إن أهمية البصر كبيرة في خلق الصورة الشعرية، وذلك لما يملك من إحاطة في نقل كل ما يحيط بالشاعر والعين تبصر كل الأشكال وتحددها وهي أم الحواس وأهمها باعتبارها نافذة على الكون والحياة بأكملها، وهي أكبر الحواس استقبالا للصور، وقد أدرك الشعراء مكانتها ووظيفتها واعتمدوا عليها في نقل

---

(1) **ينظر: د/عبد الفتاح صالح نافع :** الصورة في شعر بشار بن برد ، ص 64 .

(2) **علي البطل:** الصورة في الشعر العربي ، ص 15 .

(3) **ينظر: علي عالية :** شعر الفلاسفة في الأندلس ، ص 301 .

تجاربهم الشعرية وقد جاءت أكثر صورهم الحسية بصرية مقارنة بالصور الأخرى التي اعتمدت على عناصر طبيعية أكثر حسية ومرئية كالحركة واللمعان والألوان وهي عناصر لا يمكن إدراكها دون إمعان النظر فيها .

ومن هذه الصور ما جاء في الأبيات التالية لبكر بن حماد :

تُسَرُّ بأشهرٍ تمضِي سِراعًا   وتَطْوِي في ليالِيهنَّ طَــيًّا
فلا تفرحْ بدُنيَا ليسَ تَبْقَى   ولا تأسَفْ عليهَا يا بُنَـيًّا (1)

يرثي الشاعر ابنه ويتأمل حركة الزمن، فالشهور تمضي تباعا في حركة دائمة وتمضي السّنون حتى يأتي أجل الإنسان وتنتهي حياته، وهذه الصورة فيها حركة الزمن التي تتمثل في الساعات والأيام والشهور والأعوام فهي حركة دائبة منتظمة تنبئ بعدم بقاء الدنيا التي يتعلق بها الكثير، وقال في صورة أخرى :

تجهَّمْتُ خَمْسًا بعد سبعين حِجَّة   ودام غُروبُ الشَّمسِ لي وطُلوعُهَا
وأيدي المَنَايَــا كلُّ يومٍ وليــلةٍ   إذا فُتِقَتْ لا يُستطاعُ رُتُوقُـــهَا (2)

والشاعر معروف بتأملاته فينظر في نفسه ويتأمل حركة الأيام والليالي التي عاشها، وكم شهد من غروب وطلوع للشمس في إشارة لحركة الليل والنهار وتعاقبهما، فجعل من صورته الحركية تنمو وتنحدر إلى أن وصل العمر الذي هو عليه، وبنفس المشهد الحركي يقول ابن هانئ :

قامتْ تميسُ كما تدافع جـدولٌ وانْسَابَ أيمٌ في نقاً يَتَهيَّل
وأتتْ تُزَجى رِدْفَهَا بقوامــها   فتأطَّرَ الأعْلَى ومَاجَ الأسْفلُ (3)

لقد جسد الشاعر وصف المرأة الحسناء بعدة صور حركية استوحاها من الطبيعة، فتمايل المرأة يشبه حركة الجدول وهو يتدافع، كما شبه تململ الحية على قطعة من الرمل، كل ذلك ليصور تلك الحسناء التي تظهر جميلة مغرية خاصة عند حركتها التي تظهر كل مفاتنها، وغير بعيد عن عالم الحركة يقول النهشلي :

أواجدةٌ وجْدِي حَمائمُ أيـــْكةٍ تميلُ بهَا مَيْلَ النَّزيفِ غُصُونُهَا
نشاَوى وما مالتْ بخمرٍ رِقابُها   بواكٍ وما فاضتْ بدمعٍ عُيونُـهَا (4)

فيجعلنا أمام مشهد طبيعي من عناصره شجرة كبيرة بأغصانها وأوراقها عليها حمائم تترنّم وتتأرجح على حركة الأغصان، فالمنظر يحمل كثيرا من الحركات سواء من الحمائم أو من الأغصان، إضافة إلى الألوان التي تستشف من ذلك كاللون الأخضر وغيره ما يميز الحمامات، فالصورة البصرية تجمع بين الحركة واللون ولا يمكن إدراك ذلك إلا بحاسة البصر .

ويقول ابن أبي الرجال :

---

(1) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 88 .
(2) **المرجع نفسه** : ص 79 .
(3) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 166 .
(4) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 176 .

غرَّاءُ واضحةٌ ينوسُ بقُرطِـــهاَ   جِيدٌ حَكىَ جِيدَ الغَزالِ الأعْنَقِ [1]

في هذا البيت لا يمكن إخفاء حسية وشكلية الموقف الذي أراد الشاعر التعبير عنه والذي رسم من خلاله مشهدا حسيا يحمل دلالة حركية تمثلت في حركة النوّاس التي في أذنها، إضافة إلى الألوان التي أمعن فيها البصر من حسن البشرة وبياضها ، ويقول النهشلي :

وصُفْرٌ كأنَّ الزعفرانَ خِضابُـــــها   وإلاَّ من ماءِ العقيقِ لهَا قِشْــرُ
وشهبٌ من اللجِّ اسْتُعيرَتْ مُتونُها   ومن صُوَرِ الأقمارِ أوْجُهُهَا قَمَرُ [2]

والألوان مدركة بحاسة البصر، لذا استخدم الشاعر اللون الأصفر أو ما اختلط بياضه بسواده، وهي ألوان الخيول التي تم وصفها الشاعر اعتمادا مطلقا على حاسة البصر التي بها تتميز الألوان، وقد أضفت هذه الألوان رونقا خاصا زاد في وضوح الصورة الموصوفة، ويقول ابن هانئ الأندلسي :

لبستْ بياضَ الصُّبحِ حتَّى خِلتُهَا   فيه نجَاشِيًّا عليهِ قِبَاءُ
حتَّى بدتْ والبَدرُ في سِربالِـــــها   فكأنَّها خَيْفَانَةٌ صَدْرَاءُ
ثمَّ انْتَحَى فيها الصَّدِيعُ فأدْبَرتْ   فكأنَّها وحشيَّةٌ عَفْرَاءُ [3]

اعتمد الشاعر على كثير من الألوان في تجسيد صورة المحبوب، فوظف اللون الأبيض واللون الأسود وهو ظلام الليل الذي كنّى عليه بالنجاشي ملك الحبش، وصدراء تطلق على الصدر الأبيض أما العفراء فصفة تدل على الظبية التي يعلو بياضها حمرة، وهذه الصورة جيدة السبك مستوحاة من الطبيعة اجتمع فيها اللون والحركة التي ترقبها العين من خلال طلوع الشمس وغروبها و عند ظهور البدر، ويقول في صورة أخرى :

([1]) **ابن رشيق** : العمدة ، ج2 ، ص 112 .
([2]) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 173.
([3]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 32،31 .

كلٌّ يهيجُ هواكَ إمَّا أيْكَةٌ   خَضْراءُ أو أيْكيَّةٌ وَرْقَاءُ

فانظرْ أنَارٌ باللِّوَى أمْ بَارِقٌ   متألِّقٌ أمْ رايَةٌ حمْــرَاءُ (1)

لقد أبدع الشاعر في تصوير ما يؤجج هواه، فغابة من الأشجار الخضراء المتداخلة أو حمامة سمراء تحط على غصنها، كما اعتمد في إخراج صورته على فعل الرؤية بالعين ، إذ استعمل الفعل " أنظر " جاعلا منه ركيزة لبعث الشعور الحسي في المتلقي، لعله يلتمس في الرمال البعيدة نارا تتأجج، أو برقا يومض، أو علما أحمر يظهر من جانب قوم الحبيبة ، ويقول ابن رشيق :

رأيتُ شقيقةً حمراءَ بادٍ   على أطرافِهَا لَطْخُ السَّوادِ

يلوحُ بها كأحْسَنِ ما تَراهُ   على شَفَةِ الصَّبي من المِدَادِ (2)

في هذه الصورة يشبه الشاعر شقائق النعمان وقد لطخت أطرافها بنقط سوداء بشفاه الصبي، التي زاد من جمال حمرتها السواد، فجمع مما وقع عليه بصره من جمال الطبيعة والتقط اللونين الأحمر والأسود المدركين بحاسة البصر، مما أضفى على هذه الصورة رونقا مميزا في بهائها، كما استخدم اللون الأبيض وهو يصف علماء القيروان قائلا :

كمْ كانَ فيهَا من كِرامٍ سادةٍ   بيضِ الوجوهِ شوامخِ الإيمَانِ (3)

وجاءت هذه الصورة لتصف من كان في القيروان قبل خرابها من أهل الجود والسؤدد والإيمان الصحيح من علماء أجلاء يشعون نورا من تقوى الله، كنى عليهم بصفة بيض الوجوه لما يحمل هذا اللون من معاني الصفاء والتقوى وصدق السريرة ، و يقول عبد الله بن محمد الجُراوي :

بأجْفانِ عَيْنَيْهِ ياقُوتَتَانِ   كأنَّ وَمِيضَهُما جَمْرتَــانِ

وقُرطَانِ من جوهرٍ أحمر   يَزِينَانِ زينَ قُرطِ الحَصَانِ (4)

ولو دققنا النظر في الألفاظ المستعملة في هذه الصورة التي تحمل الكلمات (ياقوتتان، جمرتان، جوهر أحمر، قرط الحصان) لوجدناها كلها تساهم في خلق التوهج واللمعان الذي هو عنصر أساسي في الصورة البصرية الحسية، ويبدو ذلك في الصورة التالية التي مثلت شكلا آخر من أشكال اللمعان التي يقول فيها ابن هانئ :

وإنَّ حَصَانًا نَمتْ جعـفرًا   ويحيَ لعاديَةُ المُنْتَمَى

فجاءتْ بهذَا كشمسِ النَّهارِ   وجاءتْ بهذَا كبَدْرِ الدُّجَى (5)

(1) **المصدر السابق** : ص 31 .
(2) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 66 .
(3) **المصدر نفسه** ، ص 156 .
(4) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان ، ص 218 .
(5) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 424 .

فقد جمع في وصفه لهذه المرأة الكريمة التي ولدت جعفر ويحي بأنها قديمة النسب، وجعل من الأول كشمس النهار عندما تكون في كبد السماء، ومن الثاني كبدر الليل الذي يقضي على الظلام، وهي صور بصرية تشع بالنور، ترسلها عناصر الطبيعة من شمس وبدر وما هذا إلا من آثار المدوحين الذين هما سيدا المحمدية.

ويقول ابن رشيق :

تَرَقْرق دمعًا في خدودٍ توشَّحَتْ   مَطارِفُها بالبَرقِ طِرزًا من التِّبْرِ
فوَشيٌ بلا رقمٍ ونَسجٌ بلا يـَـدٍ   ودَمعٌ بلا عَينٍ وضِحْكٌ بلا ثَغرِ (1)

يشبه الشاعر في هذه الصورة لمعان البرق بدمع تلك المرأة الثكلى وهو يسيل على خدودها متلألئا كأنه فتات من الذهب أو الفضة، فيذكر النقش والبرق والدمع والرعد الذي يضحك ويجسد ذلك في لوحة طبيعية رائعة جمعت لمعان البرق وقهقهة الرعد متخذا من وسيلة التصوير البصري وسيلة لإيصال المعنى، وغير بعيد عن هذه الصورة صور لنا امتزاج اللون واللمعان في قوله :

معتَّقةٌ يعْلُو الحَبَابُ مُتونَــــهَا   فتحْسِبُه فيها نَثِيرَ جُـــمَانِ
رأتْ من لُجينٍ راحةً لُديـــرِها   فطافتْ له من عَسْجَدٍ ببَنَانِ (2)

يشبه الشاعر الخمرة باللؤلؤ المنثور هنا وهناك على جوانبها، حتى أنها وهي تدور انعكس لمعانها على راحة ساقيها فلمعت أصابعه، والفضة والذهب معدنان نفيسان يضفيان اللمعان الذي تدركه الحواس .

ب-الصورة الشمية

الشم واحدة من الحواس الخمس مصدرها الأنف حتى الرئتين، ويتحكم في ضبط عمليتها الجهاز العصبي الذي بواسطته يتحدد نوع الشم، وقد وظف الشعراء الصورة الشمية في أشعارهم سواء كانت طيبة ذكية أو غيرها، ومن ذلك قول ابن هانئ :

أهْدَى الرَّبيعُ إلينَا روضةً أُنُـــفًا   كما تنفَّسَ عن كَافُورِه السَّفَطُ
والأرضُ تبسطُ في خدِّ الثَّرَى ورقًا   كما تُنَشَّرُ في حَافاتِها البُسُطُ
والرِّيحُ تبعثُ أنفاسًا مُعَطَّـــرةً   مثل العَبيرِ بماءِ الوَردِ يَخْتَلِطُ (3)

فهذه الصور أُخذت من الطبيعة ومن فصل تكثر فيه الرياض التي تنتشر على بساطها المزركش أنواع من الأزهار، فتبعث أنفاسها عطرا شذيا، وكأن الشاعر أراد أن يحرك مشاعرنا النفسية .

(1) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 79،80.
(2) **المصدر نفسه** ، ص 154 .
(3) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 108،109 .

ويركز على حاسة الشم، ليؤكد أن هناك نوعا حسيا قبل البصر فيه جمال يدرك الشم أثره الجميل فتنشرح له النفس، والجميل في كل ذلك أن الشاعر جمع هذه التفاصيل في تشبيه هذه الروضة بوعاء كالقفة تنشر طيبا، ويقول في صورة أخرى يمزج فيها رائحة الشم الطيبة بجمال المرأة :

أريّاكِ أمْ ردعٌ من المِسْكِ صَائِكُ ولحْظُكِ أمْ حَدٌّ من السَّيفِ بَاتِكُ [1]

فالبيت مأخوذ من مقدمة غزلية يصف فيه بشكل حسي مفاتن المرأة، إلا أن الشاعر وهو يغوص في حيثيات الجمال ركز على ما يفوح منها من روائح عطرة، وطيب يدغدغ الأنوف، عبر عنه الشاعر بأثر المسك اللاصق الذي لا يغادرها .

وحاسة الشم لا تقتصر على الروائح الطيبة فحسب، بل تتعدى إلى الروائح الكريهة، وعبر عن ذلك ابن رشيق بهجائه لرجل يعرف بفسوة الكلب الذي وُلي القيروان، فقال يشكو الله أمر القيروان وما أحل بأهلها من ذل وضيم قائلا :

إنَّا إلى اللهِ راجعُونَ لقدْ هانَ علَى اللَهِ أهلُ ذاَ البَلَدِ
أفَسْوَةُ الكَلْبِ جاءَ يَملكُنَا فكيفَ لو كانَ ضَرطَةَ الأسَدِ [2]

والمتلقي لهذه الأبيات يحس بالنفور والاشمئزاز، فقد وظف الشاعر حاسة الشم لكشف سوء سمعة مهجوه بنسبة الرائحة الكريهة إليه .

جـ- الصورة الذوقية:

لقد جسد الشعراء كل ما وقع عليه ناظرهم إلى صور بصرية، وكل ما وقعت عليه حاسة شمهم إلى صور شمية فحري بهم أن يخرجوا لنا صورا ذوقية انطلاقا مما يصادفهم من أشياء يتذوقونها .

ومن ذلك قول بكر بن حماد :

وغَشّى مْغيلَةَ بالسُّيوفِ مذلَّةً وسقىَ جَرَّاوَةَ من نَقيعِ الحَنظلِ [3]

وما يلاحظ في الشطر الثاني هذه الصورة الذوقية التي عبر بها الشاعر وهو في سياق مدح صاحبه الذي امتاز بالقوة والشجاعة حتى أنه أخضع كل القبائل ومن بين القبائل " جراوة " التي أخضعها وسقاها شرابا مرا وكنى بهذا المذاق ليوضح مدى إحكام سيطرة الممدوح على أهل جراوة .

([1]) **المصدر السابق** : ص 122 .
([2]) **ابن رشيق:** الديوان ، ص 68 .
([3]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 74 .

ويقول ابن هانئ متذوقا الخمرة :

وليلٍ بتُّ أُسقاهَا سُلافًا معَتَّقَةً كلَونِ الجلَّـــنَارِ
كأنَّ حَبَابَهَا خَرَزَاتُ دُرٍّ　　　علَتْ ذهبًا بأقداحِ النُّضَارِ (1)

فقد بات ليلته يشربها لأنها معتقة طيبة لقدمها، وعبر ذلك بصورة حسية جمع فيها بين الذوق واللمعان الذي يستقطب من حبابها الذي يلمع كالدرّ على جوانب أقداحها .

ويقول ابن رشيق في صورة عبر عنها عن تذوقه للخمر :

لا تَسقِينِي للرَّاحِ ممْزوجَـــةً　　　واشْرَبْ فما يُمكِنُني شُربُهَا
ما راحَتِي في الرَّاحِ إنْ غُيِّرتْ　　　دعْهَا كما جاءَ بهَا ربُّـــهَا (2)

فعبر الشاعر عن ذوقه للخمر، فهو يريدها غير ممزوجة بالماء الذي يكسر حدتها فلا راحة له فيها وإنما يريدها كما صنعت وهذه صورة ذوقية عبر فيها الشاعر عما يتذوق من الخمور للاستمتاع بها .

ويقول في وصف الموز :

موزٌ سريعٌ أكْـــــلُهُ　　　من قبل مضْغِ الماضِغِ
فالفمُ من ليـــنِ بـــهِ　　　مَلآنُ مثلُ فَـــــارِغِ
يخالُ وهْوَ بَالِـــــغٌ　　　للحَلْقِ غيرَ بالِـــــغِ (3)

في هذه الأبيات يصور الشاعر لنا بعض مميزات هذه الفاكهة من سرعة الأكل وسهولة المضغ حتى درجة الإحساس بعدم البلع، وهذه المميزات تفسر مدى تذوق الشاعر للموز عند أكله الطيب اللذيذ، و لا يتذوق بعض الخضار كالباذنجان فيقول فيه :

وإذا صَنَعْتَ غَدَاءَنَا　　　فاجْعلْهُ غيرَ مُبَذْنَجِ
إيَّاكَ هامَةَ أسْـــودٍ　　　عُريَان أصْلَع كَوْسَجِ (4)

فواضح في هذه الصورة أنه لا يتذوق الباذنجان، ويدعو غيره ألا يدخله في وجبة الغذاء التي تقدم له واصفا إياه بصفات تنفر وتبعد من تذوقه، فقد جسده في صفة رجل أسود عريان وأصلع وهو تصوير تنفر من النفوس .

د-الصورة السماعية:

ولحاسة السمع أهمية بالغة في خلق بعض الصور التي تترجم التجربة الشعرية للشعراء، وهي من الحواس التي يُدرك الفن بواسطتها، يصغي المتلقي لمختلف الأصوات التي لها إيقاع، ولأهمية هذه الحاسة تم توظيفها في الصور الحسية ومنها قول ابن قاضي ميلة :

---

(1) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 465 .
(2) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 42 .
(3) **المصدر نفسه** ، ص 101 .
(4) **المصدر نفسه** : ص 56 .

جاءتْ بعُودٍ يُناغيهَا ويُسْعدهَــا   أنظرْ بدائعَ ما يأتِي به الشَّجَرُ
غنَّتْ عليهِ ضُروبُ الطَّيرِ سَاجعَةً   حينًا فلمَّا ذَوَى غَنَّى به البَشَرُ [1]

رسمت هذه الصورة السمعية ذلك المشهد الذي يعبر عن التحول الذي يطرأ على العـود، فغنّـت عليـه الطيـور حينا ثم يشد عليه الإنسان بأوتار ليغني عليه حينا آخر، الأذن هنا تسمع مختلف الأصوات وتنقل إلى الـنفس حسيسها وإيقاعها فهذه صورة سماعية جسدها الشاعر وهو يصـف هـذا المنظـر، ويقـول ابـن هـانئ في صـورة سمعية يشبه فيها الأباريق بالظباء :

والأبَاريقُ كالظِّبَاءِ العَواطِي   أوجَسَتْ نَبْأَةَ الجيَادِ العِتَاقِ
مُصْغيَاتٌ إلى الغِناءِ مُطلاًّ   تٌ عليهِ كثيرةُ الإطْـــــرَاقِ [2]

فهذه الأباريق بمقابضها كأنها مائلة بأسماعها إلى الغناء الذي يقام في حفل يوم العيد الـذي يحضـره الخليفـة فمقبض الإبريق يشبه حاسة السمع التي تصغي إلى الأصوات من كل ركن وترهف لكل طرق وهي صورة سمعية وظفها الشاعر ليضفي نوعا من الاحتفاء بهذا اليوم .

وقال في صورة أخرى :

أصاختْ فقالتْ: وَقْعُ أجْرَدَ شَيْظَمِ   وشَامتْ فقالتَ :لمعُ أبيضَ مِخْذَمِ
وما ذُعِرتْ إلاَّ لجَرْسِ حُليـِّــــهَا   ولا لَمحتْ إلاَّ بُرًى منْ مُخَــــدَّمِ [3]

يوظف الشاعر في هذه الصورة ألفاظا لها علاقة بالسمع، فاستعمل الفعل "أصاخت" ليرسم مشهدا فيه نوع من الترقب لما يرد على الأسماع وكلمة الجرس التي عبر عن أصوات الحلي التي تلبسها المرأة وخصوصا خلخالها عند حركتها، فكأن المشهد سماعيّ فيه حركة، وفيه حيوية ونشاط .

2-الصور البيانية

انطلاقا من أن الصورة ركيزة أساسية من ركائز الجمال في الشعر، ووسيلة للتعبير عمـا يخـتلج داخـل الشاعر، فهي ترجمة للعواطف والأحاسيس، وعليه فالصورة الشعرية بقدرتها التعبيرية تعتبر مـن معـالم رقـي الشعر وكلما كانت أكثر جدة كان تأثيرها في المتلقى أعمق وأشد .

([1]) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 184 .
([2]) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 119 .
([3]) **المصدر نفسه** : ص 182 .

والصورة الناجحة هي هدف كل الشعراء يتتبّعها الناقد دارسا لها بقدر من التنظير البلاغي لإبراز أثرها الجمالي في النص [1] وقيمة الشعر تكمن في الخيال الشعري، إذ يعد القوة المبدعة الأساسية لكل شاعر كما أنه يعد قوة ايجابية موصلة ومدركة، والشعر يحتاج إلى أن يكون خلقا خياليا وتلك ميزة الأدب لأن ذلك ينعدم في النص التاريخي أو الفلسفي أو العلمي [2] .

وإذا عدنا إلى قصائد الشعراء التي تُعنى بهم هذه الدراسة نجد أنهم اعتمدوا في بناء صورهم على الأدوات البلاغية القديمة، وإن كانت القدرة على قول الشعر ونظمه تتفاوت من شاعر لآخر فهي ظاهرة فنية عامة موجودة في كل العصور، ومن أهم ما يلاحظ كذلك أن الشعر قد حافظ عندهم على أسس بلاغية وفق الأنماط القديمة من تشبيه واستعارة وكناية ...

أ- التشبيه

التشبيه هو التمثيل [3] ويعرفه ابن رشيق في العمدة بأنه «صفة الشيء بما قاربه و شاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة »[4] ويرى أحمد الهاشمي في جواهر البلاغة أن التشبيه هو مشاركة أمر لأمر في معنى بأدوات معلومة، وأركانه أربعة مشبه ومشبه به ويسمّيان طرفي التشبيه، ووجه الشبه وأداة التشبيه [5].

والتشبيه في أبسط معانيه هو أن يشترك المشبه والمشبه به في صفة أو أكثر تجمع بينهما أداة وهذه الأداة تتنوع بين الحرف والاسم والفعل، كما أنها تغيب في التشبيه البليغ، وللصورة التشبيهية فائدة تكمن في تقريب الشيء المشبه من فهم السامع وتوضيحه له على حد تعبير ابن رشيق الذي يقول: «التشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الأغمض إلى الأوضح ويقربان البعيد » [6] .

ولقد تنوعت المواضيع التي فسح فيها الشعراء النازحون إلى القيروان المجال لخيالهم، فكان شعرهم يحفل كثيرا بالصور الشعرية الفنية التي زادته بيانا ومنحته قيمة أدبية وتوزعت هذه الصورة على مختلف الموضوعات أين تصدرتها الصور التشبيهية، وسنعرض بعض النماذج لهذه الصور .

([1]) **ينظر : د/محمد مفتاح** : تحليل الخطاب الشعري ، ص 81 .
([2]) **ينظر : د/ عبد الرحمن حجازي** : الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي ، ص 205 .
([3]) **ابن منظور** : اللسان ، ج2 ، ص 166 .
([4]) **ابن رشيق** : العمدة ، ج1 ، ص 286 .
([5]) **ينظر : أحمد الهاشمي** : جواهر البلاغة ، ص 200،201 .
([6]) **ابن رشيق** : العمدة ، ج1 ، ص 287 .

ومن ذلك يقول بكر بن حماد وهو يتأمل القبور :

فبرزَ القومُ وامتدَّتْ عسَاكِرُهــم   كما يُوافُوا لِيقاتٍ وميعادِ [1]

فشبه الشاعر جموع العساكر وهي تنتظم في يوم استعراض باجتماع الناس يوم البعث والنشور، وقد ربط بين المشبه والمشبه به بحرف التشبيه كما، و قد استعمل حرف التشبيه كأن في صورة أخرى يصف فيها الشمس عندما تظهر وسط الغيوم الكثيفة فيقول :

تبدُو من الغَيمِ إذا ما بَـــدتْ   كأنَّهَا تُنشرُ من تَخْتِ [2]

فجسدها في صورة حسناء تستيقظ من نومها وهي ملتفة بغطائها، ويرسم في صورة أخرى صفات القوة والشجاعة قائلا :

وكانَ في الحَربِ سَيفًا صارمًا ذكرًا   ليْثًا إذا لقِيَ الأقْرانُ أقْرانَا

صِهْرُ النَّـــبي ومَولاهُ وناصِـــرُه   أضْحَتْ منَاقِبُه نُورًا وبُرهَانَا [3]

وفي هذين البيتين مجموعة من المقارنات ذات الدلالة المشتركة فقد شبه الممدوح الذي هو علي بن أبي طالب بالسيف القاطع المصنوع من أجود المعادن الذي يستأصل به الأعادي في المعارك، كما جعل منه أسدا عند ملاقاة الأقران لما يتمتع به من كفاءات قتالية جاعلا منه رمزا للشجاعة، كما يشبه في البيت الثاني أفعاله الكريمة بالنور موضحا أخلاقه الفاضلة التي هي من أخلاق النبي النيرة كما أشار في الشطر الأول، و في صورة أخرى مركبة مفعمة بالخيال والجمال يقول :

وكُلُّنا واقفٌ منها على سفرٍ   وكلنَّا ظَاعِنٌ يَحْدُو به الحَادِي [4]

وهذا النوع من التشبيه يمتاز بالقوة و الجمال والفعالية مما يجعل القارئ يركز جيدا لفهم معالم هذا التمثيل، وفي هذا التشبيه التمثيلي مثّل فيه الإنسان بمسافر، والحادي من ورائه يحثه على السير، وبنفس التمثيل يصور الشاعر ابن قاضي ميلة القرش داخل البحر فيقول :

لهُ داخلَ اليمِّ بطشُ الأسُودِ   وتَصْحَبُه مَشْيَةُ الأرْقَـــــم [5]

فيمثل حركته داخل البحر وهو يعانق الأمواج كالأسد الضاري وعندما يتحرك بهدوء فهو حية تنساب على قطعة رمل، وكلاهما مدمج الأعظم لا أطراف لهما تساعدهما على المشي، وفي صـــورة أخـــرى اعتمد في بنائها على تشبيه المحسوس بالمحسوس يقول الشاعر عبد الله بن محمد الجُراوي :

على رأسِهِ التَّاجُ مُسْتَشْرِفًا   كتاجِ ابن هُرمز في المهرجَانِ

([1]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 81 .
([2]) **المصدر نفسه** : ص 61 .
([3]) **المصدر نفسه** : ص 63 .
([4]) **المصدر نفسه** : ص 81 .
([5]) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 213 .

وقامَ به ذنبٌ معجـــــبٌ   كباقةِ زهرٍ بدتْ من بنَــــانِ [1]

يوظف الشاعر عدة صور تشبيهية وهو يدقق في وصف أعضاء هذا الطائر، فيجعل منه غاية في الجمال والملاحة فجعل من الرّيش الذي يعلو رأسه كتاج الملوك أمام الاحتفال، فالملك رمز بتاجه الملفت للانتباه و الديك سيد في حظيرته، كما شبه ذنبه بباقة الزهر التي تحمل أزهارا بمختلف الألوان، وهذه صور بسيطة اعتمدها الشاعر بشكل أساسي لتشخيص أعضاء هذا الطائر وتوضيحها،ويقول ابن هانئ الأندلسي في صورة أخرى:

قامتْ تميسُ كما تدافعَ جدولٌ وانْسَابَ أيْمٌ في نَقًا يتَهيَّلُ

وأتتْ تُزَجي رِدْفَهَا بقَوامِــــهَا   فتأطَّر الأعلى وماجَ الأسْفَلُ [2]

واعتمد الشاعر في هذا البيت على الصور البسيطة لوصف المرأة من شدة أثر الحب في أعماقه و تتمثل هذه الصور في (كما تدافع جدول) و(انساب أيم) وهي تشبيهات استوحاها من الطبيعة التي تنبض بالحياة والحركة، فشبه هذه الحسناء وهي تتمايل كما تتدافع مياه الجدول أو كانسياب الحية في مكان رملي، وكل هذه الحركات الطبيعية أراد الشاعر منها تشخيص مفاتن معشوقه .

وفي صورة أخرى لابن رشيق يعمد فيها إلى الصور المعنوية قائلا :

أَوْمَا إليَّ أنِ ائْتِنِي فأَتَيْتُه   والفجرُ يَرمُقُ من خلالِ نِقابِهِ [3]

يصور الشاعر في هذه المقطوعة الغزلية لقاءه بالمحبوب وانبهاره بحسنه وعبر عن ذلك في الشطر الثاني بهذه الصورة التشبيهية فشبه جمال وبهاء وجهه ونور محياه بالفجر الذي يعبر عن الإشراق المتدفق عبر نقاب محبوبه.

ب- الاستعارة:

تعتبر الاستعارة من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها، وينظر إليها ابن رشيق أنها لا تكون إلا للمبالغة وهي أفضل المجاز قائلا : «أفضل المجاز وأول أبواب البديع وليس في حلى الشعر أعجب منها وهي من محاسن الكلام إذا وقعت في موقعها، ونزلت موضعها » [4] .

---

(1) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 188 .
(2) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 166 .
(3) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 47 .
(4) **ابن رشيق** : العمدة ، ج1 ، ص 268 .

والاستعارة هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، والاستعارة ليست إلا تشبيها مختصرا لكنها أبلغ منه[1]وتتكون من ثلاثة أركان: مستعار منه، وهو المشبه به ومستعار له وهو المشبه ومستعار وهو اللفظ المنقول، وإذا ذكر فيها لفظ المشبه به فقط فتسمى الاستعارة تصريحية، وإذا ذكر في الكلام لفظ المشبه فقط وحذف المشبه به، وأشير إليه بذكر لازمة للمسمى تخيلا فاستعارة مكنية [2] وإذا كان التشبيه يعمل على تحقيق صفة من الصفات في شيء ما بصورة قوية، فيلاحظ في الاستعارة بعدا في التخيل الذي يعبر عن التأثر بمظاهر الحياة والأحياء تعبيرا حافلا بمختلف المشاعر والأحاسيس، يجعل المتلقى يحس بالمعنى ويتذوقه [3]

ولما نعود إلى الصور الشعرية المنتقاة من المدونة نجد أن صور الاستعارة أقل عددا من صور التشبيه، كما يظهر أن الشعراء قد استخدموا الاستعارات استخداما حسنا متنوعا في جميع الأغراض، وغلبت على الشواهد المختارة الاستعارات المكنية التي تهدف إلى تشخيص المعاني، ومن هذه الشواهد قول بكر بن حماد في قصيدة كتب في مطلعها :

ومؤنسةٍ لي بالعراقِ تركتُها وغصنُ شبابي في الغُصونِ نضيرُ [4] .

في الشطر الثاني يتذكر الشاعر شبابه الذي تركه في العراق وعاد شيخا إلى القيروان ثم إلى تيهرت، فقد شبه شبابه بالشجرة التي لها غصن نضير الذي يرمز إلى الحيوية والتجدد والنمو، وفي صورة أخرى له يعمد إلى مزج ما هو طبيعي بالإنسان فيقول :

فيا نسلِي بقاؤُك كان ذُخْـرًا وفَقدُكَ قد كَوَى الأكْبَاد كيًّا

فقد قطعَ البقاءَ غروبُ شمسٍ ومَطلعُها عليَّ يا أُخَـــيَّا [5]

ونلاحظ في البيت الثاني أن الشاعر يتحدث واصفا الدهر الذي تتكرر أيامه بغروب الشمس وطلوعها وتخيلَ أن لهذا الدهر يد تطال كل شيء فقطعت بقاء ابنه وهي من صفات البشر، كما يفهم أنه شخّص ظاهرتين طبيعيتين (الليل والنهار) وهما اللذان قضيا على بقاء ولده، وهذا أسلوب تشخيصي جعل عناصر الطبيعة تستمد أوصافها من الإنسان فالغروب والمطلع كل منهما كإنسان يقطع البقاء .

ويقول ابن هانئ في مقدمة غزلية من قصيدة طويلة في المدح منها :

جارتْ كمَا جارَ الزَّمانُ وريبُه وكلاهُما في صَرْفِه لا يعـــدِلُ

([1]) **ينظر : أحمد الهاشمي** : جواهر البلاغة ، ص 239 .

([2]) **ينظر : المصدر نفسه** : ص 241 .

([3]) **ينظر : د/ صلاح الدين عبد التواب** : الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مصر ، ط1 ،1995 ، ص 59 .

([4]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 83 .

([5]) **المصدر نفسه** : ص 87،88 .

أهْوِنْ علينَا بالخُطوبِ وصَرفِهَا فالدَّهْرُ يُدْبِـرُ بالخُطوبِ ويُقْبِلُ [1]

والصورة في البيتين تتمثل في استعارة أفعال هي من خصائص الإنسان تم إسنادها للجماد، فالظلم والإقبال والإدبار خصائص إنسانية استندت إلى الدهر أو الزمان الذي جعل منه يقبل ويدبر، وهي صورة جميلة استعملها الشاعر لتوضيح مدى تقلبات من يخالط الهوى، وفي صورة أخرى يقول ابن هانئ :

لم أحاربْ نورَ الهُدى بالديَّاجِي وحروفَ القُرآنِ بالتَّحريفِ [2]

يبدو من هذا البيت أن الشاعر يفخر بنفسه وأنه حريص مدافع عن كتاب الله وعن عقيدته وإمامه، وتبدو الصورة الاستعارية في مقابلاته المتكررة بين النور والظلام اللذان استعارهما للحق والباطل، و الهداية والتضليل في المساجلات التي كانت تدور بين الفواطم وأعدائهم من بني العباسي وبني أمية والروم .

و في صورة أخرى يقول ابن رشيق :

عزيزٌ يُبارِي الصُّبحَ إشْراقُ خدِّهِ وفي مَفْرِقِ الظَّلْمَاءِ منه نَسِيبُ [3]

والصورة البيانية التي اعتمدت على الاستعارة هي قوله: (يباري الصبح إشراق خده) فجعل إشراق محبوبه ينافس إشراق الصباح ضياء وبهاء، وهنا نلمس نوعا من المبالغة في التصوير، والصورة البيانية التي تعتمد على الاستعارة هي بناء لغوي يعتمد على الإيجاز ويشخص المعاني والأحاسيس ويكثف الدلالة ويثري الخيال وينوع الأسلوب، ويقول في صورة أخرى :

هواكِ أتَانِي وهُوَ ضَيفٌ أُعزُّه فأطعمتُه لحْمِي وأسْقَيتُه دَمِي [4]

والاستعارة في هذا البيت تتمثل في الألفاظ التالية: (أتاني، أطعمته، أسقيته) فجسد الشاعر الهوى وجعل منه ضيفا عزيزا أقبل على المتيّم فاحتفى به وقدم له لحمه طعاما ودمه شرابا، وتلك صورة مبالغ فيها تعود إلى حالة الشاعر من جهة وإلى فن الغزل من جهة أخرى وما يقتضي من مبالغات الشعراء، وهي في الحقيقة كلها صور جمالية تهدف إلى تشخيص الصفات والمبالغة والتعظيم، ويقول في صورة أخرى متفجعا :

يا شؤمَ طَائر أخبارٍ مُبَرَّحَـــةٍ يطيرُ قلبي لها من بين أضْلاعِي
ما زلتُ أفْزَعُ من يأسٍ إلى طمعٍ حتَّى تربَّع يأسِي فوقَ أطْمَاعِي [5]

والصورة البيانية التي تعتمد على الاستعارة هي ما جاء في قوله:(يطير قلبي، تربع يأسي) فالقلب أصبح طائرا يحلق في الهواء متفتقا من بين أضلع الشاعر، وقد جعل من اليأس شيئا محسوسا داهمه وغشى أحلامه

---

[1] **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 167 .
[2] **المصدر نفسه** : ص 443 .
[3] **ابن رشيق** : الديوان ، ص 41 .
[4] **المصدر نفسه** : ص 143 .
[5] **المصدر نفسه** : ص 98 .

وآماله، إن هذا اللون من الصور جسد أحاسيس الشاعر المختزنة بالآلام والشجون التي صنعتها تلك الأخبار المشؤومة التي نزلت على أسماعه، فبلا شك هي صور جميلة مشحونة بالعواطف والخيال

ج- الكناية:

الكناية لفظ مشتق من الستر، فيقال :كنيت الشيء إذا سترته، وجرى هذا الحكم في الألفاظ يستتر فيها المجاز بالحقيقة، فتكون دالة على الساتر والمستور معا، وتعرف الكناية بأنها «كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره»[1] وعادة ما يلجأ الشعراء إلى الصورة الكنائية بالتعبير عما لا يفصح عنه بلفظ مباشر .

والكناية بدورها طريقة من طرائق البلاغة وهي من الصور الأدبية التي لا يصل إليها إلا من لطف طبعه و صفت قريحته، وهي كما يدل اسمها تعمل على ستر المعنى داخل صدفة، فلا يتم الوصول إليه إلا بعد شقها وكل تستر يعتبر ميزة فنية لأن بالمقابل كل توضيح أو تصريح هو ميزة علمية، وهي بما فيها من تستر وإخفاء لا تحيد عن الإبداع الفني، فهي تستمد حيويتها من التعبير المجازي .

وشكل الجملة الذي تتخذه الكناية في التعبير يجعل المعنى الثاني المكنى عنه مختفيا وراء الصورة لا يتم الوصول إليه إلا من خلالها، وكل تعبير من خلال الصورة هو ذاته أبلغ وأجمل من التعبير المباشر، ومن هنا كان دور الكناية الفني[2] .

وتأتي الكناية في الترتيب الثالث من حيث كثافة الصور البلاغية في المدونة بعد الصور التشبيهية والاستعارية، ولقد اهتم الشعراء ـ الذين تناولهم البحث بالدراسة ـ بالكناية وشكلوا على أساسها صورا في غاية الجمال، حملت أفكارا ومعاني في مختلف موضوعاتهم من رثاء وفخر ومدح وخمر وغزل وغيرها...

ومن هذه النماذج ما جاء في رثائية بكر بن حماد الذي يقول فيها :

لو ينطقُونَ لقالُوا :الزَّادَ ويْحَكُمْ   حلَّ الرَّحيلُ فما يَرجُو المُقِيمُونَا[3]

تظهر الكناية من خلال هذا البيت في الشطر الأول في قوله: (الزاد ويحكم) وهي كناية عن الحسنات التي تنفع الإنسان في الآخرة، وفي الشطر الثاني في قوله: (حلّ الرحيل) وهي كناية عن الموت، وهذه الصور من شأنها أن تنوع الدلالة وتشخص الأفكار، فهي صنعة بيانية قد اتسمت بالسحر والجمال .

([1]) **د/ شعيب محي الدين سليمان فتوح**:الأدب في العصر العباسي خصائص الأسلوب في شعر ابن الرومي،دار الوفاء، مصر ، ط1 ، 2004 ، ص 226.

([2]) **ينظر : المرجع نفسه** : ص 231 .

([3]) **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 90 .

كما يجسد الشاعر في صورة أخرى نوعا من الإظلام نتج عن حالة اليأس التي يمر بها فيقول :

أحْبُو إلى المَوتِ كما يَحْبُو الجَمَلُ　　　قد جاءني ما ليسَ فيهِ حِيَلُ [1]

فالصورة تشخص الفناء الذي يلاحق الإنسان خاصة من تقدم به العمر، وهي كناية عن العجز الذي هو من مقدمات الموت الذي ينتظر تسارع خطى الإنسان، فالبيت صناعة بيانية عمل فيه الخيال وصور ما كان ينتاب الشاعر من آلام وأحاسيس .

وهذا الشاعر ابن أبي الرجال يفخر بقومه قائلا :

يا آلَ شَيْبَانَ لا غارتْ نُجومُكم　　　ولا خَبَتْ نَارُكم من بعدِ تَوقِيدِ [2]

فهذه الصورة التي اعتمد عليها الشاعر توظف الكناية في قوله: (لا غارت نجومكم) فهي كناية عن عدم أفول وتلاشي سؤدد قومه وتأكيد على أن تظل نجوم عزتهم ساطعة إلى الأبد، وفي قوله (ولا خبت ناركم) وهي كناية عن دوام صفة الكرم الذين هم أهل له والذي يعتبر من مكارمهم وفضائلهم التي يتصفون بها، ويصف الخمر في هذه الصورة فيقول :

وصَفْرَاءُ تحكِي الشَّمسَ من عهْدِ قيصرٍ　　　يَتُوقُ إليــــهَا كلُّ منْ يَتَكـــــرَّمُ [3]

فقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الكناية في التعبير عن شيء لم يفصح عنه بلفظ مباشر وهو الخمر الذي وضع مكانه (صفراء تحكي الشمس)، واقتصر بذكر لونها، وهي كنايات معهودة في الشعر العربي القديم وليست من ابتداع الشاعر، وغير بعيد عن هذه الصورة يقول ابن رشيق :

خَلوْنَا بها نَنْفِي القَذَى عن عيونِنَا　　　بلُؤْلُؤَةٍ مملُوءةٍ ذهـــــبًا سَكَـــــبَا [4]

وقد تستر عن ذكر الخمر، وكنى بها مستعملا (لؤلؤة مملوءة ذهبا)، ويقول الشاعر ابن قاضي ميلة في قصيدة يمدح فيها صاحبه :

وإذا احْتَبَى في شَمْلةٍ ضربتْ　　　بيضُ النَّوالِ جماجِمَ الفَقْــرِ
ينْدَى وأيْدِي المُزْنِ جامِـــدَةٌ　　　ويَلِينُ عندَ قَسَاوةِ الدَّهْـــــرِ [5]

ففي الشطر الثاني من البيت الأول كناية عن بالغ العطاء والكرم اللذين يتمتع بهما الممدوح وهو ما عبر عنه بقوله (بيض النوال)، وعبارة (جماجم الفقر) كنى بها عن أهل البخل والإمساك، وهم دائما مستصغرين أمام أهل الكرم والجود، كما يتضمن البيت الثاني كلمات الندى والمزن وهي كنايات عن الكرم، ووظف كل هذا للتعبير عن قوة وشجاعة الممدوح

---

(1) **المصدر السابق** : ص 92.
(2) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 150 .
(3) **ابن رشيق** : العمدة ، ج2 ، ص 110 .
(4) **ابن رشيق** : الديوان ، ص 38 .
(5) **د/ شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، ص 135 .

وفي صورة أخرى يقول الشاعر ابن هانئ الأندلسي:

فتربَّصُوا فاللّهُ مُنْجِزُ وَعْدِه   قَدْ آنَ للظَّلَمَاءِ أنْ تتكشَّــــفَا [1]

ففي الشطر الثاني الصورة الكنائية واضحة في عبارة (آن للظلماء أن تتكشفا) وهي كناية عن سنين الظلم والطغيان التي عاشتها الأمة قبل أن يدركها ممدوح الشاعر، ويقول الشاعر عبد الله بن محمد الجُراوي في وصف ديك:

وكَائِنٍ نَفَى النَّومَ عن عُتْرَفَانِ   بَدِيعَ المِلاَحَة حُلْوَ المَعَانِــــي [2]

وتظهر الكناية في الشطر الثاني من هذا البيت في عبارة (حلو المعاني) فكنّى بها الشاعر عن حسن صوت الديك الذي أبدع في تصويره .

من خلال هذه النماذج التي ساقها البحث، فقد ظهرت الصور الشعرية معبرة عن أفكار الشعراء ومترجمة لأحاسيسهم، وصورت تجاربهم وعواطفهم، ويمكن القول أن الشعراء وظفوا في قصائدهم صورا بكل بأنواعها البيانية من تشبيه واستعارة وكناية، مجسدين بعض القضايا المعنوية ومطلقين العنان لخيالهم لدخول عالم الفكر وعالم العواطف وما تختلجه أنفسهم، فصوروا بذلك حياتهم وحضارتهم .

ومن خلال هذه الدراسة التي ركز فيها البحث على الجوانب الجمالية عند الشعراء لاحظنا كثرة الصور الحسية وخاصة البصرية منها، وهذا لشدة وقعها على المتلقي واستجابته نحوها، كما كانت الصور البيانية حاضرة مع تسجيل كثرة الصور التشبيهية لبعدها عن الغموض وإيثارها الوضوح، كما اجتمعت الصور الحسية والبيانية في قصائد شعرائنا،مبدعين في ذلك أجمل الصور .

---

(1) **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان ، ص 115 .

(2) **حسن بن رشيق** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص 218 .

الخاتمة

إن شعر النازحين من المغرب الأوسط إلى القيروان قبل خرابها منتصف القرن الخامس الهجري، وافق عصر الازدهار الأدبي والثقافي حسب تقسيم الأستاذ رابح بونار في كتابه " المغرب العربي تاريخه وثقافته " و هذا العصر شهد الدولة الرستمية ونهايتها، وقيام الدولة الفاطمية بالمغرب، ثم تطور الوعي السياسي لأبناء المغرب الذي تكلل بظهور دولة صنهاجة سنة 362 هـ حتى انهيارها على أيدي بني هلال، وهذه الفترة قد تكاملت من الناحية الاجتماعية والفكرية، وكان لها تأثير على الآداب .

وشعر أولئك يعد جزءا لا يتجزأ من الشعر العربي القديم في مقوماته الفنية، ولا يختلف عنه إلا في بعض الملامح التي تخص البيئة المغربية وظروف حياتها التي وجد في ظلها وعبر عنها، وقد استلهم الشعراء كثيرا من المعاني والألفاظ من النماذج الشعرية القديمة التي اطلعوا عليها وأعجبوا بلغتها وأسلوبها وصورها وتأسّوا بها في كثير من الأغراض التي عالجوها .

1-لقد أكثروا من موضوع المدح وخصوا به الحكام وأثنوا عليهم بما يحبون أن يمدحوا به من صفات كالخلق الرفيع والرأي السديد والشجاعة والإقدام والكرم، كما مدحوا فيهم عظيم انتصاراتهم وأصالة نسبهم، مما جعلهم يحتفظون كثيرا بسمات القصيدة العربية، وكانت بعض أوصافهم مفعمة بأساليب المبالغة لاسيما عند الشاعر ابن هانئ وما استخرجه من قاموسه المذهبي لأجل نصرة أهل الشيعة وسلوك أئمتهم، كما نلمس في مدحهم اختيار بعض الرموز ذات البعد الحضاري، فقد وظفوا كثيرا من الكلمات الرامزة إلى العراقة والشموخ والثبات وقاربوها للممدوح لإعلاء شأنه والرفع من مقامه، ولم تخلُ موضوعاتهم في هذا الغرض من صفات ومعان لها علاقة بالدين الإسلامي، كما لم يتخلص مدحهم من الدوران في فلك التكسب .

2-أما موضوع الوصف فقد نهل من التراث الشعري القديم صوره و تشابيهه وأخيلته، وكانت أكثر قصائدهم في هذا الغرض موافقة قول ابن رشيق في عمدته: «الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف » لأن الوصف يعتبر من مقومات الشعر وركيزته التي يستند إليها في جميع موضوعاته، وأما عن الطبيعة فقد شغفوا بها، وأبدعوا في تصويرها، فرسموا مشاهد الطبيعة الصامتة، فوصفوا بساتين المغرب ورياضه واهتموا بالظواهر الطبيعية فوصفوا الصبح والليل والمزن والبرق وغيرها من تقلبات المناخ، كما اهتموا بوصف الطبيعة الحيوانية، وكان من جملة وصفهم وصف الخيل والفيل والقرش والطيور وغيرها، كما اهتموا بوصف الطبيعة النباتية التي كانت تزين محيطهم بأشجارها وأزهارها، ووصفوا ما كان يدل على تطورهم الحضاري وما صنعته أنامل الإنسان المغربي من أساطيل حربية وسيف وعود، مبدعين في ذلك صورا لعب فيها الخيال دورا كبيرا .

3-احتفظت عندهم المرثية بالموضوعات القديمة ومعانيها، والنص الرثائي المغربي يقتفي آثار القدامى وينسجم مع قصيدة الشعر العربي بكاء وتألما وتفجعا، ونظرا لما عاشته الحياة الثقافية والسياسية من منافسات مذهبية التي انعكست على الحياة العامة، وما خراب تيهرت والقيروان إلا نتيجة تلك الصراعات والحروب، وهذه

العوامل من أسباب توفير رثاء المدن لبروز دواعيه، وكان رثاؤهم للمدن من أشرف ما نظموا لأنه يصدر عن شعور صادق ووجدان يختلج بالحب والصدق، ولم يكن فيه تكلف أو صناعة، ونموذج رثاء تيهرت والقيروان نقل بصدق مشاعر الأسى والحسرة والمعاناة، ورسم صورة المدينة البائسة المخربة ومكانتها في نفس الشاعر .

4–لقد تخصص الشاعر بكر بن حماد في موضوع الزهد وسجل في شعره أحاديث ومعاني عن الموت والآخرة وتذكير الإنسان بمصيره المحتوم ودعوة الناس إلى التهيؤ والتزود لذلك اليوم العظيم، كما يدعو إلى الإنابة إلى الله والاستعداد للرحيل قبل فوات الأوان، واستعمل في ذلك لغة واضحة قريبة من الناس مستلهما كثيرا من ألفاظ ومعاني القرآن الكريم، وقد برزت الصورة الزهدية أكثر وضوحا عند هذا الشاعر واختفت عند غيره من الشعراء.

5–إن النماذج التي أوردها البحث وعلى قلتها تبين محافظة غرض الغزل على سمات الغزل القديم سواء ما تعلق بمنهجية القصيدة أو معانيها أو لغتها أو أسلوبها، وجاءت تجاربهم العاطفية متنوعة الشكل، فمنهم من اعتمد على التصوير الحسي ومنهم من جنح إلى التصوير المعنوي، وعبرت تجربتهم عن معاناة الحب وحرارة الشوق وعذاب الهجر، على الرغم من المقطَّعات الشعرية القليلة التي تناولت هذا الغرض .

6–وما ينطبق على غرض الغزل من قلة نماذجه ينطبق على غرض الهجاء، فلم نجد قصائد ترتقي إلى الهجاء الفني غير الذي يسميه النقاد " الهجاء السياسي المذهبي " الذي تمثل في قصيدتي بكر بن حماد التي هجا في الأولى ابن ملجم الخارجي قاتل الإمام علي كرم الله وجهه، وفي الثانية هجاؤه للشاعر دعبل الخزاعي الشيعي، كما نسجل هجاء ابن هانئ لأعداء مذهبه من بني أمية وبني العباس في قصيدة ذات طابع جدلي منافحا فيها عن عقيدته الإسماعيلية .

7– أما الفخر والاعتذار فاعتبرا في البحث من الموضوعات القليلة النماذج، ففي غرض الفخر لم نحصل إلا على مقطّعتين شعريتين: واحدة لابن أبي الرجال يفتخر فيها بقومه، والأخرى لابن هانئ يعتدّ فيها بنفسه، ويندرج هذا الفخر ضمن الفخر القديم الذي يفخر الشاعر فيه بنفسه أو بعصبيته، كما لم يرد موضوع الاعتذار إلا عند بكر بن حماد الذي اعتذر في قصيدة للأمير أبي حاتم الرستمي وانسجمت هي كذلك مع النمط القديم الذي يحمل طلب الصفح والرجاء والمغفرة .

8–وأما الخمريات فلم ينظم فيها الشعراء كثيرا، والنماذج المقدمة ما هي إلا مقطّعات أو نتف شعرية متناثرة أو ما جاء في مقدمات قصائد ابن هانئ مثلا، وفي ذلك وصفوا الخمرة على طريق القدامى فصوروا آنيتها وأشادوا بشربها وتذوقها، وكانوا مقلدين لسابقيهم من الشعراء الذين لم يتركوا لهم ما يبدعون في هذا الغرض، وقلّ الشعر في هذا الغرض كغيره مثل الهجاء والغزل عند بعض الشعراء، ربما يرجع ذلك إلى اعتبارات ـ كما يرى بعض الدارسين ـ منها طبيعة البيئة المغربية المحافظة وتمكن الوازع الديني في النفوس بالإضافة إلى سلطة

الفقهاء التي كانت قوية الجانب في الدول القائمة آنذاك .

9–أما من ناحية الدراسة الفنية فقد كشف البحث عن توظيف الشعراء للصورة الشعرية واعتمدوها كوسيلة فنية لتشخيص الأفكار والأحاسيس، فبرزت في شعرهم الصور الحسية بأنواعها البصرية والسمعية والشمية والذوقية ولم نحصل على نماذج ـ في حدود ما تم جمعه ـ على صور لمسية، كما وظفوا الصور البيانية بألوانها التشبيهية والاستعارية والكنائية، وكانت الصورة عندهم غنية بالخيال عميقة الدلالة جسدت تجربة الشاعر المغربي وحملت الصنعة القديمة وعبرت عما يحيط به .

10–وفي تشكيلهم للموسيقى الشعرية استعملوا بعض البحور كبحر الطويل والكامل والمتقارب والوافر التي تعتبر من أكثر البحور تداولا وشهرة، كما اعتمدوا على القوافي المطلقة، وتمسكوا بالروي الواحد في قصائدهم، وبذلك لم يخرجوا على النمط القديم لموسيقى الشعر العربي، كما اعتنوا بالموسيقى الداخلية، ووظفوا ألوانا من البديع كالجناس والتكرار والتصريع والطباق .

11–كما تطرق البحث إلى رصد قضية الإحالة التي برزت كظاهرة فنية في شعرهم بمختلف أنواعها التاريخية والدينية والأدبية، مما عززت انتماء شعرهم إلى التراث العربي الإسلامي .

وفي الختام ليس هذا الجهد إلا محاولة لاستثارة الأعماق وإبراز جزء من تراث الأمة الذي لم يلق حظه من الدراسة الكافية، وهدفي من وراء ذلك تقديم شيء ولو يسيرا يكون شاهدا على النبوغ المغربي القديم خاصة ما كان منه يحمل أثرا من تربتنا الطيبة، فإن وفقت في هذا فمن الله وحده وإن أخطأت الطريق فحسبي أنني اجتهدت.

المصـــادر والمراجـــع

*** القرآن الكريـــــم برواية ورش عن نافع .**

*** الكتـــــب :**

1- **ابن عذارى المراكشي**: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج .س . كولان و إ .ليفي بروفنسال دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1983 .

2- **ابن قتيبة** : الشعر والشعراء ،ج2، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ،دار المعارف ، مصر ، دط ، 1966

3- **ابن رشيق** : الديوان ،شرح صلاح الدين الهواري وهدى عودة، دار الجيل ،بيروت، لبنان، دط، دت .

4- **ابن منظور أبو الفضل جمال الدين** :لسان العرب ،دار صادر ،بيروت ،لبنان ، ط3، 1995 .

5- **ابن العربي المالكي**: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ج13، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط 1971 .

6- **ابن هانئ الأندلسي** : الديوان، شرح أنطوان نعيم، دار الجيل، بيروت ،لبنان ،ط1 ،1996 .

7- **إبراهيم مراد**: مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط1، 1986.

8- **إبراهيم أنيس** :موسيقى الشعر ،مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، ط6 ، 1988 .

9- **الإمام الزوزني**: المعلقات السبع ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، دط ، 2007 .

10- **إيليا حاوي** :فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان ،ط3، 1980.

11- **أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي** :رياض النفوس ،ج1، تحقيق ومراجعة بشير البكوش ومحمد لعروسي ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،لبنان ، ط2 ، 1994 .

12- **أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق** :قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق د/عبد الله العلي الزيدان ود/عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990.

13- **أبو الفتح عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني** :الملل والنحل ،تعديل وإشراف صدقي جميل العطار دار الفكر ، بيروت ،لبنان ، ط2 ، 2002 .

14- **أبو عبد الله البكري**: المسالك والممالك، ج2، تحقيق د/جمال طلبة، دارالكتب العلمية، بيروت ،لبنان ،ط 1 ، 2003.

15- :المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ،الجزائر ومكتبة المثنى، بغداد، د ط ،1857 .

16- **أبو عبد الله محمد الصنهاجي المدعو ابن حماد الصنهاجي**: أخبار ملوك وأمراء بني عبيد وسيرتهم ،تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د ط،1984.

17- **أبو علي الحسن بن رشيق** : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1981 .

18- **أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني**: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق4،مج1،دط،ط ت.

19- **أبو نواس** : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ،دط ، 2008 .

20- **أبو العتاهية** : الديوان ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 2004 .

21- **أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط**: عصر القيروان،الشركة التونسية لفنون الرسم،تونس،ط1، 1973 .

22- **أحمد بن أبي الضياف** :إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط2 ، 1976 .

23- **أحمد الهاشمي** :جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ضبط وتحقيق يوسف الصميلي ،المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، لبنان ،ط1 ، 1999 .

24- **أحمد أمين** : ضحى الإسلام ، ج3 ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ،ط7 ، د ت .

25- **أحمد يزن** : النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرباط المغرب ، د ط ، د ت .

26- **أحمد محمد النجار**:أساليب الصناعة في الشعر الجاهلي، الصدر لخدمات الطباعة ، مصر ، ط1 ، 1966 .

27- **أحمد خالد** : ابن هانئ ،ق1 ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، د ط ، 1976 .

28- **الأعشى** : الديوان ، دار بيروت للطباعة ، بيروت ، لبنان ، د ط ، 1980 .

29- **أشرف محمود نجا** : قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ،دار الوفاء ط1 ، 2003 .

30- **أسامة منقذ**:البديع في نقد الشعر،تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد،الإدارة العامة للثقافة،القاهرة،مصر ، دط ، 1900 .

31- **بحاز إبراهيم بكير** : الدولة الرستمية ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر ، ط2 ، 1993.

32- **بشير خلدون** : الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر دط ، 1981 .

33- **البحتري** : الديوان ، تحقيق حسن كامل الصوفي ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1972 .

34- **جابر عصفور** : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،دار المعارف،القاهرة ، مصر ، د ط ،د ت.

35- **جودت عبد الكريم يوسف**:العلاقات الخارجية للدولة الرستمية،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،دط،1984

36- **جورج غريب**:شعر اللهو والخمر تاريخه وأعلامه الأعشى الأخطل أبو نواس،دار الثقافة،بيروت،دط،1983.

37- **حسن بن رشيق القيرواني** : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، **جمع** وتحقيق محمد العروسي المطوي و بشير البكوش،الدار التونسية للنشر والتوزيع،تونس،والمؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،ط1،1986.

38- **الحافظ أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقي** :البداية والنهاية ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ،ط1 ، 1988 .

39- :لسيرة النبوية،ج4،تحقيق مصطفى عبد الواحد،دار المعرفة،بيروت،لبنان،دط،1971.

40- : تفسير القرآن ،تحقيق سامي بن محمد سلامة ،دار طيبة ،دمشق، ط2 ، 1999 .

41- **حازم القرطاجني** : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1982 .

42- **حسن عبد الجليل يوسف** : موسيقى الشعر العربي ،ج1،مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، دط ، 1989 .

43- :الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص،دار الوفاء،الإسكندرية،مصر،ط1،2007.

44- **يحي بن شرف الدين النووي** : شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، د ط ، 1982 .

45- **كعب بن زهير** : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1998 .

46- **لجنة من أدباء الأقطار العربية** : الرثاء ، دار المعارف ، مصر ، دط ، د ت .

47- **محمد بن محمد الأندلسي** : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، ج1، تحقيق محمد الحبيب الهيلة الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ط ، د ت .

48- **محمد بن عمرو الطمار**: تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، دط ، 1984 .

49- :تاريخ الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ، د ط ، 2006 .

50- :الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1983

51- **محمد محمد زيتون** : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية،دار المنار،القاهرة، مصر،ط1، 1988.

52- **محمد عيسى الحريري** :الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ، دار القلم ، الكويت ، ط3 ، 1987.

53- **محمد علي دبوز** :تاريخ المغرب الكبير ،ج2، مصر ، ط1 ، 1963 .

54- **محمد بن عميرة**:دورزناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي،المؤسسة الوطنيةللكتاب ،الجزائر ،دط ،1984.

55- **محمد بن رمضان شاوش** : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ،المطبعة العلوية ، مستغانم ، الجزائر ،ط1 ، 1966 .

56- **محمد زغلول سلام**:مدخل إلى الشعر الجاهلي دراسة في البيئة والشعر،منشأة المعارف،مصر، د ط ، 1995 .

57- **محمد رضوان الداية** : في الأدب الأندلسي ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 2000 .

58- **محمد الخضري بك** :محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، مراجعة د/محمد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، لبنان ، دط ، 2005 .

59- **محمد محمد حسين** : الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، مكتبة الأدب،الإسكندرية ، مصر ، دط ،1947

60- **محمد مفتاح** : تحليل الخطاب الشعري ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3، 1992

61- **محمد غنيمي هلال** : النقد الأدبي الحديث ،دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ،دط ، 1973 .

62- **محمد طه الحاجري** : مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية ، دار النهضة العربية بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1983 .

63- **محمد عزام** : النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي ، منشورات إتحاد كتاب العرب ، دمشق سوريا ، دط ، 2001 .

64- **محمد بنيس** : ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1979 .

65- **ممدوح حسين** :إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي ، دار عمان للنشر ،الأردن،ط1، 1996 .

66- **محمود إسماعيل عبد الرزاق** : الخوارج في بلاد المغرب ، دار الثقافة ، المغرب ، ط2 ، 1985 .

67- **موسى لقبال** : المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القيروان حتى انتهاء ثورات الخوارج ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، دط ، 1984.

68- **مسلم بن الحجاج بن مسلم** :صحيح مسلم ،شرح النووي ،تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة ، مج 2، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1982 .

69- **المتنبي** : الديوان ، شرح علي العسيلي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،بيروت ،لبنان،ط1، 1997.

70- **مبارك بن محمد الميلي**:تاريخ الجزائر في القديم والحديث،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،دط، 1976

71- **مختار عطية** : بحوث تطبيقية في الأدب العربي ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، مصر ، ط1، 2002 .

72- **مصطفى هدارة** : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف ، مصر ، دط ، 1963

73- **مصطفى الشكعة**:المطالعات الإسلامية في العقيدة والفكر،دار الكتاب المصري،القاهرة،مصر،ط2، 1983 .

74- **امرؤ القيس** : الديوان ، تحقيق ابن أبي شنب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د ط ، 1974

75- **سعد بوفلاقة** : النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى ،وحدة بن بولعيد، الجزائر ،ط1، 1994.

76- **سامي الدهان** : المديح ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط5 ، 1992.

77- **سعد زغلول عبد الحميد** :تاريخ المغرب الكبير ، الإسكندرية ، مصر ، دط ، 1979 .

78- **عبد الرحمن بن خلدون** :تاريخ ابن خلدون،دار الكتب العلمية،بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2003.

79- : المقدمة ، دار الفكر والطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان ،ط1، 2006.

80- **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي** :تاريخ الجزائر ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1965.

81- **عبد الرحمن حجازي** : الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي دراسة أسلوبية ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2005 .

82- **عبد العزيز الثعالبي** : تاريخ شمال إفريقية منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية ، جمع وتحقيق د/أحمد بن ميلاد و محمد إدريس،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ط2، 1990 .

83- **عبد العزيز فيلالي** : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، دط ، 1982 .

84- **عبد العزيز قلقيلة**:النقد الأدبي في المغرب العربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر، د ط ، 2007 .

85- **عبد العزيز عتيق** : الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ،ط2، 1976 .

86- **عبد العزيز نبوي** : دراسات في الأدب الجاهلي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ط2 ، 2003 .

87- :محاضرات في الشعر المغربي القديم،ديوان المطبوعات الجامعية،د ط ، 1983.

88- **عبد الواحد المراكشي** : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق د/محمد زينهم محمد عزب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، د ط ، د ت .

89- **عبد الملك مرتاض** : الأدب الجزائري القديم دارسة في الجذور ، دار هومة ، الجزائر ، د ط ، 2002 .

90- **عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق** : مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، دار الفكر للطباعة ، عمان الأردن ، ط 3 ، 2000 .
91- **عبد الفتاح صالح نافع**:الصورة في شعر بشار بن برد،دار الفكر للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،دط، 1983 .
92- **علي البطل**:الصورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني الهجري،دار الأندلس،بيروت،لبنان،ط 3، 1983
93- **عاطف جودت نصر**:شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي،دار الأندلس للطباعة،دط،د ت .
94- **عمر فروخ** : تاريخ الأدب العربي ، ج4، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1981 .
95- **عائشة حسن فريد**:وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية،دار قباء،القاهرة،مصر،دط، 2000
96- **عز الدين إسماعيل**:التفسير النفسي للأدب،دار العودة ودار الثقافة،بيروت،لبنان،دط ، 1962 .
97- **عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير**:الكامل في التاريخ،دار صادر ودار بيروت،بيروت،لبنان ، د ط ، دت .
98- **علي محمد الصلابي** : الدولة الفاطمية ، مؤسسة اقرأ ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2006 .
99- **عصام الدين عبد الرؤوف الفقي**:تاريخ المغرب والأندلس،مكتبة نهضة الشرق،القاهرة،مصر ، دط ، دت .
100- **العربي دحو** : مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دط ، دت.
101- :الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، دط ، 1994 .
102- **فوزي عيسى**:العروض العربي ومحاولات التطور والتجديد فيه،دار المعرفة،الإسكندرية،مصر،دط، 1998
103- **صفي الرحمن المباركفوري** : الرحيق المختوم ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2006 .
104- **صالح فركوس**:تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال،دار العلوم،الجزائر ، دط، 2005 .
105- **صلاح الدين عبد التواب**:الصورة الأدبية في القرآن الكريم،الشركة المصرية العالمية للنشر،مصر،ط1، 1995.
106- **قدامة بن جعفر**:نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،دط ، دت
107- **رابح بونار** : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،ط2، 1985.
108- **رشيد بورويبة**:الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دط ،1977
109- **شوقي ضيف** : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، دار المعارف ، مصر ، ط1 ، 1995.
110- : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، 1960 .
111- : تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ،دار المعارف ، مصر ، ط5، 1973 .

112- **شكري فيصل** :تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2 ، 1983 .

113- **شعيب محي الدين سليمان فتوح** : الأدب في العصر العباسي خصائص الأسلوب في شعر ابن الرومي ، دار الوفاء ، مصر ، ط1 ، 2004 .

114- **الشاذلي بويحي** : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ، مج 2،نقله إلى العربية محمد العربي عبد الرزاق ، دط ، د ت .

115- **تقي الدين أحمد بن علي المقريزي** : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ،ج2،تحقيق د/محمد حلمي محمد أحمد ، مطابع الأهرام التجارية ،القاهرة ، دط ، 1966 .

116- **الخنساء** :الديوان، إعداد محمد عبد الرحيم ، دار الراتب الجامعية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2008 .

117- **غازي طليمات عرفان الأشقر** : الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه ، دار الفكر ، دمشق ،سوريا ط1 ، 2002 .

*** الرسائــــــل** :

1- **علي عالية** :شعر الفلاسفة في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، باتنة ، 2005 .

2- **محمد احدادن** :الحياة الأدبية والثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، الجزائر، 2006 .

3- **ليلى قجوج** :النزعة الزهدية في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مذكرة ماجستير في الأدب العربي المغربي القديم، باتنة ، 2006.

*** الدوريـــــات:**

1- **مجلة الثقافة الجزائرية**: السنة التاسعة، العدد التاسع والأربعون، الجزائر، فبراير، 1979 .

2- **مجلة الفكر التونسية** : السنة العشرون، العدد الثامن، تونس، 1975 .

فهرس الموضوعات

تراجـــــــم الشعــــــــــــراء

1- بكر بن حمـــــــاد

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل(قيل بن سهر) بن إسماعيل الزناتي أصلا التاهرتي نشأة ودارا و وفاة، ولد حوالي سنة 200 هــ ، وتلقى بها دروسه الأولى على يد مشاهير علمائهـا وفقهائها وكبار محدثيها ، في سنة 217 هــ هاجر إلى القيروان وتزود بديارها علما وأدبا، ومنها رحل إلى المشرق للغرض نفسه، ومر على مصـر وأقـام ببغـداد واتصـل بخليفتهـا العباسـي المعتصـم ومدحه ، واحتك بشعرائها ، عاد إلى القيروان سنة 274 هـ وتصدر بهـا التـدريس، وظـل يـتردد بين القيروان و تاهرت وقد مدح الأمراء و الخلفاء في المشرق و المغرب و أغدقوا عليه الصلات حتـى سنة 295 هـ أين خرج من القيروان بسبب وشاية منافسيه لدى أمـير بـني الأغلـب، فرجـع إلى تاهرت و في الطريق اعترض سبيله اللصوص وقتلوا ابنه عبد الرحمن وجـرح هـو جراحـا أودت بـه بعد ذلك سنة 296 هـ بمسقط رأسه ترك مجموعـة شـعرية جمعهـا الأسـتاذ محمـد بـن رمضـان شاوش في كتاب بعنوان الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد، في هذه القصائد مدح الإمام علي كرم الله وجهه و هجا عمران بن حطان و عبد الرحمن بن ملجم و دعبل الخزاعـي و رثـا ابنـه الفقيـد رثـاء حارا.

(ينظر: كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغـرب، و كتـاب الـدر الوقـاد في شـعر بكـر بـن حماد، و كتاب تاريخ الادب العربي لعمر فـروخ، و كتـاب تـاريخ الأدب العربـي الجـزء الخـاص

بعصر الدول و الإمارات لشوقي ضيف) .

2- ابن هانـــئ الأندلـــسي

هو أبو القاسم محمد بن هاني الازدي، انتقل به أبوه إلى الأندلس ونشأ باشبيلية ومدحـه ونـال عنده حظوة ، غير أنه مال إلى اللهو و المجون و غال في تشيعه و اعتقد في إمامـة الفـاطميين، كمـا غال في تحرره الديني حتى اتهم بالزندقة، ونقـم عليـه أهـل اشـبيلية و همـوا بقتلـه، فـأوعز إليـه صاحبها أن يغادر المدينة إلى أن تهدا الأمور، فقصد المغرب وعاش مدة في الجزائر عنـد عائلـة ابـن حمدون بالمحمدية (المسيلة) ثم طلبه المعز لدين الله الفاطمي، فانتقل إلى المهدية بتونس ومدح أمراء وخلفاء الفاطميين و نال حظوة عندهم ، ولما انتقل المعـز الفـاطمي إلى مصـر بعـدما فتحهـا قائـده جوهر الصقلي تخلف الشاعر لأخذ عياله و متاعه و يلحق به و فيما هو في طريقـه إلى مصـر توقـف ببرقه بليبيا عند رجل استضافه وتقول الروايات أنه خرج من تلك الدار وهو في حالة سكر، و نـام في الطريق فعثر عليه ميتا و كان ذلك سـنة 362هــ تـرك ديوانـا شـعريا معتـبرا يحـوي مختلـف الأغراض الشعرية يهـيمن عليهـا المـدح و خاصـة مـدح معـز الدولـة الفاطميـة حتـى سمـي مدحـه بالمعزيات. (ينظر: كتاب نفح الطيب للمقري، و كتاب المغرب في بلاد المغرب لابن سعيد و كتاب مطمح الأنفس و مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس للفتح بن خاقان، و كتـاب تـاريخ الادب لعمـر فروخ، وكتاب تاريخ الادب لبروكلمان، و ديوان محمد بـن هـانئ شـرح أنطـوان نعـيم، و كتـاب القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية لمحمد محمد زيتون) .

3- ابن قاضــــي ميـــــلة

هو أبو عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة، ولد في شمال قسنطينة و جنوب شرق بجاية بمنطقة تسمى ميلة، و نشا بها في بيت مشهود له بالعلم و الأدب و كان أبوه قاضي البلاد و لذلك اشتهر بهذا الاسم، عاش في القرن الرابع الهجري و هو شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة و يكثر الزجر و العيافة و يسلك طريق ابن أبي لربيعة و أصحابه في نظم الأقوال و الحكايات.

(ينظر أنموذج الزمان في شعراء القيروان لحسن بن رشيق، و كتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام الشنتريني، و كتاب تاريخ الادب العربي القسم الخاص بعصر الدول و الإمارات لشوقي ضيف) .

4- عبد الكريـــم النهشـــلي

هو عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي ولد بالمحمدية (المسيلة) و قضى بها أيام شبابه وأخذ منها مبادئ العلوم الأولى، ثم تاقت نفسه للمزيد من الدراسة و التخصص، فهاجر إلى القيروان، و كانت آنذاك حاضرة العلم و الثقافة و الأدب و مركز الإمارة، فوجد بها ترحيبا من شيوخها وأمرائها، و سطع نجمه في الشعر و الأدب و النقد، فقال في مختلف الأغراض الشعرية ،و كان محترما بين أصحابه وإن دلت بعض الروايات بأن فيه شيئا من الغفلة و البله، تولى التدريس في القيروان، ونهل شبابها من علمه وأدبه و ثقافته باستمرار، و خلف لنا آثارا كثيرة لكنها ضاعت مع ما ضاع من تراث الأدب المغربي القديم و لم يسلم منها سوى كتاب الممتع الموجود الآن في المكتبة العربية

بعنوان اختيار الممتع يقول فيه ابن رشيق (كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب و أشعارها بصيرا بوقائعها و آثارها...) توفي سنة 404هـ.

(ينظر: كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لحسن بن رشيق، و كتاب الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي لبشير خلدون، و كتاب اختيار الممتع النهشلي ،و كتاب تاريخ الادب العربي لشوقي ضيف) .

5- ابن الرّبيـــــب

هو الحسن بن محمد التميمي القاضي التاهرتي المعروف بابن الربيب و أصله من مدينة تاهرت، طلب العلم بالقيروان على أيدي علمائها و كبار محدثيها و كان أبو عبد الله بن جعفر النحوي معينا و محبا له فبلغ به النهاية في الأدب و علم الخبر و النسب، و كان خبيرا و عالما باللغة، شاعرا مقدما، قوي الكلام يتكلفه بعض التكلف، توفي بالقيروان سنة 420هـ و قد جاوز الخمسين من عمره .(ينظر: كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لحسن بن رشيق، و كتاب تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ).

6- عبد الله الجـــــراوي

هو عبد الله بن محمد الجراوي نسبة إلى جراوة، و جراوة مكان حدده ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان بالموضع الموجود بافريقية بين قسنطينة و قلعة بني حماد القريبة من المحمدية (المسيلة) داخل ارض المغرب، قدم الشاعر إلى حاضرة القيروان سنة 407هـ و كان شاعرا فحلا

قويا وصافا دربا بالخبر و النسب جيد الفكر و الخاطر يجيد فن الترسل يتحدر كلامه كالسيل توفي مقتولا سنة 415هـ و سنه لا يتعدى الأربعين.(ينظر كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لحسن بن رشيق، و كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، و كتاب تاريخ الأدب العربي القسم الخاص بعصر الدول و الإمارات لشوقي ضيف).

7- ابن أبي الرجـــــال

هو أبو الحسن علي بن أبي الرجال ينسب إلى القيروان و يرجع نسبه إلى أشراف مدينة تاهرت، هاجر إلى القيروان و عاش فيها زمنا في بلاط المعز بن باديس الصنهاجي، و كان

عنده وزيرا، و منزلته لديه سامية، و نفوذه في البلاط عظيما، فتقرب إليه العلماء و الأدباء أهدى إليه ابن رشيق كتابه المشهور العمدة، كما أهدى إليه ابن شرف القيرواني كتابه رسائل الانتقاد، و كان شاعرا أديبا ناثرا مجيدا يميل إلى العلوم الرياضية توفي سنة 425هـ.

(ينظر: كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لحسن بن رشيق، و كتاب تاريخ الأدب لبروكلمان، وكتاب تاريخ الادب العربي لعمر فروخ) .

8- ابن رشيـــــــــق

هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي شاعر و ناقد و مصنف و أديب فاضل، ولد سنة 390هـ بالمحمدية (المسيلة) كان أبوه روميا من موالي الازد فنسب إليهم، قرأ القرآن و الشعر و بعض علوم عصره في مدارس و كتاتيب المحمدية، و احتك بأبيه فتعلم منه حرفة الصياغة و هو

صغير السن، و لما رغب في التزيد في العلم و الأدب يمم وجهه شطر القيروان مقصد العلماء و الطلاب، فتقرب من البلاط و مدح المعز بن باديس الصنهاجي، و عندما تعرضت القيروان لمحنة قبائل بني هلال الذين استباحوها و خربوها انتقل ابن رشيق إلى المهدية حيث الأمير تميم بن المعز ومكث عنده إلى حين وقع بينهما خلاف غادر على إثره

المهدية، و قصد جهة البحر، و أبحر نحو جزيرة صقلية، و أقام هناك بمازر إحدى مدنها إلى أن وافته المنية سنة 463هـ أثرى المكتبة العربية بعدة مؤلفات في مختلف الاختصاصات من الادب و النقد و الشعر و اللغة، و اشتهر عموما بكتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده، و كتاب قراضة الذهب، و كتاب الشذوذ في اللغة، و كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان .

(ينظر: قاموس تراجم أشهر الرجال و النساء لخير الدين الزركلي، وكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، و كتاب جريدة القصر و جريدة العصر الجزء الثاني للثعالبي)

.